

رواية

فيروز رشام

تشرفتُ برحيلك

فضاءات
للنشر والتوزيع

تشرفتُ برحيلك

رقم الإيداع لدى
دائرة المكتبة الوطنية
2018/7/3702

813.9
رشام، فيروز
تشرفت برحيلك – فيروز رشام – ط2– عمان: دار فضاءات، 2018
الواصفات: /القصص العربية//العصر الحديث/

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو اي جهة حكومية أخرى.

ISBN: 978-9923-716-51-9



الطبعة الثانية: 2019

دار فضاءات للنشر والتوزيع – المركز الرئيسي
عمان - شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران
تلفاكس: 4650885 (6 - 962+) هاتف جوال: 911431- 777(962+)
ص.ب 20586 عمان 11118 الأردن
E.mail: Dar_fadaat@yahoo.com
Website: http://www.darfadaat.com

تصميم الغلاف: فضاءات للنشر والتوزيع
الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

فيروز رشام

تشرفتُ برحيلك

رواية



الجزائر العاصمة أواخر شهر ديسمبر 2015. الجو بارد وممطر، وهذا أول حوار صحفي تقبل فاطمة الزهراء بإجرائه، فهي لم تكتب من أجل الشهرة إنما من أجل قضية. معلمة مجهولة لا يعرفها سوى تلاميذها قبل أن تصدر كتابا مثيرا، تحاورها صحفية ذكية وعميقة تعمل في مجلة أدبية مرموقة، وقد اتفقتا على اللقاء في مكان دافئ وهادئ.

- حدثيني عن قصة كتابك.
- قصة كتابي هي أيضا قصة حياتي، وقصة حياتي هي قصة مجتمع، وقصة المجتمع هي في النهاية جزء من التاريخ، ولا أعرف كيف أفصل بين كل هذا.
- قصة حياتك هي التي تهمني الآن. فالكتاب موجود وسيظل موجودا حتى وإن اختلفت قراءاته وتعددت تأويلاته، وقصة المجتمع سيكتبها آخرون، أما قصة حياتك فإن لم تحكيها أنت فلن يعرف أحد كيف يحكيها، ثم إن قصص حياة الأفراد هي التاريخ الحقيقي للمجتمعات.
- ماذا تريدين أن تعرفي وحياة الإنسان لا يمكن أن تختصر في حوار ولا حتى في كتاب؟
- لن أطرح عليك أي سؤال. حدثيني كما تشائين عما تشائين عسى تبوحين بالأشياء التي لم تقوليها في كتابك.

- من الجيد أنك لن تطرحي الأسئلة، فالصحفي الجيد هو الذي يجيد الاستماع لا الكلام.

شغّلت الصحفية مسجّلها ووضعته على الطاولة، والمطر ينهمر ويدق على زجاج النافذة التي جلستا بقربها وهما تتأملان المشهد في الخارج. بعد لحظات صمت طويلة أرادت لفت انتباه ضيفتها وإخراجها من صمتها فدفعت بالمسجل قليلا أمامها ودعتها إلى الكلام: أنا أسمعك سيدتي..

تنهدت فاطمة الزهراء وقالت:

من أين سأبدأ الحكاية؟

من يوم ميلادي الذي ربما لم يكن سعيدا، لأن لا أحد أخبرني لاحقا أنه فرح بقدومي. أو من يوم أدركت أنني في الحقيقة لم أكن قبلاً حية، إنما كنت فقط على "قيد الحياة"! أم من يوم متّ وشبعت موتًا حتى انفجرت فجأة شهيتي للحياة بكل كياني وعنفواني وجنوني!

لم يكن هناك فرق بين الأزمنة في حياتي. الأمس كان دائما غدا أقرب مما توقعت، والغد ماض لم يمهلني الوقت لأدركه. وحده الحاضر كان يلهيني، فمن لحظة استيقاظي وأنا أجري وهو يجري، وأنا ألهث وهو يعبث، وفي آخر المساء أتعب ولا يتعب. أستسلم وأنام لأنساه، وفي الصباح الموالي أجده قد نام بجانبي واستيقظ معي ليرافقني من جديد..

كنت تلميذة في الثانوية بداية التسعينيات عندما بدأنا نسمع بكلمة "الإرهاب" دون أن نعرف لها معنىً محددا. لم نفهم ما هو بالضبط، ولا إلى أي حد هو خطير. بقينا كذلك لعدة سنوات ونحن لم نستوعب

كيف حدث كل الذي حدث، وتحولت الجزائر من قطعة من الجنة إلى قطعة من النار، وهي التي كانت جنة الجنّات، التي تأوي إليها كل الكائنات لتعشق وتتكاثر وتستوطن بسلام.

في قريتي الصغيرة التابعة لولاية بومرداس، والواقعة على تلة مرتفعة عند الجهة الشرقية لعاصمة الولاية، بين بلدية زموري ومدخل مدينة بومرداس، كنا نعيش في أمان قبل أن ينخرط شبابها في موجة التطرف ويفسدوا علينا كل العادات الجميلة.

شيء ما بدأ في الحدوث في قريتنا وفي بيتنا، بيت عمي صالح، الرجل الصالح حقــا، الذي كانت أقصى طموحاته تربية رجال صالحين لهذا البلد.

بدأ أخي فؤاد يتغير، أربعة وعشرون عاما، ترك الدراسة بمحض إرادته قبل أن يكمل تعليمه الأساسي، ولا شغل له سوى مراقبتي أنا وأختي جميلة وإصدار الأوامر لنا وترصد حركاتنا.

وبدأ أخي الأكبر رشيد يتغير أيضا، ثلاثة وثلاثون عاما، متزوج وأب لطفلين، هما حسام ذو الثلاث سنوات ويوسف تسعة أشهر. لا مهنة له ولا حرفة، عمل لمدة نادلًا في مقهى ثم بائعا في سوق الخضر، ومؤخرا ينوب عن أبي من حين لآخر في دكان المواد الغذائية العامة الذي لا يبعد عن بيتنا سوى بضعة أمتار، والذي استأجره أبي ليسترزق منه.

شيء ما بدأ يتغير في هندامهما وتصرفاتهما. البداية كانت مع فؤاد حيث كان يغيب طويلا عن المنزل على غير عادة، وهو الذي يظل يحوم حولنا، ويحتكر التلفزيون الذي لا يبث سوى قناة واحدة. لكن مع

الأيام أصبح قليل الدخول إلى المنزل ما كان يريحنا أنا وجميلة غاية الراحة. فيما بعد أصبح يغيب ليلًا أيضا.

في الليلة الأولى التي لم ينم فيها في البيت، فتحت أمي مندبة حقيقية. كان رشيد على غير علم بمكانه وحسبه مع أصدقائه. وفي الغد كنت مع جميلة نحضّر العشاء وندردش عندما سمعنا صراخ أمي. رمينا ما بأيدينا وجرينا نحو الصالون، لنجده واقفا وسطه وأمي تعانقه وتقبله من الرأس إلى القدمين، قبل أن تنهار أمامه وهو جامد يتساءل:

- ماذا هناك؟ أكلّ هذا لأني غبت ليلة واحدة؟ ألست رجلا أنا!

لحظات ودخل أبي، فقد أخبره أحد الجيران أنه رأى فؤاد قادما، فأغلق الدكان سريعا وعاد إلى البيت:

- أين كنت يا ولد؟
- لست ولدا. ألا ترى أن أمامك رجلا!
- سألتك أين كنت؟
- كان عندي شغل.
- شغل في الليل!

كان أبي متوترا جدا، سأله من باب خوفه عليه لا أكثر، فأبي بسيط في تفكيره ولم تكن لديه أدنى فكرة أين يمكن أن يكون قد ذهب.

علا بينهما الصراخ ودخل رشيد الذي كان بالجوار، وكثورٍ عنيف شدّ فؤاد من وسط صدره وكاد يضربه:

- أين كنت هيا تكلم؟
- دعني، وما شأنك أنت؟

همّ بضربه قبل أن تصرخ أمي:

- كفى كفى دعوه وشأنه، المهم أنه عاد بخير.

سحبه أبي من ذراعه وكلّمه بلغة نادرا ما يتكلمها:

- اسمع يا ولد، هذه أول وآخر مرة تبيت فيها خارج الدار هل فهمت؟

- اتركني! أنتم لا تفهمون شيئا، البلاد تسير نحو الهاوية وأنتم تسألون أين نمت. نمت حيث ينام الرجال!

لم يفهم أحد منا عما يتحدث، وبدا لنا غريبا بعض الشيء بجلابيته السوداء المشبعة برائحة الخشب المحترق. كانت ليلة متوترة والعشاء الذي كان يفترض أن يؤكل في وقته بقي إلى الغد.

في اليوم الموالي كنت أستعد للذهاب إلى الثانوية بحماس، وكنت سأدخل الحمام حينما تقاطعت معه في الرواق. رمقني بنظرة ثم قال:

- هيه أنتِ.. أمازلت تجوبين الطرقات صباح مساء!
- أذهب إلى الثانوية لا إلى الطرقات.

كان سيضربني لولا أنّ أبي همّ بالخروج، فتراجع مهددا:

- قريبا سأهتم بك..

دقّ قلبي دقات خوف وارتباك. كل شيء يمكن أن أتحمله إلا فكرة مغادرة الدراسة.

في الأسابيع الموالية بدأ مظهر فؤاد فعلا يبدو غريبا، فلا حلق لحيته، ولا خلع جلابيته. يغيب طوال النهار ويأتي متأخرا في الليل ليغادر في الصباح الباكر. وككل ليلة، لا يأوي أبي إلى فراشه حتى يتأكد أنه دخل

البيت لأن غيابه يؤرقه جدا. في البداية كان ينتظره ليوبخه، ثم بعد مدة أصبح ينام أو يحاول النوم وباله مشغول عليه. ماذا يفعل هذا الولد؟ وأين يذهب؟ إذا لقيه في الصباح وبّخه أو صبّ جامّ غضبه على رشيد.

ذات مساء طلب مني أبي أن أنادي على رشيد الذي كان في غرفته.

- أين يذهب أخوك؟
- وكيف لي أن أعلم؟
- لا تعلم استعلم! اسأله، اسأل عنه، راقبه، افعل أي شيء، ما أدرانا ماذا يفعل الآن، ألا تنفع لشيء أنت أيضا!
- إنه إما في المسجد أو يسهر مع أصدقائه، أين الضرر؟
- في المسجد!! منذ متى أصبح يرتاد المسجد، هل نزل عليه الوحي! ثم كيف يسهر مع أصدقائه في هكذا وقت، ألا تسمع الأخبار وما يحدث! ما عاد هناك أمن ولا أمان، فكيف يخاطر بحياته ليسهر ويسمر. إنه حقا بلا عقل!
- طيب دعك منه، أنا سأتولى أمره.

ذلك ما ظنناه بدايةً، لكن في النهاية فؤاد هو من تولاه، وجعله شريكا في شيء ما، فتغيرت ملامح رشيد تدريجيا، بعد أن أطال لحيته هو الآخر، وتخلى عن سروال الجينز كما فعل فؤاد، ليلبسا هذا السروال الذي لم نر مثله من قبل، لا هو طويل ولا قصير، لا من الصوف ولا من الحرير، سروال يتوقف في نصف الساق، ومن فوقه يلبسان قميصا عريضا وقصيرا أيضا!

أما قصة المسجد فهي الأغرب في كل شيء، ففؤاد لم يوجّه يوما رأسه للقِبلة، ويكفي أن تنقصه سيجارة ليسب الله والدين والوالدين حتى الثمالة! أيعقل أنه اهتدى! ما أسرعها وأغربها من هداية!

قريتنا صغيرة، فيها مدرسة ابتدائية، ومسجد صغير في أعلى التلة. وللذهاب إلى مدينة بومرداس لا بدّ من النزول على الأقدام إلى أسفل التلة حيث الطريق الرئيسي المؤدي إلى المدينة، وهناك يوجد موقف الحافلات. لم يكن أبي يرتاد مسجد القرية لسببين: أولًا، لا يحب ذلك الإمام السلفي المتعصب الذي تم تعيينه مؤخرا خلفا لإمام مريض. وثانيا، لأنه متعب ولا يستطيع الصعود نحو أعلى التلة، لذلك يصلي دائما في مسجد آخر عند مدخل المدينة، يذهب إليه راجلا أحيانا وبالحافلة أحيانا أخرى، وعليه لم يحدث أبدا أن رأى فؤاد في المسجد.

تغيرت الأجواء في بيتنا وسادها التوتر، فيوما بعد يوم أصبح رشيد كثير الغياب عن البيت أيضا، في حين عاد فؤاد مرة أخرى للنوم خارجا، لكن رشيد هذه المرة بدا مطمئنا عليه وقال لوالديّ ذات ليلة:

- لا تنتظروه فقد أخبرني أنه سينام عند بعض الأصدقاء.

بلع أبي تلك الجملة على مضض وانتفض من مكانه وهو يفور. ولولا ضحكات حسام ويوسف التي تملأ المكان لمتنا من الضجر. كنت أقضي وقتي في البيت بين اللعب معهما في فناء الدار الذي نناديه بالحوش، حيث توجد شجرة تين وبعض الحبق والنعناع والكسبرة مما غرسته أمي، وبين قراءة كتب الشعر والروايات التي كنت أحضرها من مكتبة الثانوية. في حين جميلة هي التي تتكفل بالطبخ وأشغال المنزل مناصفة مع خديجة زوجة رشيد حينا، ووحدها في أغلب الأحيان.

تكبرني جميلة عمرًا بسنة واحدة فقط، أما مرحًا وبهجة فبعشرات السنين، فهي دائمة الضحك والتنكيت. قد تضحك على أي شيء،

المهم أن تضحك. لا أدري من أين يأتيها كل ذلك الفرح ولا ما سببه، لكنها غالبا ما تصيبني بالعدوى لأجد نفسي أضحك وأفرح مثلها بلا سبب.

غادرت جميلة المدرسة بمحض إرادتها لأنها تكره الجلوس إلى طاولة وكرسي طوال النهار كما تقول. لم تكن تبذل أي جهد لتفهم درسا أو تحفظ قاعدة، ومع ذلك بلغت السنة التاسعة أساسي. وعندما رسبت في امتحان التعليم الأساسي والانتقال إلى الثانوية قررت ألا تعود إلى المدرسة، وما كان أبي ليسمح لها بذلك لولا أن دموعها هطلت بغزارة في بداية السنة الدراسية عندما عرض عليها إعادة السنة. كان موقفا نادرا فعلا، ففي الوقت الذي ذرفت فيه مئات البنات في الجزائر الدموع من أجل مواصلة الدراسة، بكت جميلة كي لا تعود إليها! وأمام إصرارها اللعين رضخ لها أبي مهددا إياها:

- إن بقيتِ في البيت فسأزوجك لأول عريس. هل سمعت!

احمرّت خجلا، وهرولت بسرعة إلى المطبخ وهي تدندن مبتسمة:

- نعم نعم سأتزوج، فهذا كل ما أريد!

أتذكر ذلك الموقف جيدا كما لو حدث البارحة فقط. منذ ذلك الحين وجميلة مستمتعة بوقتها، تجرب الأطباق والحلويات كلما وجدت ما يلزمها، لأنها تريد أن تكون زوجة ماهرة في كل شيء، وهي بذلك أراحت أمي كثيرا لولا أن خديجة استغلت شغفها وظلت تتحجج بتربية ولديها كي لا تساعدها في شيء.

لدى جميلة دائما أحدث الأخبار من صديقاتها الكثيرات، اللواتي يجتمعن في كل مرة في بيت إحداهن، ويتسلين بالطبخ والطرز

والحديث عن قصص الغرام. صحيح هي ماكثة بالبيت لكن رأسها أشبه بالرادار، يرصد كل حركة وكل حدث في قريتنا، حيث البيوت موزعة هنا وهناك بلا مخطط. بيوت بسيطة بنوافذ وأبواب خشبية، تحيط بها بعض الأشجار والبساتين الصغيرة.

دار عمي عمر ليست بعيدة، وبناته الأربع أحلى رفقة لمن أراد السهر والسمر، لكن لا شيء يثير غيظ رشيد وفؤاد كرؤية إحدانا تسير في القرية من بيت لآخر، ومع ذلك لم يتجرآ يوما على منعنا من الذهاب إلى بيت عمي، فأبي كان دائما يقول لهما:

- أتمنعان بناتي عن بيت أخي؟!

وفّرت جميلة عليهما عناء إقناع أبي بتوقيفها عن الدراسة، بحجة أنه لا فائدة من ذلك وأن مكان المرأة هو البيت، وأن الطريق إلى مدينة بومرداس حيث توجد الإكماليات والثانويات بعيد، لكن أبي ما كان ليقتنع أبدا بشيء كهذا، وهو الذي توسل إلى جميلة لتعود إلى المدرسة حينما رسبت في الإكمالي.

أبي رجل يقدس العلم ويبجله رغم كونه محدود التعليم، ولا فرق عنده في ذلك بين ذكر وأنثى. أختي نصيرة أيضا توقفت عن الدراسة بعد إعادتها السنة الثامنة أساسي، وهي تكبرني بأربع سنوات. لم يطل بقاؤها في البيت فقد انهال عليها الخطّاب من داخل القرية وخارجها، وفي النهاية رضت بأحدهم وتزوجت معه وهي بنت سبعة عشر عاما، ولحسن حظها فإنها تنعم بحياة هادئة وميسورة مع تاجر من مدينة قورصو البحرية الواقعة على الجانب الغربي من مدينة بومرداس.

كنت الأكثر تعلقا بالمدرسة بين إخواني وأخواتي الخمسة، وكان علي، أخي الأصغر ذو العشر سنوات يبدو متعلقا بها أيضا رغم أنه

كان لا يزال في التعليم الابتدائي، فأول ما يفعله بعد العودة من المدرسة هو إنجاز تمارينه، مع أن أمي تظل تتوسل إليه أن يأكل ويلعب قبل أن يفتح كراريسه، لكنه من النوع الذي ينجز واجباته قبل أن يأمره أحد، لذا كنت متفائلة بمستقبله.

عندما أعود الآن إلى ماضي الدراسي لا أدري لماذا أجد ذاكرتي تبدأ التأريخ من السنة الثانية ثانوي بالذات. ربما لأنه العام الذي بدأت تتغير فيه الأشياء والناس، وربما وقتها فقط بدأت أدرك حجم طموحاتي ومواهبي، لكن الأرجح أن ذاكرتي بدأت التأريخ في هذا العام لأنه العام الذي انفجرت فيه المشاعر والأحلام في داخلي.

كنت متحمسة جدا للذهاب إلى الثانوية، فهناك يوجد شخص أحب أن أراه. تتسارع دقات قلبي كلما لمحته في الساحة وهو يرمقني بنظراته. في البداية كنت أتجاهله، ثم أصبحت بدوري أرمقه وأراقبه، وقبل حلول نهاية السنة أصبحت أدمنه!

كنت أحب أن أراه كل يوم حتى يطمئن قلبي، وأشعر بالفرحة العارمة كلما صادفته. بعد مدة تآلفت نظراتنا وازداد تعلقنا كما لو كنا حقا يعرف بعضنا بعض.

شيئا فشيئا حفظته.. حفظت وقفته المستقيمة، ابتسامته الخجولة، قميصه، محفظته، مكانه المفضل في الساحة. إنه تلميذ يسبقني بسنة، فهو في السنة الثالثة ويستعد لاجتياز امتحان البكالوريا. آنذاك لم يكن لدي أي مفهوم للحب ولا أية فكرة عن الرجل، وما كنت أقرأه في كتب الشعر والروايات كان يغذي خيالي فقط دون أن يضعني أمام حقيقة معينة، لكني كأية فتاة في عمري كنت أؤمن بفارس الأحلام، وأقول لنفسي: إن كان لا بدّ أن أتزوج فإني أختار هذا الشاب..

لا أدري كيف، ولكني حقا أحبه وأشتاق إليه، وليس بيننا بعد أي كلام!

بقينا لأشهر ونحن نتبادل النظرات والبسمات من بعيد، وما كادت تنتهي عطلة الربيع حتى أحرقني الشوق. ذهبت بلهفة أول يوم من الفصل الدراسي الأخير والقصير. كان يوم سبت حيث الدراسة آنذاك تبدأ من السبت إلى الخميس، وعطلة نهاية الأسبوع فيها يوم واحد فقط وهو يوم الجمعة. كانت بوصلة قلبي تبحث عنه في كل الاتجاهات، وفي زحمة الساحة وكثرة الحركة والضجيج فيها ضعتُ وضاعت عقاربي. لم يكن واقفا أمام صف قسمه كالعادة.

قمت بدورة كاملة حول نفسي عساني ألمحه في ركن ما، لم أره وخفت جدا عليه. أين هو؟ وهل هو بخير؟ شعرت بأنه لا طعم لوجودي هناك بدونه.

دخلنا الأقسام وبقيت مشغولة البال، ولم أتوقف عن هزّ رجلي حتى ضربتني زميلتي التي تجلس معي قائلة: كفى، هل زلزلت الأرض تحتك!

دق الجرس بعد ساعتين وخرجنا لاستراحة العاشرة، الساحة مسرحٌ للقبل والعناق بين التلاميذ بعد فراق أسبوعين من عطلة الربيع، وأنا كنت أردّ التحايا وأسلم على زميلاتي، وعيناي تترصدان شخصا آخر.

وقفت مرة أخرى وسط الساحة غير بعيدة عن صف قسمه، لم يكن في مكانه المعتاد بجانب عمود الكهرباء. توترت، ومن فرط توتري شعرت بالحاجة للذهاب إلى الحمام، درت لأقصد المغاسل وإذا به واقف أمامي. كانت تلك أول مرة أراه عن هكذا قرب.

- صباح الخير.
- صباح النور.
- كيف أنتِ؟
- بخير. وأنت؟

ابتسم ولم يرد على سؤالي.

- كيف كانت عطلتك؟

تلعثمت بداية ثم قلت:

- عادية. وكيف كانت عطلتك أنت؟
- لم أشعر بها، كنت مشغولا بالمراجعة، امتحان البكالوريا أصبح قريبا جدا الآن كما تعلمين.
- صحيح. قريب جدا.

صمتنا، وأخذ يتأملني، وأنا مثله لا أشعر بوجود أحد. لا أدري كم دامت لحظة الصمت تلك، ربما برهة فقط وأنا بدت لي طويلة.

دق الجرس ثانية وبدأ التلاميذ ينتظمون في صفوف، وكان علينا أن نلتحق بهم. ابتسم وقال:

- حظا سعيدا.

أجبته بالمثل والسعادة تغمرني. لا أدري كيف أتذكر هذه التفاصيل اليوم، فقد حسبت بأني فقدت معظم ذاكرتي.

في الغد كانت لدي ساعة فراغ في الثانية ظهرا، ذهبت إلى المكتبة كعادتي لأعيد رواية كنت قد أخذتها معي إلى البيت وقرأتها خلال العطلة. بدأت أتصفح قوائم الكتب من جديد بحثا عن أي عنوان

يستحق الاكتشاف. المكتبة مكتظة بتلاميذ السنة الثالثة الذين يكثفون مراجعة الدروس لذا لا تكاد تجد مكانا للجلوس. جبت القاعة ولم أعثر على مكان فارغ، هممت بالمغادرة ثم عدّلت عن رأيي عندما لمحت بعض التلاميذ يغادرون إحدى الطاولات.

جلست ورحت أقلّب صفحات دليل الكتب الأدبية، هذه المرة أريد ديوان شعر. وجدت نفسي أقرأ نفس الصفحة مرتين لأني تذكرته.. وهل نسيته حتى أتذكره! كم يشغلني هذا الشاب ويسحرني! فكرت لوهلة أنه لن يكون هنا العام المقبل وشعرت بإحساس سيّئ جدا، كان ألما أسفل بطني، أعرف هذا الإحساس الذي ينتابني كلما شعرت بالخوف.

رفعت رأسي لأتنفس عميقا وإذا به يجوب القاعة بحثا عن مكان. كنت سأصرخ وأقول له: أنا هنا، تعال قبل أن يجلس أحد بجانبي فعشرات التلاميذ يبحثون عن مكان! لكني لم أفعل وتظاهرت بعدم رؤيته، وقلبي يدق بسرعة كأنما يريد الهروب من صدري، وبقيت أكرر في داخلي ممسكة بقوة مقابض الكرسي: هيا هيا تعال!

ولحسن حظي جاء..

- أوف.. وأخيرا عثرت على مكان. كيف أنتِ؟

- أهلا. يبدو بأن تلاميذ القسم النهائي سيعتكفون في المكتبة بدءا من الآن.

- ذلك ما يجدر بهم أن يفعلوه، فلم يبق الكثير من الوقت.

همّ بفتح محفظته ثم عدّل عن ذلك وسألني مرة أخرى:

- كيف أنتِ؟

- بخير.
- مازال الوقت مبكرا على امتحاناتك، لِمَ تستعجلين المراجعة؟

رمق في يدي قائمة الدواوين الشعرية:

- تقرئين الأشعار؟
- أجل أحب ذلك.
- أنت رومانسية إذن.
- أظنني كذلك.
- أنا أيضا أحب قراءتها لكني لا أجد الوقت لذلك. لمن قرأتِ؟
- للذين توجد دواوينهم في هذه المكتبة.
- ومن هو الأفضل عندك؟
- أبو القاسم الشابي.
- آها.. إنه الشاعر الوحيد الذي فهمت قصيدته الموجودة في كتاب اللغة العربية دون حاجة إلى القاموس. تُتعبني تلك القصائد التي لا أفهم فيها شيئا، ثم يسأل عنها الأستاذ: ماذا يقصد الشاعر؟ أقسم أنه هو نفسه لا يدري ماذا يقصد!

ضحكنا وشعرت بأن قلبي قد عاد إلى مكانه.

- ششش... سيخرجوننا من المكتبة!
- لا لا، هل تعتقد أن الجميع هنا جاء ليدرس؟ ألا تسمعهم يتحدثون؟

سادت بيننا لحظة صمت وتبادلنا النظرات. لم أجد شيئا لأقوله ثم سبقني للكلام:

- أليس غريبا أننا لا نعرف بعد أسماء بعضنا؟

- وهل كلّمتني قبل البارحة أصلًا!

ابتسم ثم مدّ يده إلي:

- طارق.

مددت يدي لأصافحه والنار مشتعلة في أصابعي، ورحت عبثًا أحاول إخفاء توتري:

- طارق، أنت هو فاتح الأندلس إذن.
- تحفظين دروس التاريخ جيدا، أنت مجتهدة.

ضحكنا ويدانا لا تزالان ملتصقتين تتعرقان:

- فاطمة الزهراء.
- قولي زهرة الفاطمات. أنت حقا جميلة.

احمرّ وجهي ولم أقل شيئا. سحب يده وأخرج من محفظته كتابا وكراسا حتى لا يلحظ المراقبون بأننا جلسنا فقط للثرثرة. قمت من مكاني وطلبت ديوان الشابي، وعند عودتي وجدته منهمكا بحل معادلة. لمح الديوان في يدي وقال:

- احذري، فإن أدمنت قراءة الشعر فستصبحين شاعرة!
- ذلك ما أتمناه.
- حقا! أتكتبين الشعر؟
- أحاول.
- ألم أقل لك بأنك رومانسية.
- وأنا لا أنكر. هل هذا عيب؟
- لا. أظن أن ذلك جميل جدا. لا شك أنك رقيقة وحساسة، فالشعر منتهى الإحساس.

- ومنتهى الوجع أيضا.

دفع بكراسه جانبا وسحب مني الديوان:

- هيا دعينا نقرأ بعض الشعر، فقد مللت من المعادلات.

ما أروعه من إحساس أن تتشارك مع شخص تحبه شيئا تحبه. بدأنا نقرأ بصمت. قلّب بعض الصفحات ثم أخذ يقرأ بصوت مرتفع:

عذبة أنتِ كالطفولة، كالأحلامِ

كاللحنِ، كالصباح الجديدِ

كالسماء الضحوكِ كالليلة القمراءِ

كالوردِ، كابتسام الوليدِ

توقف لبرهة ونظر إلي:

- أكان الشابي يعرفك عندما كتبها؟ هذه أنتِ..

شعرت بأني فعلا كذلك ولم يراودني أي شك. لا أدري لماذا أثق فيه وأصدق كل ما يقوله. ابتسمنا وأكملنا قراءة القصيدة بصمت، وفجأة علّق:

- أرأيتِ البساطة؟ لا حاجة لقاموس شرح الكلمات.

قرأنا نصف القصيدة أو أكثر، وعاد إلى قلب الصفحات من جديد، بحثا عن شيء يشبهني أو يشبهه. توقف عند قصيدة أخرى وقرأ معلّقًا: هذا أنا..

أراكِ، فتحلو لدي الحياةُ

ويملأ نفسي صباحُ الأملْ

وتنمو بصدري ورودٌ، عِذابٌ

وتحنو على قلبيَ المشتعلْ

ويفتنني فيك فيضُ الحياةِ

وذاك الشبابُ، الوديعُ، الثّملْ

ويفتنني سحرُ تلك الشفاهِ

ترفرفُ من حولهنّ القبلْ

توقف ونظر إلي مبتسما ثم واصل:

فأعبدُ فيكِ جمالَ السماءِ

ورقّةَ وردِ الربيعِ، الخضِلْ

- مازالت القصيدة طويلة والديوان كبير، ستجعلينني مدمنا على الشعر مثلكِ.

قرأنا المزيد من القصائد إلى أن وصلنا إلى:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياه

فلا بدّ أن يستجيب القدر

ولا بدّ لليل أن ينجلي

ولا بدّ للقيد أن ينكسر

ومن لم يعانقه شوقُ الحياة

تبخّر في جوّها، واندثر

- هذه هي القصيدة الموجودة في كتاب اللغة العربية. إنها الوحيدة التي حفظت منها بعض الأبيات وأشعر بالقوة كلما قرأتها.

قال ذلك قبل أن نواصل قراءة قصائد أخرى بصمت، متبادلين النظرات والبسمات إلى أن أدركنا الوقت، ودق جرس الساعة الثالثة، موعد العودة للأقسام.

- سنواصل قراءة البقية هنا في مثل هذا التوقيت. أهذه ساعة فراغ في برنامجك أم غاب أستاذ؟
- ساعة فراغ.
- جيد، وأنا أيضا.

غادرنا المكتبة وافترقنا عند الدّرج، فهو يدرس في الطابق الثالث وأنا في الطابق الثاني. غمرتني ذلك اليوم سعادة لم أتعود عليها بعد، ونمت ليلتها فوق غيمة ناعمة دافئة، مسترجعة تلك الساعة لحظة بلحظة وأنا أردد في داخلي: طارق.. طارق..

- خيرا إن شاء الله! ما الذي يفرحك هكذا؟ أتدغدغك الملائكة!

قالت جميلة عندما أوَت إلى فراشها وهي تتأملني:

- تذكرت موقفا مضحكا في المدرسة.
- ممم...

جميلة ذكية ومن الصعب الكذب عليها. أقفلت الموضوع سريعا:

- أنا نعسانة تصبحين على خير.

أصبح الآن يوم الأحد أحب أيامي. أنتظر الساعة الثانية ظهرا بكل شغف. كم يبدو الأحد بعيدا عندما نكون في يوم الاثنين!

في صباح يوم الاثنين تمنيت لو أبتلع المسافات لأبلغ الثانوية في أقصر وقت. لم أره في الساعة الثامنة، وفي استراحة العاشرة لمحته من بعيد، وعندما رآني خطا نحوي ومد يده قبل أن يصل إلي:

- صباح الخير زهرة.
- زهرة! طارق أنسيت اسمي بعد يوم واحد فقط!

تعمدت تلفظ اسمه ليعرف أنني مازلت أذكره.

- فاطمة الزهراء اسم طويل، ثم ألم أقل لك أنك زهرة الزهرات. أفضل أن أناديك زهرة، أتمانعين؟

كنت سأموت غيظا لو أنه حقا نسي اسمي. لا أحد يناديني زهرة، فأنا أنادى فاطمة الزهراء، لكن طارق استثنائي في كل شيء. أحببت فكرة أن يناديني باسم مختلف.

في الأيام الموالية أصبحنا نقف معا في الساحة كلما تصادفنا، بل نبحث عن بعضنا بعض عن قصد في كل استراحة. يبتسم من بعيد ويبادر دائما بمصافحتي. كانت فترة عشتها على وقع: صباح الخير زهرة.. مساء الخير زهرة..

مرّ شهر أفريل بسرعة والامتحانات على الأبواب. طارق مضغوط بالمراجعة، وأنا مضغوطة بأفكاري وأحلامي. ستتوقف الدروس بداية شهر ماي وستتضاءل فرص لقائنا.

بعد ذلك الأحد السعيد اجتمعنا في المكتبة ثلاث مرات أخرى لم نستطع فيها الحديث براحة لأن المكتبة ازدادت اكتظاظا مع اقتراب الامتحانات، فلا نجد طاولة بكرسيين شاغرين حتى تكاد ساعة الفراغ تنتهي.

كنت أشعر بالفزع كلما فكرت بأنه لن يكون هنا العام المقبل. لدي أشياء كثيرة لأقولها له وإن كنت لا أعرف عنه شيئا إلى الآن سوى اسمه، وإذا انتهت الامتحانات فلن أستطيع المجيء إلى الثانوية.

كان أول أسبوع من شهر ماي آخر أسبوع للدراسة، وأنا أعدّ الأسابيع والأيام عدًّا. التقينا صباح يوم السبت:

- صباح الخير "زهرتي".
- زهرتك! أليس باكرا أن تضيف "تي"! أنت رجل متملك.
- ألا تحبين أن تكوني لي؟
- أنا زهرة برية، لا يمتلكني أحد.
- ابقي في البرية حتى تأكلك النّعاج إذًا!

ذهلت لجوابه، وندمت على تعليقي، لأني فعلا أريد أن أكون له.

مددت يدي وصافحته بكل ما أستطيع من قوة. ردّ بالمثل وأقوى حتى شعرت بأن أصابعي ستنكسر بين أصابعه، ليس وجعًا إنما اشتهاءً.

- غدا يجب أن أراكَ، قد يكون هذا آخر أسبوع وبعدها سيكون من الصعب أن نلتقي.
- سأكون هنا. أنا أيضا أريد أن أراكِ.

بدا لي اليوم طويلا، والأحد بعيدا، وهو ليس سوى غدٍ!

- مساء الخير زهرتي.
- مساء النور طارق.
- كيف أنت يا عذبة؟

ذكّرني ببيت الشابي ذاك: عذبة أنت كـــ.. وراح يعيد علي البيتين الأول والثاني ثم أضاف:

- أتعرفين بأني سأشتاق إليكِ كثيرا.

- لم تقول ذلك؟ أهذه آخر مرة نلتقي فيها؟

انطفأت ابتسامتي وظهر علي الخوف والقلق:

- هيه لا تحزني، فحزنك يحزنني. سنلتقي بالتأكيد في الجامعة، أم لديك طموح آخر؟
- طبعا الجامعة هي طموحي أيضا.
- جيد، إذن سنلتقي هناك بعد سنة.
- سنة! أتبدو لك السنة قصيرة؟
- بل العمر كله يبدو لي قصيرا. دعينا الآن من هذا، ستمر الساعة بسرعة دون أن أشبع النظر إلى عينيك العميقتين.

حدّق في عيني لبرهة ثم قال:

- أشعر بالدوار. دوّختني!

فرحت لسماع ذلك لكني لم أعرف بم أرد عليه فغيرت الموضوع:

- حدثني عنكَ قليلا، فأنا لا أعرف عنك شيئا.
- ماذا تريدين أن تعرفي؟ لا شيء مهم في حياتي.
- حدثني عن أي شيء فكل ما يتعلق بك يهمني.
- أنا أيضا لا أعرف عنك شيئا سوى أنك زهرة الزهرات وهذا يكفيني. لنتفق على أمر، فليقدم كل واحد منا نفسه للآخر بأوجز ما يمكن، لأني أفضل الحديث عن المستقبل لا عن الماضي.
- طيب. أسكن في قرية صغيرة عند المدخل الشرقي لمدينة بومرداس. لدي ثلاثة إخوة، اثنان منهما أكبر مني والآخر أصغر، وأختان كلتاهما أكبر مني.

- وأنا أسكن في شرق المدينة، على الواجهة البحرية غير بعيد عن صخرة البحر الكبيرة المعروفة بالصخرة السوداء. أنا الأكبر في عائلتي ولدي أخوان فقط.
- أليست لديك أخت؟ هذا محزن.
- لا ليس بعد، ربما مستقبلا.
- أما زالت أمك تنجب؟ هذا رائع.

غابت الابتسامة عنه فجأة:

- بل زوجة أبي.
- أوه.. وأمك؟
- يرحمها الله..

لا أدري كيف مددت يدي على الطاولة ووضعتها فوق يده وأمسكتها بحرارة:

- فليرحمها الله. آسفة لأني ذكرتك.

شعرت أني لمست فيه أعمق جراحه، وأنه سعد بلمستي على يده. سحب يده من تحت يدي ووضعها فوقها قائلا:

- كان على الشاعر أن يقول: حنونة أنتِ كالأمِّ، كالملاكِ، كالرّب المجيدِ

ابتسمنا وسحب يده عندما لمح أحد المراقبين قادما. لا أدري من أوجد هذه الوظيفة وسمّاها هكذا تسمية "مراقب"! إنها حقا تسمية لا تصلح.

كانت جرأة مني إذ مددت يدي إليه، ما كنت أعرف أني قد أتهور هكذا، بمفهومي البدائي للتهور آنذاك! أهو فيض حناني كما قال، أم

فيض شيء آخر لم أدركه بعد؟ لم أُرد أن أسأله المزيد عن أمه وغيرت الموضوع:

- هل أنت مستعد للبكالوريا؟
- لا أدري، أنا متوتر بعض الشيء فهذا الامتحان يتلف الأعصاب.
- لا تقلق ستنجح بإذن الله.
- لا يكفي أن أنجح. أنت أيضا يجب أن تنجحي السنة المقبلة. سأكون بانتظارك في الجامعة. اجتهدي ما استطعت فأنا لا أظنني سأبقى في هذه المدينة طويلا.
- وإلى أين ستذهب؟
- إلى الجامعة أوّلًا، وبعدها سأذهب للعيش عند جدتي وأخوالي في تلمسان. بومرداس هي مقبرتي، يكفي أن أمي مدفونة فيها.
- وهل تظنني أحب البقاء في قريتي؟ لو تعرف حجم طموحاتي لضحكت علي.
- بل سأضحك عليك لو لم تكن لديك طموحات كبيرة.

كانت تلك آخر مرة نجلس فيها مع بعض. وفي الأيام الأخيرة من السنة الدراسية لم نتقابل لأن جدول امتحاناتنا كان مختلفا. وبسبب تفكيري المستمر به ورغبتي الجامحة في رؤيته اجتزت الامتحانات وأنا مشوشة جدا.

في ذلك الوقت تواصلت غيابات فؤاد وتصرفاته المريبة، يحلّل ويحرّم كما يشاء مقحمًا الله في كل شيء، وهو ضئيل المعرفة بالدين! وكذلك كان رشيد. وفي المرات القليلة التي يأتي فيها إلى البيت يُبدي سخطه على أتفه الأمور، خاصة إذا تعلق الأمر بي وبجميلة.

أخبار الموت الغريبة تزداد هي الأخرى، ونحن لا نزال في جهل تام بما يحدث، فالقناة التلفزيونية الوحيدة في الجزائر أو اليتيمة كما سماها الناس، لا تكاد تبث خبرا واضحا وتكتفي ببث الأشرطة الوثائقية عن الأسماك والقردة والفيلة والأفاعي وجميع الحيوانات. كانت تلك هي الإشارة الوحيدة التي نفهم من خلالها أن شيئا خطيرا قد حدث! ولعدة سنوات، وبعد كل مذبحة أو مجزرة أو اغتيال في الجزائر تبث قناتنا أشرطة الحيوانات عوض الأخبار! لا أدري لمن هذه الفكرة، ولا ما علاقة الإرهاب بالحيوانات البرية، لكن مع مرور السنوات سيفهم الجزائريون محتوى الرسالة، فإذا فتح أحدهم التلفزيون ووجد شريطًا خرج ليسأل الناس: ماذا حدث في الجزائر اليوم؟!

في بداية شهر جوان، ومع وصول امتحانات البكالوريا ظل قلبي معلقا بطارق، كنت أذكره في قلبي وفي صلاتي كل وقت، وفكرة عدم رؤيته مجددا ترعبني. لم يكن في محيطي أحد ممن يعرفه أو يمكن أن أسأله عنه، فهكذا أشياء من الخطير الحديث عنها. كنت سأطلب من سعاد، إحدى بنات قريتي وزميلتي في الثانوية، أن تأتيني ببعض أخباره ثم عدّلت عن ذلك.

سعاد مغامرة ومتهورة، قوية وواثقة من نفسها، متحدثة جيدة ومقنعة، تعرف الجميع في الثانوية، ولا أدري كيف تفعل لتحصل دائما على ما تريد. ربما هي الحياة هكذا ببساطة، تعطينا ما نريد عندما نعرف نحن أولا ماذا نريد!

منذ سنتين ونحن نترافق في الطريق من القرية إلى موقف الحافلات، ومن هناك إلى الثانوية الموجودة وسط المدينة. أشعر بالأمان

معها لأنها تجيد الدفاع عن نفسها. سعاد مرحة وتحب الحياة، وفوق هذا نتائجها المدرسية ممتازة وطموحها أن تصبح طبيبة أطفال. اعتقدت أنها مهنة لا تناسب شخصيتها، لكن في الحقيقة النقيض هو ما ننجح فيه عادة، لأنه لا يشبهنا ويُخرج من أعماقنا ما أهملناه.

قضيت الصيف كاملا وأنا أتساءل: ماذا تراه يفعل؟ أين هو؟ هل نجح في البكالوريا؟ هل سأراه مرة أخرى؟ هل يتذكرني؟ هل يشتاق إلي؟ وحينما ترهقني الأسئلة أرتمي في أحضان إحدى كراريسي التي تبقّت فيها بعض الصفحات الفارغة وأحاول كتابة شيء.

أهمهم، أدندن، أتصيد الكلمات، أبحث عن إيقاعات، أكتب وأخربش، أرسم وأوقّع، وفي النهاية أجدني لا كتبت شعرا ولا نثرا، إنما ملأت كراريسي فقط بكلمة: طارق.. طارق.. طارق..

وأخيرا مضى ذلك الصيف الحار. كان أحر وأطول صيف عشته. إنه أول يوم من الدخول المدرسي وأنا رغم حبي الشديد للمدرسة وتعلقي بها لم أشعر بالحماس للعودة. وقفت وسط الساحة أتأمل مكانه المعتاد حيث كان يصطف قسمه، وتوهمت للحظة أني رأيته منتصبا يرمقني بابتسامة واشتياق.

رحت أبحث عن أخباره بين التلاميذ:

- هل كانت نسبة النجاح جيدة العام الماضي؟ أتعرفون من نجح من ثانويتنا؟

في بداية التسعينيات كانت المدرسة الجزائرية لا تزال على مستوى ما، ولم يكن ينجح أيٌّ كان، ولا كانت نسبة النجاح تبلغ ما تبلغه اليوم. كان عدد الناجحين قليلا بحق، أما الآن فحتى الذي لا يريد النجاح سينجح رغما عنه!

انتقلنا للدراسة في قاعات الطابق الثالث، وأصبح الحديث عن البكالوريا الموضوع الأول والأهم عند التلاميذ، وبعده تأتي قصص الحب الصغيرة والخجولة التي تهرّب تهريبا كما كل الممنوعات والمحرّمات!

في اليوم الثاني والثالث والرابع وما تلا، نما في داخلي إحساس بالوحدة والفراغ. بقيت هادئة وصامتة جدا أسترجع الذكريات. بدت لي الثانوية مكانا موحشا جدا بدونه. بعد أسبوعين انتفضت وذكّرت نفسي بأني وعدت طارق بأن أجتهد ما استطعت لألتحق به في الجامعة، لذا قررت استعادة تركيزي.

في استراحة العاشرة في أول الأسبوع الثالث، وقفنا نتزاحم أمام لوحة الإعلانات بعد نشر الإدارة توجيهات جديدة لتلاميذ القسم النهائي. كان الإعلان طويلا وأنا أقرأه حرفا حرفا دون كلل لأني أريد النجاح بأي ثمن. ومن حيث لا أدري ناداني صوت ما، ولم أدرك إن كان الصوت قادما من الكون أم من كياني:

- مرحبا زهرة.

استدرت على عجل وإذا به واقف أمامي. ظلت يده معلقة في الهواء وأنا لم أستوعب الأمر بعد:

- طارق!

مددت يدي بلهفة لأصافحه وقد سبقني للكلام:

- كم أنا سعيد برؤيتك.

- ماذا تفعل هنا؟

- ألا ترين محفظتي! أنا تلميذ مثلك.

- حقا! ألم تنجح؟
- لا. ربما سأنجح معك هذه المرة.

كانت تلك أجمل هدية ممكن أن أحظى بها. بقدر ما أَسِفت لرسوبه سعدت بعودته.

تلك الليلة من الليالي النادرة التي نمت فيها فوق غيمة. تذكرت عبارة قرأتها في مكان ما تقول إننا في المراهقة نقع في الحب بسرعة وبأول شخص نصادفه. لم تقنعني الفكرة لاعتقادي أن القلب لا يخطئ عندما يحب وليس للأمر علاقة بالعمر، وأن العاشق الصغير سيكبر ويصبح عاشقا كبيرا.

لم نكن ندرس في نفس القسم ولا في نفس التخصص، لكن كان يكفيني أن نكون في نفس الطابق. أصبحنا نتقاطع عدة مرات في اليوم الواحد. كانت تلك أسعد سنة دراسية بل وأسعد سنوات عمري. كلٌّ منا يحفظ جدول توقيت الآخر، ومواعيد الدروس، والاستراحات. أصبح يعرف أدق التفاصيل عن عائلتي وجيراننا، عن طموحاتي ومواهبي، في حين كان هو قليل الحديث عن نفسه مبررا ذلك بجملة واحدة:

- قبلك لم يكن هناك شيء مهم في حياتي!

وكنت أرد عليه:

- هذه فكرة مسروقة، لقد قرأتها في مكان ما!

فيرد علي مرة أخرى باستفزاز:

- أنت هي الشاعرة ويجدر بك أن تقولي دائما أشياء جديدة!

لم يكن من الممكن أن نراجع دروسنا ونحن معا لأننا لن نعرف التركيز، لذا اتفقنا أن نعوض ذلك في البيت وساعات الفراغ التي لا نتقاطع فيها، أما الساعات التي لا تكون لدينا دروس فيها نقصد المكتبة ونتسلى بقراءة الشعر والروايات. بدأت أكتشف المزيد من الشعراء والكتاب، على الرغم من قلة كتب الشعر والأدب في المكتبة مقارنة بما فيها من كتب البرامج الدراسية.

ذات مرة سألني طارق ونحن نقرأ معا ديوان "كل عام وأنت حبيبتي" لنزار قباني:

- متى سأقرأ شِعرك؟
- شِعري.. ليس الآن.
- دعيني أقرأ لك، أعرف بأنك تكتبين، أم أن ما تكتبينه لا يعنيني؟

في الحقيقة كنت أكتب ما يشبه شعرا، لكني لم أكن بعد واثقة من أنه يستحق القراءة. بقدر ما كنت أحب كتاباتي كنت أراها غير ناضجة.

- أي نوع من الشعر تكتبين، عمودي أم حر؟
- أظنه حرًا.
- تظنين! ألا تعرفين على أي وزن أو إيقاع تكتبين!
- بلى أعرف.
- وما هو؟
- على إيقاع قلبي..
- آها.. إذاً سأجعله يخفق على كل الإيقاعات حتى تكتبي أحلى الأشعار. لكني لا أظن أن الشعر مهنة مستقبل.

- أعتقد أنه لدي موهبة ما في الكتابة، ربما في الشعر أو في القصة، لا أدري بالضبط لكني أدرك أن خيالي يسبح بعيدا، وذوقي يتحسس الصور والإيقاعات لذا أفكر أن أتخصص في الأدب إذا التحقت بالجامعة.
- رجاءً لا تفعلي. فإن كان فيك شيء من الأدب فسوف يفيض منك دون حاجة لأية دراسة. جلّ الأدباء العظماء كانوا في مجالات بعيدة جدا عن الأدب. أنت تقرئين كثيرا وهذا يكفيك، فتنمية الذوق لا تحتاج لشهادة إنما لممارسة.

في ذلك اليوم أخذت الديوان معي إلى البيت، وفي المساء أفرغت محفظتي على سريري كما أفعل عادة لأعيد ترتيب أوراقي وأتفقد برنامجي. أمسكت الديوان وتذكرت حديث طارق عندما نادتني جميلة من المطبخ. قمت من مكاني وكنت سأخرج من الغرفة لحظة دخل فؤاد ليأخذ فراشه ويذهب للنوم في الصالون.

لا أدري كم مكثت بالمطبخ مع جميلة وهي تسرد آخر أخبار القرية، فاليوم زارت بيت عمي وعادت بقصص وحكايات كثيرة، ربما عشر دقائق أو ربع ساعة. لم نتناول العشاء بعد، وفي طريق عودتي إلى الغرفة لعبت في الرواق قليلا مع أبناء رشيد. فتحت الباب وفؤاد أمام سريري منهمك بقراءة الديوان، وقد بدأ الدخان يخرج من أنفه وأذنيه كالتنين الغاضب الذي كنت أراه في الرسوم المتحركة! شدّني من شعري وجرني نحوه:

- أهذه هي الدراسة التي تدرسين! كنت أعلم أنك تعبثين لا أكثر. أنت ستجلبين لنا العار!

ركلني برجله وضربني بقبضة يده. علا صوتي وجرى الجميع نحو الغرفة. سحبني أبي من بين يديه وهو يصرخ:

- كيف تتجرأ على ضرب ابنتي في حضوري؟ ماذا هناك؟ ماذا فعلت لك؟

- هي تعرف ماذا فعلت..

كوحش أُطلق توًا من قفصه بدأ يمزق الديوان ويهدد:

- لن تكملي هذا العام، لن تنهيه، أنا من سيهتم بك بعد الآن..

بدأت الآن أعي بعض معاني كلمة إرهاب رغم أننا تشاجرنا مرارا قبل هذا وضربني بلا سبب، لكن السبب هذه المرة حقا غير معقول. لقد قرأ تلك الأشعار بنشوة ولهفة قبل أن يدينني بها. لم أفهم ما علاقة الشعر بالعار لكني فهمت أن تعاطي الشعر والحب أمر خطير. كانت تلك أول ضريبة أدفعها مقابل حبي للشعر، مع أني قرأته فقط، فماذا لو كتبت مثل تلك الأشعار!

لولا أن أبي ردّه عني لقتلني. رشيد يكرر نفس ما قاله فؤاد، دون أن يعرف أصلا ماذا حدث، وزوجته أمام الباب تحاول إخفاء نشوتها.

في الغد لم أذهب إلى الثانوية ولم يراودني السؤال: هل لاحظ طارق غيابي أم لا؟ بالي مشغول فقط بتهديد فؤاد. الآن وقد أصبحت لحيته بذلك الطول بدأنا جميعا نفهم أنه ربما أصبح منهم، وذلك يعني كل شيء.

وفي اليوم الموالي عندما دق جرس الساعة التاسعة وغادر الأستاذ قاعة الدرس، انتشر التلاميذ في كل مكان في الرواق قبل وصول أستاذ المادة الموالية، وطارق واقف عند طاولتي:

- زهرة.. أأنت بخير؟ شغلت بالي عليك البارحة.

كان واضحا علي أني لست بخير. في ذلك اليوم لم يكن لدينا فراغ يجمعنا واكتفيت بالقول له:

- لاحقا سأخبرك طارق لاحقا.

بعد مرور يومين آخرين جلسنا معا في المكتبة، في البداية ترددت بإخباره لأني لم أحدّثه سابقا عن التصرفات المريبة لأخوَيّ لكني كنت في حاجة للتكلم. أخبرته بما حدث وللحظة تدفقت من عينيّ الدموع، مدّ يده إلى خدي ومسح ذات الشمال، ثم مسح ذات اليمين، وبعدها أمسك بيدي:

- زهرة.. يا زهرتي.. اللعنة عليه كيف تجرأ على ذلك! إذا كان حقا قد التحق بهم فلا تستفزيه أبدا. إنه رجل خطير، خطير جدا!
- نحن نشك في الأمر فقط. لا يمكن أن يقدم على شيء كهذا. أيعقل أنه أصبح...!

طارق أكثر فهمًا مني للأمور:

- سأقطع له يديه إذا لمسك مرة أخرى.

تدلّت بعض خصلات شعري على وجهي حينما طأطأت رأسي باكية، فمدّ يده وسحبها لأعلى ومرّرها خلف أذني. كان يحب لمس شعري ورؤيته منسدلًا، لذا يقوم بسحب مربط شعري من الوراء كلما وجد فرصة.

- لا تبكي زهرة. كم مرة يجب أن أعيد لك أنه لا شيء يحزنني قدر حزنك.

- وماذا سأفعل بخصوص الديوان؟ لن يعيروني كتابا آخر بعد اليوم إذا لم أعده.
- لا بأس، قولي لهم ضاع وسيقولون لك ادفعي حقه، معي ما يكفي من المال، وعندما تحتاجين كتابا استخدمي بطاقتي.

في الخامس عشر من شهر جانفي، كانت تمطر والجو بارد، وقد فضّل معظم التلاميذ عدم النزول إلى الساحة، وأنا تعمدت الوقوف تحت المطر.

- أيتها الرومانسية، تقفين تحت المطر في مثل هذا البرد!

أجبته وأنا أهزّ مطريتي:

- الرومانسية هي أن تقف تحت المطر لا تحت المطريّة.
- كل عام وأنت زهرتي..

إنها أول مرة ينتبه فيها أحد لعيد ميلادي، ومع ذلك لم أشكره بل شاكسته:

- ولكن هذه عبارة نزار قباني!
- لا يهم. هو قال حبيبتي وأنا قلت زهرتي!

لم يكن الاحتفال بعيد الميلاد من عاداتنا العائلية أو المدرسية، لذا نكتفي نحن التلاميذ بتهنئة بعضنا بعضًا بالكلمات والبطاقات. وفي العاشر من شهر مارس كان عيد ميلاده، وقبل أن أقول له عيد ميلاد سعيد سبقني بتعليقه:

- يا ترى كيف ستهنئني شاعرتي اليوم بعيد ميلادي، بقبلة أو بقصيدة؟

- أتسخر مني! أنا لا أسرق عبارات الشعراء مثلك. يلزمني وقت لأقول شعرا.
- القبلة لا تلزمها سوى المشاعر فهل أحظى بواحدة!

اقترب مني مازحا وهو يقبض على يدي التي تشد المطرية وانزلها ليغطينا، وراح يكرر:

- هيا قبّليني فلا أحد يرانا!

من فرط نشوتي وفرحتي بقيت أضحك وأدفعه بيدي من صدره مع أني رغبت بشدة لو أحضنه!

أشكال الناس بدأت تتغير على نحو غريب، سواء في قريتي أو في مدينة بومرداس. يبدو أن إطلاق اللحية ولبس القميص القصير هي موضة الرجال الجديدة. ومع انتشار أخبار اختطاف البنات وقطع أرجل من ترتدي سروالًا، أو قطع رأس من لا تضع خمارًا، بدأ الأولياء يلزمون بناتهم بتغطية الشعر خوفا عليهن، ولم يكن للحجاب أي معنى اجتماعي قبل ذلك.

لم يكن التعري من عاداتنا، ولكن الحجاب أيضا لم يكن كذلك. أما الجلباب فلا أدري من صمّم ذلك الزي وأدخله إلى ثقافتنا. كنا نستغربه جدا ونضحك على من تلبس هذه "الخيمة" كما يسميها البعض. أول مرة رأيت فيها الجلباب كانت في قريتنا، لبسته زوجة الإمام السلفي الجديد.

كنت أستعد للذهاب إلى الثانوية ذات صباح من شهر أفريل. لبست كعادتي سروالا وبلوزة بأكمام، وفوقهما مئزر وردي. مشطت شعري الذي يصل إلى وسط ظهري واكتفيت برفعه قليلا من الجانبين

لأني أحب ذلك الإحساس عندما تهب النسمات وتحمل خصلات شعري ذات اليمين وذات اليسار، فإن كنت لا أستطيع أن أطير فعلى الأقل شَعري يطير.. كان أبي قد ذهب إلى الدكان، وأنا أتهيأ للخروج عندما وجدت نفسي وجها لوجه مع فؤاد. نظر إليّ من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى، كأنه يراني أول مرة:

- عودي وغيّري ملابسك!
- ماذا؟!
- قلت عودي والبسي لباسا محتشما ومستورا.
- ما به لباسي؟ إنه مستور!
- اذهبي وغطي شعرك قبل أن أقطع لك رأسك!
- أغطي شعري! ولماذا؟ لن أفعل ذلك.

جريت نحو الباب لأغادر لكنه لحقني وشدّني من شعري. جرني من فناء الدار إلى مدخل البيت وانهال علي باللكمات والركلات.

- قلت تحجبي ألا تفهمين! ألا تخافين من أحد!

عمّ الصراخ وتجمع عليّ أهل الدار، وأبي لم يكن هناك لينقذني. خرج رشيد من غرفته وهو يسبّ ويشتم لأننا أيقظناه، وعندما فهم الموضوع من فؤاد وافق على رأيه بشدة:

- إيه، نعم نعم، تحجبي واستري نفسك. من اليوم لا خروج بلا حجاب!

لم تستطع أمي فعل شيء وهي التي تخافهما كأنها لم تلدهما من رحمها! ظلت فقط تكرر عليهما:

- دعوها الآن، ستتحجب ستتحجب..

أغلقت باب غرفتي بالقفل المكسور وبقيت أدفعه بظهري وأكرر:

- لن أتحجب، لن أتحجب!

استثرته وكان سيكسر عليّ الباب لولا أن أمي توسلت إليه أن يتوقف.

سمعت جميلة تقول لهم:

- إن الجيران يتفرجون علينا!

فردّ عليها فؤاد:

- أنت أيضا معنية. إياك أن تخرجي بدون خمار بعد اليوم. ثم ماذا كنت تفعلين البارحة عند الجيران؟ سأقطع رجليك إن وجدتك في الخارج مرة أخرى!

أقطع رأسك.. أقطع رجليك.. عبارات حسبناها دائما ضربا من المجاز، لكن الأخبار التي تصلنا من هنا وهناك تؤكد أنهم يقطعونها فعلا!!

لم أذهب إلى الثانوية ذاك الصباح، وعندما جاء أبي وقت الغداء أخبرته بما حدث:

- لا تخافي فأنت ابنتي، وأنا من يقرر وليس فؤاد أو رشيد. اذهبي لتدرسي وفي المساء سأتفاهم معهما.

رفضت الذهاب لأني كنت منهارة. وفي المساء تأخرا في الدخول لكن أبي انتظرهما. كانت الحادية عشرة عندما وصلا، ووجدا أبي في الصالون ينتظرهما:

- هيه أنتما، تعالا إلى هنا. أفي هذه الساعة تدخلان؟ ألا تستحيان! فؤاد، كم مرة قلت لك لا تمد يدك على بناتي؟

- قلت لها أن تستر نفسها. ستتحجب وإلا أقسم بالله أنها لن تضع رجلها خارج البيت بعد اليوم!
- اللعنة عليك. أتقسم في بيتي على عصياني! اخرج من هنا يا عاق الوالدين.

فتحتُ باب الغرفة قليلا وبقيت أتنصت مع جميلة، ووجع الخوف قد شدني. ثارت ثائرة أبي وهما ما عاد لهما وجه يستحيان به بعدما أخفياه وراء تلك اللحى المتوحشة.

جاءت أمي إلى غرفتنا أنا وجميلة وأغلقت الباب بعنف:

- غدا ستضعين الخمار وتنتهي المشكلة. لن تحدث جريمة في هذا البيت بسببك أفهمت!

نطقت جميلة:

- لا تنظري إليّ فأنا لست مشكلة، بدءا من الغد سأضع الخمار.

في صباح الغد قررت الذهاب بدون خمار. خرجت مع أبي على السابعة والربع. ورافقني إلى موقف الحافلات دون أن يعلق على الموضوع.

لم أسمع شيئا مما قاله الأساتذة في ذلك اليوم، بالي مشغول وقلبي مكسور، ولولا أن طارق جلس معي قليلا وخفف عليّ ما كنت لأستعيد توازني.

في الأيام الموالية لم ينم فؤاد في البيت، ورشيد أصبح يفتي في كل شيء. اشترى لزوجته جلبابًا ونقابًا مع أنها لم تكن محجبة قبل أن يصبح سلفيا.

عندما همّت خديجة بالخروج مجلببة منقبة أول مرة علّقت عليها جميلة ساخرة:

- ما هذا اللباس المخيف!

فردّت عليها:

- هذا هو اللباس الشرعي لو كنت تعرفين الدين!

لقد أصبحت هي أيضا مفتية! بعد عشية وضحاها يتحول الأشخاص عندنا إلى فقهاء! تحوّل من النقيض إلى النقيض، يتكلمون عن الله كما لو كانوا لا يعرفونه من قبل وقد اكتشفوه فجأة!

كان شهر أفريل مريرا. البكالوريا على بعد شهر، والحب على بعد دهر.. فقدت كل تركيزي، فعقلي يسرح ويمرح في المروج، ولا أكاد أحفظ قاعدة أو معلومة حتى أنساها بعد حين. طارق أيضا مشوش جدا وخائف علي ومع ذلك كان أكثر تركيزا مني. أصبح قليل الظهور لأنه يعتكف طويلا في البيت للمراجعة، وفي المرات القليلة التي التقينا فيها في الرواق أو في الساحة لم يكف عن دعمي وتشجيعي قائلا:

- ركزي فالبكالوريا على الأبواب. يجب أن تنجحي وبعدها سنتحرر. سنذهب إلى العاصمة لندرس ونقيم هناك، وبعد نهاية الدراسة سنعمل لبعض الوقت ثم نتزوج.

ليس مريحا أبدا لامرأة أن تعيش الحب في مدينة يحوم فيها إخوانها، وأي إخوان، "سلفيون"! ومع أن بومرداس مدينة جميلة وفاتنة ككل مدن الجزائر الساحلية غير أني لم أستمتع يوما بجمالها. فهذا البحر الطويل العريض الذي أعشقه مشيت على رماله بضع مرات فقط، وأنا التي أظل أتأمله عن قرب من نافذة الحافلة وعن بعد من نافذة بيتنا.

بلغ توتري ذروته في الأسبوع الثاني من شهر ماي، إنه آخر أسبوع أرى فيه طارق. نحن في الامتحانات النهائية وبعدها بثلاثة أسابيع

سنجتاز امتحان البكالوريا. كنت واقفة في الساحة مع سعاد في ذلك الصباح الذي انتقلت فيه عدوى التوتر إلى جميع التلاميذ رغم الضحكات التي تعلو هنا وهناك. سعاد تعلم بشأن طارق طبعا، فهي مرافقتي الدائمة في الطريق والمدرسة، وقد تركت مكانها لطارق دون غيرة أو غضب، وهو تصرف نادرا ما تفعله الفتيات. ليست سعاد من النوع الذي يفشي سرا، ثم إن لديها حبيبًا هي الأخرى. أذكر أنها قالت لي يوما بعدما رأتني مع طارق وأحست بخوفي من موقفها:

- أنت محظوظة لأن حبيبك قريب منك، أما أنا فلا أراه إلا نادرا.

الحب في ثقافتنا أخطر شيء يمكن الإقدام عليه، وسعاد لا تبالي بهذا الخطر. أحب حديثها رغم أنني أجدها متهورة، أو ربما كنت أنا هي الخائفة والجبانة، فهي على الأقل تستطيع المواجهة، أما أنا فلن يرحمني أخواي إذا اكتشفا أنني أواعد رجلا.

نظرتُ يمينا وشمالا ولم أره، وعلّقت سعاد:

- لا داعي للبحث عنه فهو يعرف كيف يجدك.

امتدت يدٌ من الوراء وسحبت مربط شعري، استدرت بسرعة وشعري قد تناثر:

- طارق ماذا فعلت؟ هيا أعده إلي.
- أنت هكذا أجمل، أليس كذلك سعاد؟
- هات..
- لا تتعبي نفسك لن أعيده، سأحتفظ به كذكرى. إنها نهاية السنة وليس عندي شيء منك.
- دعني أحضر لك شيئا يليق بك.

- لا أريد شيئا آخر، هذا يكفيني.

وضع المربط الأسود الرقيق في معصمه وغادر مسرعا إلى قاعة الدرس بعدما دق الجرس وهو يقول:

- حظا سعيدا زهرَ...

ولأن التلاميذ تزاحموا عند الدخول ولم يرد أن يسمعه أحد وهو يناديني باسمي، فلما بلغ أعلى الدرج استدار وأكمل جملته بالتمديد:

- تـــــي...

أجبته بأعلى صوتي وسط الزحام:

- حظا سعيدا طااا...

في آخر يوم من الامتحانات التقينا للحظات، إنه يوم الوداع. قال ومربط شعري لا يزال في معصمه:

- هيا ابتسمي، أنا لا أحب العابسين.
- كيف سنلتقي بعد اليوم؟ حتى امتحان البكالوريا سنجتازه في مركزين مختلفين.
- ليست مشكلة سنلتقي شهر سبتمبر في الجامعة. المهم وكما اتفقنا، لا تضعي في بطاقة رغباتك أي تخصص من جامعة بومرداس. اطلبي التخصصات الموجودة في جامعة الجزائر فقط.
- أظنني سأطلب ترجمة أو لغة إنجليزية.
- اطلبي أي تخصص تستطيعين العيش به، أما موهبتك فلن يمنعك التخصص من ممارستها. لن أودعك الآن حتى لا تحزني وتبكي، سنلتقي قريبا.

آنذاك لم تكن الهواتف النقالة أو الإنترنيت من ضروريات الحياة كما اليوم، وحتى الهاتف الثابت غير موجود في قريتنا. تصافحنا بقوة وأيادينا الأربع تتلاصق وتتعرق.

في نهاية ذلك الأسبوع بدأ أبي التحري بنفسه عن فؤاد ورشيد، وذهب إلى مسجد القرية ليصلي العشاء. عدد المصلين قليل ومعظمهم شباب على غير العادة. يلبس أغلبهم قمصانا قصيرة ولحاهم كالغابات المتوحشة. فؤاد معهم يكبِّر بأعلى صوته في الصف الأول! في نهاية الصلاة قال الإمام جملة لم يستوعبها أبي:

- بعد قليل سنبدأ الحلقة أيها الإخوان.

عن أية حلقة يتحدث؟ أيعقل أنه يقدم دروسًا بعد صلاة العشاء! انسحب أبي من المسجد وبقي في الخارج يترقب ما سيحدث.

غادر من غادر، وبقي من بقي من المصلين. وبعد ما يقرب العشرين دقيقة لم يخرج فؤاد ورشيد ومن كان معهما. دخل أبي من جديد بهدوء، وسحب مصحفا كان في زاوية على الأرض وجلس خلف عمود. كانوا حوالي خمسة عشر رجلا جالسين حول الإمام مشكلين حلقة، يتكلمون عن الجهاد، ويخططون لمساعدة المجاهدين.

قال الإمام فيما قاله:

- حانت ساعة الجهاد وإخواننا في الجبل ينتظرون منا الدعم والمؤونة. يا إخواني، هذه حكومة كافرة وما جزاء الكفار إلا الموت، فلا تأخذكم بهم رأفة، واسعوا لجنة عرضها السماوات والأرض..

سمع أبي ما يكفي لشلّ رجليه. لم يستطع القيام، وبعد حوالي نصف ساعة كان شيء ما قد حدث في داخله، ارتفاع للضغط أو السكر أو الغضب، المهم أنه فقد توازنه. وضع المصحف على الأرض وحبا إلى الباب حبوًا. سقط على أربع ولم يقف ثانية على قدميه إلا بقدرة إلهية. نزل التلة وهو لا يدري أي طريق يسلك ودخل المنزل بوجه كظيم.

- يا ويلي، يا ويلي.. أنجبت إرهابيين!

أمسك رأسه بيديه وجلس على طرف سريره يردد نفس العبارة. كانت تلك أسوأ ليلة في حياته، كلّت قواه، واعترته الرعشة. سألته أمي مفزوعة لأن كلامه لم يكن مفهوما:

- ما بك يا رجل؟ ماذا تقول؟

لم يجبها وبعد حين جاءت إلى غرفتي أنا وجميلة:

- يا بنات، لا أدري ما به أبوكما، ولكنه ليس بخير. إنه يرتعش ويقول كلاما غير مفهوم.

ردت عليها جميلة:

- بالتأكيد فعل أبناؤك شيئا!
- أبنائي! أليسوا إخوانك! أنتما حقا لا تصلحان لشيء!

ما كانت أمي لتتخلى عن دفاعها عن أولادها مهما حدث. عندما دقت الساعة الثانية صباحا همّا بالدخول ووجدا أبي ينتظرهما على مقعد صغير وسط الفناء. سبقه رشيد للكلام:

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت؟

- تعالا معي.

أدخلهما إلى الصالون وأغلق الباب:

- اللعنة عليكما! هل تعملان مع الجماعات الإرهابية؟

ردّ فؤاد بكل ثقة ووقاحة:

- اسمهم المجاهدون وليس الإرهابيين!

- قطع الله لسانك يا فاجر!

هجم أبي على رشيد وشده من وسط صدره ورماه بما تبقى له من قوة:

- وأنت؟ كيف فعلت هذا؟

- أبي نحن لا نقتل الناس، إنما نساعد فقط إخواننا المجاهدين في...

- الويل لكما! بل الويل لي أنا الذي أنجب إرهابيين!

قبض بعنف على فؤاد وشده من رقبته:

- أقتلتَ؟ هل قتلتَ أرواحًا بريئة؟

انتفض بشراسة ودفع أبي إلى الوراء:

- أنت أبي فلا تجعلني أخطئ معك!

- أقسم بشرفي لو أدرك أنكما قتلتما إنسانا بريئا لقتلتكما بيدي!

استمر شجارهم ساعة ولا أحد منا تجرأ على فتح الباب. بقينا في الرواق ننصت وقد فهمنا جميعا الموضوع. لقد انضما لما يسمى "الإرهاب"! كان ذلك أخطر اكتشاف في حياتي كما في حياة أبي.

منذ ذلك اليوم لم نعرف كيف ننام أو نأكل بهناء. شاخ أبي فجأة كأنما كبر فقط في أيام، وأصبح يترصد ما يحدث بأعين مفتوحة. لم يكن أخواي فقط من دخل هذا التيار الجارف في قريتي، ومع تزايد المجازر وانفجار القنابل ووصول أخبار الموت من كل الجهات لم يعد للحياة أي طعم حتى بوجود الحب. فليس باستطاعة الحب رغم قواه العجيبة أن يجمّل الحياة التي يُذبح فيها الناس ذبحًا من الوريد إلى الوريد!

لم أستطع أبدا أن أراجع دروسي، وكلما حاولت ذلك أجدني أكرر نفس الجملة لأنساها بعد لحظات. تشجيعات طارق تطرق أذني في كل حين، ومع ذلك لم أعرف سبيلا للتركيز.

اجتزت امتحان البكالوريا في أسوأ حال، وبقيت أنتظر النتائج بشغف وخوف. كانت فترة فراغ ذهني وعاطفي لم أستطع فيها التفكير بشيء ولا حتى في طارق، فالخوف شلني تدريجيا.

وفي الخامس من شهر جويلية، ذهبت مع سعاد إلى الثانوية لمعرفة النتائج، فقد عوّدتنا وزارة التربية على إعلانها في مثل هذا اليوم الذي يوافق عيد الاستقلال. قوائم الناجحين معلقة وسط الساحة على سبورة خشبية مع عبارة كبيرة "ألف مبروك للناجحين". طارق سبقني إلى هناك، وقد لمحت في عينيه شيئا من الحزن، وابتسامته لم تكن مشرقة وعريضة كالعادة. كان هناك تزاحم شديد على القوائم، وكنت سأتزاحم مع التلاميذ عندما سحبني طارق من ذراعي وخطا بي إلى زاوية. نظر إلى وجهي ولملم بأصابعه شعري المتدلي على عيني، والذي أطلقته من أجله قبل الدخول إلى الثانوية بقليل.

- زهرة.. يا زهرتي الغالية، لا تخافي كل شيء سيكون بخير.

- لم أنجح صحيح؟
- أنا أيضا لم أنجح المرة الأولى.

فقدت توازني وأمسكني من ذراعي وأسندني إلى عمود قريب:

- هذه ليست نهاية العالم. ستعيدين البكالوريا وستنجحين وسنواصل المشوار معا.
- لن يتركوني. فؤاد يظل يقسم بأنها فرصتي الوحيدة، وأني إذا لم أنجح سأمكث في البيت.

لمحت مربط شعري الأسود في معصمه، ولمسته بأصابعي المرتعشة:

- أمازلت تحتفظ به؟
- أنا أحتفظ بك في قلبي في كل زمان ومكان، ولا يهم إن لبست هذا في معصمي أو لا.

الزغاريد تعلو في الساحة، والصراخ، والبكاء، وأصوات أخرى. هناك ناجحون وهناك راسبون. كل يعبر على طريقته، على نجاحه أو رسوبه. انتبهت أني لم أقدم له تهانيّ بعد:

- مبارك طارق. أنت تستحق النجاح فقد كنت مجتهدا جدا.
- أنت أيضا ذكية ومجتهدة والعام المقبل في مثل هذا الوقت سنفرح بك.

جاءت سعاد إلينا كاتمة فرحتها بالنجاح:

- مبارك طارق. أما أنت فاطمة الزهراء ففرحتك مؤجلة إلى العام المقبل وما العام المقبل ببعيد.

هنأتها وقد انفجرت دموعي كما تنفجر قارورة الكولا بعد رجّها. اغرورقت عيون طارق بالدموع أيضا، وراح يمسح على شعري هامسا في أذني:

- أيا زهرة أرجوك لا تحزني، فلا شيء يقتلني قدر حزنك.

أمسك طارق يديّ، واستدارت سعاد وغطتنا بجسدها حتى لا يلحظنا أحد من بنات أو أولاد القرية، رغم أنها ساعة انفعال للجميع، وكلٌّ مهتم بشأنه.

- أعرف أنها آخر مرة أراكَ فيها.
- كم أنت متشائمة. قلنا ستعيدين السنة وستنجحين وسنلتقي في الجامعة!
- أنت لا تعرف ماذا حدث. لن أعود إلى الدراسة.
- لا أريد أن أعرف. يجب أن تكافحي وتناضلي. لا تسمحي لأحمق كفؤاد بأن يحدد مصير حياتك.

تدخلت سعاد:

- علينا الذهاب فأهلنا ينتظرون عودتنا.

أوصياها أن تهتم بي:

- سعاد إني أودعك أمانة. كوني معها فهي أعزّ ما أملك.
- لا تقلق سأعتني بها، لست ممن يفرط في الأمانات.

غادرنا الثانوية وطارق ورائي لم يبرح مكانه من الوجع. ومع خروجنا من الباب واختفاء طارق عن عيني، كفكفت دموعي وصمت عن الكلام وربطت شعري من جديد. ظلت سعاد ممسكة

بيدي إلى أن وصلنا إلى المنزل. وجدنا أخي علي في الخارج ولما رآنا جرى ينادي أمي: جاءت فاطمة الزهراء جاءت..

وقفنا عند عتبة الباب وأمي وجميلة وخديجة وولداها جميعا في الفناء. لم أقل شيئا لأن ملامحي تحمل الجواب. سبقتهم سعاد إلى الكلام مخاطبة أمي:

- خالتي نورة، هذه ليست سوى المرة الأولى. العام المقبل بإذن الله ستنجح. البكالوريا ليس أي امتحان، لقد كان صعبا جدا.

خرج فؤاد حينما سمع حديثنا:

- كنت أعلم أن الدراسة آخر اهتماماتك. الآن مزقي كتبك وانسَي المدرسة إلى الأبد!

علّقت خديجة بلؤم شديد:

- الذين درسوا نجحوا.

عرفت سعاد أن معركة ما على وشك الوقوع، وبدأت الانسحاب قائلة:

- دعوها وشأنها، هذه ليست نهاية العالم، سوف تنجح السنة المقبلة بإذن الله.

سحبتني من ذراعي قبل أن تغادر لتعيش فرحتها مع أهلها، ووشوشت في أذني:

- ابقي هادئة ولا تتشاجري مع أحد، سأزورك لاحقا.

عمّ الصمت في الفناء وهممت بالدخول قاصدة غرفتي حينما تقاطع نظري بنظر فؤاد، ولا أدري لماذا خرجت من صمتي مع أني كنت قد قررت الصوم عن الكلام:

- سأعيد البكالوريا العام المقبل مهما حصل.
- أقسم بالله العلي العظيم أنك لن تضعي قدمك خارج البيت بعد اليوم!
- وهل أنت هو ربُّ هذا البيت! دعني وشأني!
- أنت لا تخافين من أحد! أتتحدينني يا غبية!

جريت نحو غرفتي وأغلقت الباب. دفعه والدخان يخرج من أنفه وأذنيه كالعادة. شدني من شعري ورماني على الأرض. ركلني عدة مرات قبل أن تسحبني أمي من بين رجليه. راح يمزق الكتب والكراريس الموضوعة جنب سريري ويرميها على الأرض. جاء أبي ووجدني مطروحة على الأرض أبكي وفؤاد مازال يمزق كراريسي. لم يكن أبي رجلًا عنيفا بالمرة، وكانت تلك أول مرة يرفع فيها يده على أحد منا. صفع فؤاد صفعة لن ينساها:

- كم مرة قلت لك لا تمد يدك على بناتي؟
- أتضربني من أجلها!

دخل فؤاد في حالة هستيرية لا توصف، وغادر المنزل وهو يفور ويحلف:

- أقسم بأني لن أبقى في هذا البيت يوما زيادة إذا هي عادت إلى الثانوية.

ما إن خرج أبي من الغرفة حتى دفعتُ بالجميع نحو الخارج لأبقى وحدي. أغلقت الباب وأغرقت بدموعي مدينة بومرداس والبحر الأبيض المتوسط الذي تطل عليه. وسط كتبي وكراريسي عرفت أن فصلًا جديدًا من المآسي قد بدأ في حياتي. دخلت في حالة صوم عن كل شيء؛ الكلام، الأكل، النوم، وحده التفكير كان ينخر دماغي.

عشت أيام الصيف شبه مخدرة، لم أكن واعية تماما بنفسي، دائمة التفكير والشرود، قليلة الكلام، وكثيرة الآمال والأحلام. لحسن الحظ كان فؤاد قليل التردد على البيت مما وفّر علي شجارات محتملة.

حاولت عدة مرات كتابة شيء بحجم آلامي لكنني مع كل محاولة كنت أكتشف عجز الكلمات، لا شيء مما خربشته يعادل معاناتي. تارة أكتب شعرا أو ما يشبهه، وتارة أكتب نثرا أو ما يشبهه، وفي النهاية عندما أراجع أوراقي لا أجد سوى كلمة طارق تملأ كل مكان، بكل الأحجام والألوان. رسمت الطاء والألف والراء والقاف بألف شكل وشكل. أكتب كلمة طارق وبجانبها كلمة زهرة وأحاول أن أربطهما بشيء ما حتى لا يفترقا أبدا.

ذات مساء، وفي غمرة حزني ووحدتي، كنت في فراشي أرسم وأخربش كعادتي في بقايا كراس عندما قالت لي جميلة مبتسمة:

- طارق.. طارق.. سيجننك طارق هذا!

تأملتها مستفهمة، لأنني أخفي دائما أوراقي في المحفظة.

- ماذا، أتظنينني لا أعرف! أنت تكتبين اسمه في كل مكان، أم أنك حسبتني لا أعرف القراءة؟ هيا أخبريني عنه قليلا. من يكون؟ وماذا يفعل؟

بقيت صامتة أخط اسم طارق وأتفنن في زخرفته على الورق.

- هيا أخبريني عن حبيبك وسأخبرك عن حبيبي.

رفعت رأسي ناظرة إليها وخرجت من صمتي:

- حبيبك!

لا أدري كيف ومتى أصبح عند جميلة حبيب وهي التي لا تغادر القرية أبدا. حسبت بأني أمتلك الكثير من الأسرار وإذا بجميلة تفاجئني. في النهاية في داخل كل إنسان ما لا يحصى من الأسرار.

- اسمه عزيز وهو من منطقة برج منايل، تعرفت عليه منذ ثلاث سنوات، وهو ابن خالة صديقتي هدى ابنة جارنا، وقد التقينا ذات عيد أضحى في بيت هدى، ومنذ ذلك الحين وهو لا يفوّت أية مناسبة لزيارة خالته من أجل أن يراني، وقريبا جدا سيأتي ليخطبني. باختصار هذه هي قصتي، فماذا عنك؟
- كم أنت بارعة في كتم حبك وحبيبك! لم أسمعك يوما تذكرين اسم عزيز ولا ظهر عليك تعب العشق والشوق.
- أنا لست شاعرة ولا أريد أن أكون كذلك. أفضل أن أعيّش مشاعري على أن أكتبها!

فكرت للحظة كم هي محقة! تحليلها مقنع جدا. ما أتفه الكتابة عن الحب أمام عيش الحب!

سمعنا صوت رشيد في الرواق وهو يصرخ على أولاده، صمتنا للحظة وقالت جميلة ضاحكة:

- لو يسمع فؤاد أو رشيد بأننا نعشق سيذبحاننا كالدجاج!

ضحكنا وهي لا تزال تصر عليّ لأحدثها عن طارق، لكنني لم أكن قادرة على التكلم بمثل حماسها وشغفها، واكتفيت بالقول أنه كان زميلي في الثانوية وقد نجح في البكالوريا.

بعد أسبوعين جاء عزيز وعائلته وتمت الخطبة. شاب هادئ وخفيف الظل مثلها. لا تظهر عليه علامات التأسلم والتعصب مع أنه

محافظ. لم يكن هناك من سبب لعدم الموافقة عليه فقد أحبّه أبي واطمأن إليه، أما رشيد وفؤاد فلم يشغلهما سوى سؤال واحد وهو كيف عرف جميلة! طبعا تظاهر عزيز أنه لا يعرفها وقال لهما إن خالته هي التي حدّثت أمه عنها.

بدءًا من اليوم سيكون اسم عزيز الكلمة الأكثر ترددا على لسان جميلة بسبب أو بدونه. أنا أظل أكتب اسم حبيبي وهي تظل تنادي اسم حبيبها. وما الفرق بين الاثنين؟ في النهاية هو هوس أو شوق أو احتياج. المهم أن روحا تناجي روحا أخرى والطرق هي المختلفة.

في بداية شهر سبتمبر حضّرت نفسي للمواجهة، عليّ التسجيل لإعادة السنة، فالدخول المدرسي غدا وأنا بانتظار إشارة من أبي الذي فقد ابتسامته وسلامه الداخلي من يوم اكتشف أمر ولديه، إنه مشغول بمراقبة تحركاتهما وتحركات أبناء القرية أمثالهما، ومن حين لآخر يقصد المسجد في أعلى الربوة ليستمع إلى الإمام وهو يخطب حول الجهاد، ويفتي فتاوى غريبة في شؤون الدنيا والدين.

في تلك الليلة تسللت بحياء إلى غرفة أبي بعد أن تعشى وصلى العشاء. فاتحته بالموضوع وهو مشغول البال بأخبار الإرهاب والإرهابيين المنشورة في الجرائد التي قرأها وأعاد قراءتها. كأنما لم يسمعني أو أن ما سمعه ليس على قدر من الأهمية، لم يقل نعم ولم يقل لا، واكتفى بالتعليق:

- غدا سيلتحق التلاميذ الجدد ولن تكون هناك دراسة. دعيني الآن وسأحل موضوعك لاحقا.

كان مهموما جدا بأشياء أخطر من قضيتي. غادرت الغرفة وفي الرواق التقيت بخديجة التي ابتسمت ابتسامة خبيثة، فهي تعلم ماذا كان قصدي من أبي، وطبعا لن تفوّت خبرا كهذا على زوجها.

في تلك الليلة لم ينم فؤاد بالبيت. توقعت حدوث شيء ما لكن الصمت عمّ الأرجاء باكرا. شعرت ببعض الأمان لكوني لا أزال أحظى بدعم من أبي للعودة إلى الدراسة، ونمت هادئة ولم أكن أدري أن يوم غد هو يوم ملعون.

وفي الصباح عاد أبي من دكانه بعد دقائق فقط من فتحه وهو في حيرة من أمره، فقد وجد نقصا فادحا في جل المواد الغذائية، خاصة الجاهزة للاستهلاك. باب الدكان على حاله وليس هناك أثر لمحاولة كسر، ورشيد وحده من يملك المفتاح.

خرج رشيد من غرفته متثائبا وأبي عند الباب ينتظره:

- ماذا حدث في الدكان؟
- سيعوضون لك لاحقا، الآن وقت أزمة.

لم يفهم أبي شيئا.

- سيعوضون لي؟ من؟
- فؤاد أخذ بعض المؤونة لإخواننا في الجبل.

صرخ أبي صرخة عظيمة:

- أفرغتما الدكان لتدعما الإرهابيين! يا ويلي منكما!

اقتحم أبي الصالون بحثا عن فؤاد، وقد تغير لونه وصوته:

- أين هو ذاك الإرهابي الآخر؟

فؤاد ليس هنا ورشيد يحاول عبثا أن يقنع أبي بأنهما يساعدان فقط، وأنهما لا يقتلان، ولا أدري لماذا كنت أصدق أن رشيد فعلا ليس باستطاعته أن يقتل، أما فؤاد...

في المساء جاء فؤاد من حيث لا نعلم، وقبل أن يحاصره أبي بأسئلته أخرج من تحت قميصه كيسا أسود ووضعه على الطاولة وأبي جالس إليها ينتظر العشاء:

- ما هذا؟
- هذا مالك. ثمن بضاعتك.

فتح أبي الكيس وإذا بالمال يتدفق منه أوراقا أوراقا. المبلغ يفوق ثمن البضاعة عشرات المرات.

- من أين لك بهذا؟
- لا يهم، المهم أن مالك عاد إليك.

ثار أبي وهذه المرة بدأ قلبه حقا يتعب. رمى المال في وجهه ولعنه. أغلقت أمي نوافذ الدار حتى لا نفتضح في القرية، واستمر الشجار حتى تهاوت ركبتا أبي على الأرض بعدما ارتفع ضغطه، ومعه تهاوت كل آمالي.

في اليومين المواليين لم أتجرأ على فتح موضوع المدرسة لأن أبي منهار أكثر مني. أخذ رشيد المال وملأ الدكان من جديد دون علم أبي.

بعد أن غبت عن الدروس ثلاثة أيام قررت في اليوم الرابع أن أفعل شيئا. دخلت على أبي في غرفته بعدما صلى المغرب، وكان يعرف قصدي، وقبل أن أتكلم بادر بالحديث:

- اذهبي غدا مع بنات القرية لتدرسي، أنا متعب ومشاكلي تكفيني.

لم أصر على ذهابه معي بسبب مرضه. كنت أريده أن يرافقني المرة الأولى فقط حتى يحميني من فؤاد، خاصة وأنه عاد إلى البيت في تلك الليلة. لمحت خديجة محفظتي ومئزري على السرير وأخبرت رشيد الذي أخبر بدوره فؤاد. انتظرت وقوع معركة تلك الليلة لكن فؤاد رغم علمه بتحركاتي لم يبحث عني. استغربت الأمر جدا ومع ذلك اعتبرته في صالحي، ولم أكن أعلم أن المعركة قادمة.

في صباح اليوم التالي مشيت على أصابع الرجلين محاولة التخفي ما استطعت. غادر أبي البيت على الساعة السابعة ليتفقد دكانه بعد أيام من غلقه ليتفاجأ به ممتلئا! لن يقبل أبدا بدينار حرام، لذا لن يبيع شيئا وسيغلق الدكان ويعود إلى البيت بعد حين.

كنت في غرفتي أحضّر نفسي للخروج عندما سمعت فؤاد يخاطب أمي:

- قولي لابنتك ألا تخرج من غرفتها إن كانت تريد أن تعيش.

شدني ألم في بطني، تعثرت في ربط أزرار مئزري من رعشة أصابعي، وتذكرت طارق وقررت الخروج للمواجهة. حملت المحفظة ووقفت في منتصف الرواق. لم أقل شيئا، وبعد لحظة زأر فؤاد كوحش:

- ادخلي قبل أن أجعلهم يحفرون قبرك اليوم!
- هل ستقتلني كما يفعل الإرهابيون يا إرهابي!

لا أدري كيف تجرأت على نطق ذلك، لكنني أدركت بعد أن أنهيت جملتي أن قبري فعلا سيحفر اليوم! هذه المرة لم يخرج منه الدخان إنما

خرجت من أنفه وأذنيه النار كتنين خرافي. أصبح أعنف من أي زلزال أو إعصار أو بركان. أعنف من كل مخلوقات الإنس والجان!

- أنا إرهابي!!! اليوم ستعرفين ماذا يفعل الإرهابي!!!

في جزء من ثانية، سحب سكينا من حيث لا أدري وهجم علي، شدني من شعري وأسقطني أرضا. لم أفهم إن كان قد همّ فعلا بذبحي أم كان فقط يهددني لأن سكينه بقيت عالية ولم ينزلها علي. ربما لم يستطع إنزالها لأن أمي وجميلة شدتا ذراعه. لحق بهما رشيد وهو يسب ويشتم، وفي لحظة قريبة من الموت فتح أبي باب الرواق ونحن في مشهد مأساوي. لم يتوقف فؤاد عن ضربي للحظة، وسحب منه رشيد السكين وركله أبي من الوراء ليحررني، وإذا بعمي عمر يدخل علينا بعد أن مرّ على الدكان قبل ذهابه إلى العمل ووجده مغلقا، وجاء ليستفسر من أبي لِمِ دكانه مغلق منذ أيام، فوجدنا هو الآخر في معركة محتدمة.

خلصني عمي منه والدماء تسيل من أنفي بعدما لكمني الوحش على وجهي. لم أرد الدخول إلى غرفتي وبقيت في الرواق أصرخ وأكرر:

- إرهابي.. قاتل.. سفاح..

فؤاد أخطر وأقوى من أن يوقفه ثلاثة رجال. الآن أصبح أكيدا أن قبري سيحفر اليوم وعلى الأكثر غدا. فرقونا وهو يقسم بأنه سيقتلني، وأنا أقسم بأني سأعود إلى المدرسة.

بعد ساعة من الحرب جاء عمي عمر إلى غرفتي وجلس على طرف سريري، وضع يده على رأسي وأنا مطأطئة أبكي، واساني ووعدني بأنه سيعيدني إلى المدرسة. لم أرد على كلامه وبقيت في دمي ودموعي.

عمّ الصمت في الدار طوال النهار. وأنا صمت عن كل شيء، حتى عن طارق. لم أتذكره ولا فكرت فيه. في المساء عاد عمي ليتفقدنا، ووجدني في حالة غيبوبة وإن كنت مفتوحة العينين. جلس بجانبي وأنا لا أزال في نفس الوضعية التي تركني عليها، غارسة رأسي بين ركبتي.

- أتحبين التعليم؟

رفعت رأسي مستفهمة بصمت.

- أتحبين أن تكوني معلمة؟

استفهمت ثانية بصمت ونظرة محدقة.

- عوض أن تغامري مرة أخرى بإعادة امتحان البكالوريا وتظلين طوال السنة تتقاتلين مع فؤاد، لِمِ لا تلتحقين بالمعهد التكنولوجي للتربية؟ من جهة ستتكونين لمدة سنة أو سنتين، وبعدها ستتوظفين مباشرة كمعلمة. ومن جهة أخرى ستكونين في نظام داخلي وبالتالي ستوفرين على نفسك حروبا لا نهاية لها مع أخويك.
- لكني أريد الذهاب إلى الجامعة.
- وماذا لو لم تنجحي مرة أخرى؟
- سأعيد الامتحان ثالثة ورابعة وخامسة...
- فكري جيدا واختصري الطريق، ففي النهاية ستذهبين إلى الجامعة من أجل وظيفة، ووظيفتك مضمونة إذا تخرجت من مدرسة تكوين المعلمين. غدا مساءً في مثل هذا الوقت سأمر لأعرف قرارك وبعدها سنرى ماذا نفعل، لأنه إذا أعجبتك الفكرة عليك أن تستعجلي بالتسجيل قبل فوات الأوان، إن لم يكن قد فات فعلا.

من فرط إحباطي وإرهاقي لم أستطع التفكير في عرض عمي. أمضيت ليلتي بين الصحو والنوم، وبين الحياة والموت.

وفي الصباح وجدت أبي قد ترك لي وصية عند أمي بألا أغادر المنزل ريثما يجد لي حلا حتى لا أتقاتل مع فؤاد من جديد، وما كان ضروريا ليوصي بذلك، لأني لا أقوى على الوقوف أو الكلام.

في المساء عاد عمي ليعرف قراري وأنا لا فكرت في الموضوع ولا قررت شيئا. قبل أن يقصد غرفتي كان قد حدّث أبي عن الموضوع ووافقه بشدة فأتيا معا لإقناعي.

يصغر عمي أبي بخمس سنوات، وهو موظف إداري بمديرية التربية لولاية بومرداس، لذا يعرف جيدا شؤون التكوين والتوظيف في قطاع التربية والتعليم.

بادر أبي بالقول:

- ما الفائدة من إعادة البكالوريا إن كان بإمكانك التكوين والحصول على منصب عمل في سنة أو سنتين؟ ثم إني لا أستطيع البقاء دوما في البيت لحراستك طوال الوقت. الداخلية ستكون جيدة لك وستريحك وتريحنا.

تدخل عمي مقاطعا إياه:

- ستتكونين في المعهد التكنولوجي للتربية الموجود في الرغاية. قرري واختاري أي مستوى تريدين؛ سنة واحدة للتعليم الابتدائي، وسنتين للتعليم المتوسط. ما رأيك؟

استمر صمتي للحظات أخرى ثم نطقت:

- ابتدائي.

فكرت أني أحب الأطفال الصغار قبل أن يتسلل إليهم خبث الكبار.

- حضّري إذن شهادتك المدرسية وغدا صباحا سأمر لمرافقتك.

قال لي عمي عمر، قبل أن يخاطب أبي:

- أنا سأتكفل بتسجيلها لا تشغل بالك.

لا أدري لماذا وافقت، وتخليت بسهولة عن طموحي في بلوغ الجامعة ولقاء طارق من جديد. ما إن خرجا من غرفتي حتى أجهشت بالبكاء كمن يفقد عزيزا عليه، وبدأت أدرك حجم خسارتي. الجيد في الأمر أني محمية ومدعمة من أبي وعمي، لذا لن يكون لرشيد وفؤاد رأي في الموضوع، فقد قضي الأمر وهذا في حد ذاته إنجاز في صالحي، ثم إن فكرة ابتعادي عن المنزل أغرتني حقا.

في الغد ذهبنا إلى المعهد الموجود في بلدية الرغاية الواقعة عند الجهة الشرقية للجزائر العاصمة. كنت من المسجلين المتأخرين وكان ضروريا أن أعود إلى البيت لأخذ بعض الأغراض قبل الالتحاق بالدروس في اليوم الموالي.

أثناء غيابي تذمّر فؤاد وصرخ حتى هزّ التلة، فما كان ليرضى أبدا بأن يراني ذاهبة وراجعة إلى الرغاية. عدت مع عمي عمر بعد الظهر، ولأنها أول مرة أغادر فيها منزلنا للمبيت بعيدا، شعرت وأنا أحضر حقيبتي بمزيج من الخوف والاطمئنان. ما أسوأه من إحساس عندما تشعر بفقدان الأمان في المكان الذي يفترض أن يكون هو بيت الأمان!

مرّت تلك الليلة بسلام لأن فؤاد لم ينم في الدار، وتحاشيت رشيد مـــا استطعت. وفي الصباح الباكر حملت حقيبتي بقلب مكسور،

وودعتني أمي عند الباب وهي توصيني على شرفي وشرف العائلة كما لو كنت ذاهبة للعهر لا للدراسة! وجميلة تضيف إلى حقيبتي بعض الأغراض معلّقة:

- أيتها الهاربة من قدرها، لقد نسيت هذه... وهذه...

تذكرت مسرحية "أوديب ملكًا" لسوفوكليس التي قرأتها ذات مرة في مكتبة الثانوية. تكلمت في داخلي لكن صوتي انفجر:

- الهارب من قدره سيجده حتما في الطريق!

رافقني أبي إلى سيارة عمي المركونة في الخارج وأعطاني بعض المال، وطلب مني ألا أغادر المعهد في نهاية الأسبوع حتى يأتي لمرافقتي.

خلال الأيام الأولى في المعهد كنت مشتتة ومضطربة، وأخبار العمليات الإرهابية تصلنا كل يوم بشكل أكثف وأعنف. وفي مساء آخر يوم من الأسبوع وجدت أبي عند مخرج المعهد ينتظرني وقد كبر وشاخ أكثر. قبّلته على خديه بشغف ولم أعانقه، فقد تعودنا على كبت مشاعرنا منذ الصغر حتى الأبوية منها.

لم أكن الوحيدة من المعهد التي تقصد بومرداس، فهناك طالبات أخريات، بعضهن وجدن من ينتظرهن بالسيارة، والبعض الآخر سيقصدن محطة الحافلات بالرغاية مثلي.

استقبلني أخي علي بالعناق عند باب الدار، فالأطفال يتصرفون دائما بعفوية وإنسانية قبل أن تفسدهم عقلية الكبار، وجميلة بضحكاتها العالية التي يعرفها الجيران. شعرت بأنه مرحب بي رغم كل شيء، أما أمي فهي على حذر وخوف، مني حينا، وعليّ حينا آخر.

لدي يوم واحد فقط لأعيد تحضير حقيبتي من جديد وهو يوم الجمعة. لم أتوقف عن التفكير في طارق طوال الصباح، وسعاد فاجأتني بزيارة بعد الظهر. لقد حققت هدفها وهي الآن طالبة في كلية الطب بجامعة الجزائر وتقيم في حي جامعي. أصبحت زياراتها للقرية قليلة لأن الدروس في كلية الطب قد بدأت. كانت سعيدة ومتناغمة كسيمفونية، وأنا على لهفة لسماع أخبار طارق التي تحملها معها.

- آخر مرة رأيته فيها كانت منتصف شهر جويلية أثناء تسجيلات الطلبة الجدد في جامعة بومرداس، وكان لا يزال يضع مربط شعرك في معصمه.

ما أوجع الحب حينما يصبح مجرد ذكرى..

لم تكن سعاد مرتاحة للحد الذي تصورته، فحبيبها مراد الذي تعشقه بجنون كما يعشقها هو أيضا، يمارس أخطر مهنة في جزائر التسعينيات، فهو شرطي، وكم من رجال الشرطة قد اغتيلوا لحد اليوم! إنها تعيش دوما قلقا لا يحتمل، فرجال الشرطة والدرك والجيش بالنسبة للإرهابيين هم رجال الدولة وحماتها وبالتالي يجب البدء بتصفيتهم للوصول إلى الحكم. هي أيضا لا تراه إلا قليلا منذ أن تم تحويله مؤخرا من بومرداس إلى ولاية المدية. عائلته من إحدى القرى المحاذية لجبل جرجرة في مدينة تيزي وزو، وكان في تربص في بومرداس حينما عرفته منذ ثلاث سنوات.

في تلك الليلة عاد فؤاد إلى المنزل، وفي الصباح خرجت على صراخه لأني غادرت البيت بلا حجاب، وسيظل كذلك طوال الأسابيع الموالية، فكلما عدت في نهاية الأسبوع هددني. لم أكن لأتحجب لأنه أمرني، إن

كنت سأفعل فلأن أخبار خطف غير المحجبات وقطع رؤوسهن وتعذيبهن ترعب النساء والأولياء، لذا بدأت موجة التحجب تجتاح المدن الجزائرية، وأبي بدأ يخاف علي أيضا، وهو الذي لم يعد يرافقني إلى المعهد، بعد أن عرفت طريقي ووجدت بعض الرفقة.

مرّ الخريف ومعه تناثرت أحلامي. كنا في بداية شهر ديسمبر عندما زارتني سعاد بعد صلاة الجمعة. آخر مرة رأيتها فيها كانت منتصف شهر سبتمبر. هذه المرة جاءت ومعها أجمل الأخبار. جلسنا في الغرفة وامتنعتْ لبرهة عن الكلام، وفهمت جميلة أنها لا تريد الحديث أمامها فغادرت لتحضّر لنا القهوة. سحبت من جيب معطفها شيئا ووضعته تحت وسادتي:

- خبئيها جيدا واقرئيها لاحقا.
- ما هذا؟
- رسالة من طارق.

كمن يتنفس من جديد بعدما كان يختنق، تنفست بعمق وقفزت في مكاني وأنا جالسة:

- طارق! أحقا التقيت به؟
- أجل أجل، التقيت به البارحة في محطة الحافلات بالعاصمة، وجئنا معا إلى بومرداس. كتب لك هذه الرسالة في الحافلة، لذا ستجدين خطه متمايلا. أعلمته بآخر أخبارك، أما عن أخباره فهو يدرس الإعلام الآلي في جامعة الجزائر ويقيم في حي جامعي. إنه مشتاق جدا إليك وخائف عليك لذا يريد أن يقابلك قريبا.

سحبت الرسالة والتهمت كلماتها على عجل. رسالة قصيرة ومتمايلة الأسطر، ووقعها على قلبي كوقع المطر على أرض عطشى:

«زهرتي الغالية،

كيف أنت أيتها العذبة الحنونة؟

أنا مشتاق كثيرا إليك وخائف عليك.

كوني قوية وسيزهر الربيع قريبا..»

ختم الرسالة باسمه وتوقيعه.

- هيا اكتبي له شيئا الآن لآخذ الرسالة معي.
- الآن! وكيف ستسلمينها له؟
- هو يعرف عنوان إقامتي وكذا كليتي، سيأتي لملاقاتي خلال الأسبوع. الآن اكتبي له شيئا مختصرا والمرة المقبلة سيكون لديك كل الوقت لتفضفضي له وتعبّري.

جاءتنا جميلة بالقهوة وغادرت من جديد بعدما علقت ضاحكة:

- لا تستحقان قهوتي طالما تخفيان عني الأسرار.

كتبت له دون تفكير فيما سأقوله:

« طارق، كم أشعر بالعجز أمام الكلمات

فكل ما أريد قوله لا تسعه اللغات.

لذا أكتفي بالقول إني أشتاق إليك

وإن رسالتك قد أعادت إلي الحياة..»

منذ ذلك اليوم أصبحت سعاد مرسال الحب بيننا الذي يأتينا كل شهر برسالة. رسائل أصبحت مع الوقت أطول وأرق وأعمق.

الآن وقد عاد طارق إلى حياتي أصبحت أكثر حماسا لتكويني في المعهد، اندمجت مع نظامه وأناسه. لم تكن الحياة في المعهد مملة البتة، كنا ندرس معا ونأكل معا رجالًا ونساءً ونفترق فقط عند المراقد. ومن حين لآخر كانت لدينا بعض التربصات في المدارس الابتدائية لحضور دروس المعلمين القدامى وتقديم دروس نموذجية للتلاميذ.

وصل الربيع وأزهر إزهارا بديعا، وكان علينا إيجاد طريقة للقاء. لكن أين يمكن أن نلتقي في بلاد يعتبر فيها الحب جريمة الجرائم؟

استشرت سعاد عسى أن تنصحني بمكان ما لا يجدونني فيه، فهي تعرف بعض الأماكن التي قصدتها مع حبيبها مراد عندما كانا يخرجان معا في بومرداس، أما الآن فيلتقيان في العاصمة حيث أماكن لقاء العشاق أرحب وأكثر أمانا.

فكرتُ ونظرت في برنامجي، ووجدت أني بعد أسبوعين سأكون في مكان قريب من مدينة بومرداس، حيث لدي تربص في إحدى المدارس الابتدائية صباحا، وسأكون متفرغة بعد الظهر، وبإمكاني ملاقاته قبل العودة إلى المعهد.

نصيحة سعاد كانت ألا نغامر بالجلوس في مكان عام كالكافيتيريا أو شاطئ البحر، وأن نقصد مكانا أكثر أمانا كالجامعة مثلا، وهي فكرة سديدة حقا. الآن على سعاد ترتيب كل شيء في وقت لا هاتف فيه ولا إنترنيت، ورسائل الغرام كما القنابل الموقوتة، وحدها تستطيع إحراق مدينة بأكملها إذا وقعت في يد أعداء الحب! كانت الخطة أن أقصد جامعة بومرداس بعد نهاية تربصي وأنتظره عند مدخل المكتبة الرئيسية.

كنت متوترة وخائفة، أترقب المارين وأتفحص وجوههم خشية أن ألتقي أحدا يعرفني، فلو علم أهلي أني جئت إلى المدينة ولم أذهب إلى البيت، أو غادرت المعهد إلى مكان ما دون إخبارهم، ستكون نهايتي حتما. لم أدخل الجامعة من قبل وهي التي كانت تاج طموحي، وجامعة بومرداس الممتدة على شاطئ البحر القريب جميلة ومغرية للدراسة.

بعدما تجاوزت عتبة باب الجامعة خفّ توتري قليلا. طفت يمينا ويسارا بحثا عن المكتبة وإذا بي أعيد نفس المسار، سألت طالبة مارة بجانبي عن المكتبة فقالت إنها ذاهبة إليها. مشيت وراءها وبعد لحظات وصلنا وأسرعت هي بالدخول، في حين وقفت أنا عند الباب ثم تراجعت قليلا.

تفحصت المكان والوجوه، وشعرت بالبرد في الظل، فخطوت بعض الخطوات بحثا عن الدفء تحت الشمس. أطلقت شعري في الهواء، وكبركة من السماء طوقتني ذراعان من الوراء:

- كم اشتقت إليك يا زهرتي..

أمسكتُ يديه ولمحت مربط شعري في معصمه. فتحت ذراعيه كما لو كنت حقا أريد ذلك، والله وحده يعلم كم رغبت لو أنه لا يفتحهما أبدا. استدرت إليه وقد فقد كل شيء فيّ توازنه، واهتز كياني واضطرب. تبادلنا القبل على الخدين، وبقينا لحظات ممسكين بأيدينا غير مصدقين أننا التقينا من جديد بعد فراق قارب السنة.

الجامعة ملاذ جيد للطلبة العشاق، فلا مراقبون هناك ولا إرهاب! بحثنا عن مكان نأوي إليه كعصفورين هاربين، وإذا بجميع الأماكن

محجوزة! فالجو مشمس، والعشاق كثيرون، ومعظمهم اختار الجلوس خلف مباني الأقسام والإدارات، حيث الحركة والعيون أقل، وبينهم وجدنا مكانا وجلسنا معهم.

هذه أول مرة نجلس فيها بقرب بعضنا بعض بهكذا حميمية. فخذي تلامس فخذه، وذراعي تلامس ذراعه. يدي في يده، وعينيّ في عينيه. لم أكن أعرف أن لقاء الحبيب يمكن أن يكون مربكًا إلى هذا الحد، ولا كنت أعرف أن ملامسته بمثل هذا النعيم.. لدينا كلام كثير لنقوله، ومع ذلك فضّلنا الصمت والتأمل، فحينما تشتاق لمحبوبك تتزاحم الكلمات في ذهنك أثناء غيابه، لكن ما إن تلاقيه حتى تتوقف عن الكلام، وتدرك أن اللغة المنطوقة لغة عاجزة عن التعبير، لذا ستفضل أن تحدثه بعينيك، وأذنيك، ويديك، وأنفك، وشفتيك، وحواس أخرى إن استطعت! نعم، الحب إحساس، ولكن لا يعاش إلا بالحواس..

أسندت رأسي على كتفه، وبدأت ألملم أصابعه بيديّ. انسدل شعري على وجهي وراح يرتبه ويسحبه بلين إلى الوراء قائلا:

- أنت أجمل زهرة في هذا الربيع.

ابتسمت ولم أعلق. شبكت أصابعي بأصابعه وضغط عليها بقوة، تعبيرا عن شيء كبير وعميق لم أعرف كيف أقوله بالكلمات. قبّلني على جبيني، ثم على يدي، وانصهرنا في ضمة طويلة.

قرأت مرة أن العناق يداوي عديد الأمراض، وأنه كأي شيء أساسي في الحياة، كما الماء والهواء، لا بدّ من تلقي بعض القبل والضمات بشكل منتظم يوميا حتى نظل سعداء ومتوازنين. لا شك أن

الذين أجروا هذه الدراسة لا يعلمون بأن ثمة شعوبا مثلنا تعيش العمر كله بلا قبل ولا عناق ولم تنقرض بعد!

عقارب الساعة كانت على عجل غير معقول، فما حسبناه دقيقة كان في الحقيقة ساعة. عليّ المغادرة بعد ساعة أخرى على الأكثر لأعود إلى المعهد قبل الخامسة. لكن رغم كثرة ما لدينا لنقوله استمرينا في الصمت والتأمل:

- حسبتكِ ستأتين اليوم بقصيدة، أم أني مازلت لا ألهمك؟
- قصيدة الحب الحقيقية هي تلك التي تعاش لا التي تكتب. أفضل أن أعيش الحب على أن أكتب عنه كمتفرجة بائسة.
- ما قلته الآن في حد ذاته شعر، فالشعر ليس فقط صورة وإيقاع، هو أيضا رؤية وفلسفة. أنت محقة، أن تعيش الحب شيء، وأن تكتب عنه شيء آخر، إنهما تجربتان مختلفتان جدا.

تفلسفنا قليلا بما أوتينا من حكمة قليلة في الحب والحياة، وتفادينا الحديث عن الإرهاب الذي يترصدنا في كل مكان لكي لا نفسد روعة اللقاء.

بقيت نصف ساعة، ونحن لم ننه حتى الترحيب ببعضنا. وقفنا بعدما أتعبنا الجلوس على الإسمنت، واستندنا إلى حائط المبنى. الجلوس مع الحبيب جنبا إلى جنب يولد إحساسا بالودّ والحميمية، أما الوقوف عن قرب منه وجها لوجه فيولد إحساسا جارفا بالرغبة في القبض عليه وعناقه بشدة. أسندت رأسي على صدره وتعانقنا في صمت، وحينما رفعت رأسي لأودعه كان شعري قد انسدل وراح يلملمه كعادته وهو يناديني بصوت خافت:

- زهرة.. يا زهرة الزهرات.. يا زهرتي..

أجبته على نفس الموجة:

- ها طارق..

سحبني إليه بقوة مطوّقا خصري بذراعيه. تحسست جسده وأنفاسه، ودقات قلبه تجتاح صدري، وفي لحظة هاربة من الزمن، وقعت شفتاه على شفتي، واستغرقت القبلة ما يكفي من الوقت لأذوب بين يديه كقطعة جليد. وعندما أفقت وفتحت عينيّ، أحسست كأنما نمت لبرهة، أو دخت، أو مت، المهم أني دخلت في غيبوبة قصيرة ثم عدت إلى وعيي. اعترتني رعشة من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ. لعلها رعشة البرد الذي أتى به الظل عندما لحق بنا، ولعلها رعشة القبلة الأولى..

ليس بعد القبلة أي كلام. تعانقنا وغرقنا في ضمة طويلة. كم تمنيت لو انفردت به للأبد. كم اشتهيته كلما مني اقترب، وكم اشتقت إليه وأنا معه، فماذا لو ذهب!

افترقنا عند باب الجامعة لأنه ليس من الحكمة أن نذهب معا إلى محطة الحافلات. افترقنا وقد عشت ساعتين من الزمن هما خلاصة السعادة في كل حياتي.

الفوضى الأمنية والسياسية في البلاد غير مسبوقة منذ الاستقلال، وتصرفات فؤاد ورشيد أصبحت مخيفة جدا. لا دليل لحد الآن على أنهما إرهابيان، وأنهما ممن يقتل ويسلب وينهب. يدّعيان التدين فقط، لكن أبي لن يتردد في التبليغ عنهما وتسليمهما للأمن إن تأكد من شيء، مع أن رجال الشرطة اقتحموا بيتنا مؤخرا وفتشوه، وأخذوا رشيد

وفؤاد وكذا بعض الشباب من قريتنا من بينهم إمام المسجد، لكن سرعان ما أطلقوا سراحهم جميعا بعد يومين لعدم وجود أدلة كافية. كانت موجة التدين والتأسلم هذه مظهرية بالدرجة الأولى، ولأنها كذلك فإنها في الحقيقة فارغة من كل محتوى أخلاقي.

تشاجرت خلال هذا العام الدراسي مرات كثيرة مع فؤاد بسبب الحجاب ولأسباب تافهة أخرى، ولحسن حظي أنه كان قليل التردد على البيت. وحدها رسائل طارق كانت تنعشني، وسعاد أجمل ساعي بريد وأوفى صديقة.

في بـــــداية شهر سبتمبر سعى عمي في مديرية التربية من أجل توظيفي في مكان قريب، وفعلا تم تعييني في مدرسة ابتدائية ببلدية زموري. ذهبت إلى المدرسة مع أبي أول يوم، وبدت لي المنطقة مخيفة رغم جمالها، لأنها منطقة معروفة بالنشاط الإرهابي.

تعرفت على قسمي، ثمانية وعشرون تلميذا في السنة الثالثة، كلهم من منطقة زموري وضواحيها. بعد أيام قليلة تعودت عليهم وتعودوا علي، ينادونني آنستي، يحبون اللعب والضحك كثيرا، لكنهم يمتثلون للأوامر.

مع أواخر شهر سبتمبر كنت أترقب زيارة سعاد لأهلها عسى أن تأتيني بشيء من طارق. جاءت ومعها أحلى الأخبار وأحلى رسالة. إنه بخير وقد نجح وانتقل إلى السنة الثانية وهي كذلك. سلّمتها بدوري رسالتي التي كتبتها منذ أيام. لم تكن زيارتها تروق لرشيد وفؤاد فكلما صادفاها عندنا تذمرا، وهي المعروفة بأنها قوية ولا تخاف من أحد، وتستطيع أن تقاتل جميع الرجال عندما تكون لديها قضية، ثم إنها غير محجبة مثلي وذلك يذكّرهما كم نحن فاسقتان!

جميلة مشغولة بعزيزها الذي ستزف إليه في الربيع القادم، لذا لا تعير اهتماما لشيء سوى تحضير "التصديرة" التي تحيك لها كل يوم شيئا جديدا. أبي كأنما كبر بسرعة. أصبح شيبه أكثر إشعاعا، وتجاعيد وجهه أكثر عمقا. يتابع الأخبار عبر الجرائد، ويعلم أن الأسوأ آتٍ. ومع أنه ليس على يقين بأن فؤاد ورشيد قد التحقا فعلا بالجماعات الإسلامية المسلحة، غير أن الشك ينهش عظامه، فماذا لو كانا كذلك حقا. إن مجرد التفكير في الأمر يجعله يشيخ.

كنت أصلي ألا يعود فؤاد إلى البيت أبدا، لكن لاحظت أنه كلما صليت من أجل شيء حدث عكسه. فقد عاد في إحدى الأمسيات وتقاطعنا عند مدخل الباب. هو بقميصه ولحيته وأنا بسروال الجينز ومعطفي، تأملني للحظة ثم عايرني:

- أمازلت متبرجة يا كلبة يا قليلة الحياء!

دخلت إلى غرفتي دافعة الباب بقوة، وأجبته:

- عندما تكون لديك زوجة أو ابنة تحكم فيها، أما أنا فلدي أب.

منذ مدة لم أُثر أعصابه وأشعل النار فيه. فار وطار ودفع الباب ورشيد معه:

- هذه البنت لا تستحي. ماذا سيقول عنا الناس؟ متدينون وأختهم متبرجة!

لن يكسر الباب هذه المرة لأني أغلقت فمي. بعد المغرب عاد أبي من الدكان وعرف من الصمت الذي يسود البيت أن شيئا ما قد حدث، لكنه لم يسأل عن الموضوع.

جاءت سعاد في عطلة الشتاء ومعها رسالة طويلة من طارق والعشق يفوح منها من بعيد. حدثني عن شوقه وعن يومياته، وأوصاني كالعادة بالهدوء والحذر، وفي الأخير هنأني بقدوم العام الجديد، وتمناه عام خير وسلام للجميع. أتممت الرسالة قائلة "آمين"، غير مدركة أنه لا يكفي في الحياة أن تكون صادقا فيما تتمناه ليتحقق ما تريد، وأنه من الضروري الاستعداد لحدوث النقيض أيضا. تفاؤلي ودعواتي بهذا العام الجديد لن تمنع أبدا حدوث مأساة في حياتي.

خلال العطلة كتبت أجمل رسالة حب لتأخذها سعاد معها. خربشت بعض الأشعار، وأعدت قراءة كل رسائله، وجميلة تتفرج عليّ من سريرها وهي تطرز وتحيك. في بداية شهر جانفي عدنا إلى العمل، وتسلّمت لأول مرة راتبي الذي جاء متأخرا مع تعويض للأشهر الماضية. شعرت بالثقة عندما قبضت المال، فالاستقلالية المادية تمنحنا العزة والقوة.

تبضعت واشتريت ما استطعت حمله من لحم وفواكه وحلويات، وبعض الهدايا لوالديّ وعلي وأولاد رشيد. بارك لي أبي في المساء عندما علم أني من حضّر العشاء، وفرحت لأني أنا من سيعطي المال لأبي بعد اليوم وليس هو من سيفعل.

في الأيام الموالية تسوقت كثيرا مع جميلة، فهي تحضر لزفافها وأنا أشتري أخيرا ملابس على ذوقي. تحاشيت شراء الفساتين والتنورات، وركزت على السراويل والأحذية والحقائب. لم يسألني أبي كم هو راتبي ولا طلب مني مالًا، فما شجعني على الدراسة والعمل طمعا فيّ، إنما حبًا لي. سأدرك هذا المعنى جيدا بعد بضع سنوات لاحقة.

في آخر أسبوع من شهر جانفي جاء عزيز وأهله يوم الجمعة لتحديد تاريخ العرس، سيكون منتصف شهر أفريل، وهو موعد قريب بالنسبة إلينا وبعيد بالنسبة إلى جميلة. حماسها لا يعقل، لكنها محقة، فالحياة في بيتنا أصبحت لا تحتمل، وعزيز شاب بشوش ومبتهج مثلها، وسيسعدان مع بعض.

بعد العصر غادر ضيوفنا، وكانت سعاد قد جاءت قبل ذلك بساعة أو أكثر، وعندما وجدت سيارة أمام الدار، وتحسست الأصوات وفهمت أن بيتنا عامر بالضيوف، عادت أدراجها. ولأنها لا تريد العودة إلى العاصمة والرسالة معها، بعثت بها مع أختها الصغيرة. لفت الرسالة بعناية في ورقة كبيرة وطوتها عدة مرات ثم أوصتها:

- قبل أن تدقي على الباب تأكدي بأن السيارة قد غادرت، وأن الضيوف قد ذهبوا، فإذا فتحت لك فاطمة الزهراء سلمي لها ما في جيبك، أما إذا فتح لك شخص آخر فقولي له أنا أحتاج فاطمة الزهراء، ولا تكشفي ما عندك أو تقدميه لأحد سواها، أفهمت!

أختها طفلة ذكية مثلها تدرس في السنة الخامسة ابتدائي، وبالتأكيد تستطيع إيصال الأمانة. كان فؤاد بالبيت يستعد للخروج حينما سمعنا دقا على الباب. خرج وفتح لها:

- مساء الخير، أحتاج فاطمة الزهراء.
- وماذا تحتاجين منها؟

صمتت الطفلة مرعوبة بشكله المخيف، بلحيته المتوحشة كغابات أدغال، ونظرته الحادة، وصوته الذبّاح.

زأر في وجهها كوحش:

- تكلمي ماذا تريدين منها؟
- أريد أن أسلمها شيئا.

أجابت مرعوبة وقد خطت إلى الوراء خطوتين. ولأنها لم تكن تحمل شيئا شدّه الفضول، فعدّل في لغته قليلا:

- إنها مشغولة الآن. هاتي ما عندك وسأعطيها إياه.

لم تسحب الفتاة شيئا وكانت ستغادر عندما خطت خطوة أخرى للوراء قبل أن يصرخ في وجهها كإرهابي حقيقي:

- قلت لك هاتي ما عندك!!

من رعبها سحبت الرسالة ورمتها بين يديه وفرّت هاربة.

حسبناه خرج، وإذا به في فناء الدار يقرأ الرسالة على مهل. وأنا كنت في الغرفة مع جميلة التي تستعرض ما أحضروه لها من هدايا عندما اهتزت أركان البيت بصراخه:

- يا عاهرة.. يا فاجرة.. أين أنت؟

لم تكن لدي فكرة عما حدث. جرينا أنا وجميلة نحو الباب وإذا به أمامي كالوحش الجائع، أمسك الرسالة بيد وشعري بيد أخرى وبدأ يركلني:

- ستجلبين لنا العار. أهذه هي الدراسة والعمل!

أسقطني على الأرض وبدأ يخنقني. أبي كان في غرفته وقد جاء متأخرا، إذ كنت لا أكاد أتنفس عندما وصل. لم يفهم أحد سبب ثورانه

لكن الجميع حاول إبعاده عني عدا رشيد وزوجته طبعا. كان يريهم الرسالة ولا يكاد ينطق بجملة كاملة من فرط هيجانه:

- انظروا ماذا تفعل الكلبة.. تراسل الرجال وتواعدهم! من ابن الكلب هذا الذي تواعدين؟ من يكون طارق هذا؟ هيا تكلمي!

يخنقني ويقول تكلمي!

- كلاكما سيموت على يدي. سأقتلكما معا! أفهمتِ!

لا شك أن الجيران قد سمعوا صراخنا. لم يستطع أحد أن يخلصني منه، ولا حتى أبي الذي ما عاد يمتلك الصحة والقوة ليقاوم وحشا كهذا. سحبت الرسالة من يده فتقطعت بيننا وأكملت تمزيق ما تبقى منها في يدي، في حين واصل هو ركلي ولكمي.

لم يتوقف والدماء تسيل من أنفي، وأقسم وأعاد القسم عشرات المرات بأني لن أضع رجلي خارج البيت بعد اليوم. فجأة توقفت عن الدفاع عن نفسي وفقدت الوعي. جميلة وعلي أنقذاني بصراخهما: لقد ماتت، لقد ماتت!

وفعلا توقف عن ضربي عندما حسبني متّ!

عندما استفقت بعد حين تمنيت لو أني لم أفتح عينيّ من جديد، فجملة "سأقتلكما معا" لا تزال تزلزل كياني. ليس موتي ما يخيفني، إنما خوفي كله على طارق.

في النهاية لن أعرف أبدا ماذا كتب طارق في تلك الرسالة لأننا أتلفناها أثناء الشجار، وما تبقى منها من قطع متناثرة جمعتها جميلة وأتت بها إليّ لم أقرأ فيها سوى بعض الكلمات المتفرقة: زهرتي الغالية، سنلتقي، أشتاق، كوني قوية، طارق...

سعاد بالتأكيد علمت بعواقب وقوع الرسالة في يد فؤاد، ولا شك أنها سافرت في الصباح الموالي قلقة. أما أنا فلا قمت من الفراش ولا فكرت في الذهاب إلى العمل. سيفزع تلاميذي مني إذا ذهبت بوجهي المزرق، وآثار الخنق بادية على رقبتي. غادر أبي باكرا إلى دكانه مهموما ومكسور الخاطر، وأمي طبعا تحملني كل المسؤولية. علي ذهب إلى المدرسة دون أن يقول شيئا، وجميلة ابتلعت ضحكاتها ونكتها إلى حين. أما رشيد وفؤاد فيتشاوران في الصالون عن مصيري، وهما راضيان لأني لم أفكر في مغادرة البيت.

طارق أصبح على أعصابه بعدما أخبرته سعاد بما حدث في أول يوم من عودتها إلى العاصمة. امتحاناته قريبة ولن يعرف التركيز وهو يعلم أي مصير لقيت بسبب رسالته.

لم يعلق أبي على الموضوع كأنما تلقي رسالة غرام ليس بجريمة كما يراها أولاده. لم يعاتبني ولا سألني عنها، ثم إنه يعرف بأنهما يبالغان في تزمتهما وقد جعلا حياتنا لا تطاق، فالراديو حرام، والتلفزيون حرام، والضحك حرام، وكل شيء جميل حرام... قريبا سيقولان الحياة حرام وساعتها سننتحر جميعا والسلام!

عند الظهر عاد أبي إلى البيت تاركا رشيد في الدكان. أطل عليّ ووجدني مزرقّة مصفرّة أتأرجح بين الحياة والموت.

قالت له جميلة:

- لم تأكل ولم تتكلم منذ البارحة. أظنها مريضة جدا، يجب أن تذهب إلى الطبيب.

حاولا إنهاضي وإجلاسي على السرير، لكني كنت خائرة القوى. خاطبني أبي:

- هيا قومي، سآخذك إلى الطبيب.

لم أجبه وعيوني بالكاد مفتوحة. لم أستطع القيام، وعليهم حملي إن أرادوا أخذي. طلب أبي من جميلة إطعامي رغمًا عني عسى الحياة تعود إلي، لكنها لم تفلح في ذلك.

في اليوم الموالي أصبحت في حال أسوأ وازدادت الزرقة المحيطة بعينيّ، ودخلت فيما يشبه غيبوبة. ومن فرط هلعها أصرت أمي على أخذي إلى الطبيب قبل أن يحدث الأسوأ. استأجر أبي سيارة من القرية وأُخذت إلى مستشفى المدينة. وبعد الانتظار في طابور طويل وصل دوري:

- ما هذا؟! تعرضتِ لحادث أم ضربك أحد؟!

قال الطبيب وهو يمسك بذقني، وأنا لم أنطق بشيء، ولا نطق والديّ.

- ما بها؟ ألن يتكلم أحدكم؟!

أجابه أبي:

- إنها متعبة جدا. تشاجرت مع أخ لها..
- وفعل بها كل هذا!

سماعة الطبيب الباردة تتحسس دقات قلبي الذي ما عاد ينبض بالحياة إنما بالموت البطيء. كل شيء فيّ متعب؛ قلبي، وعقلي، وجسدي.

- أنت ضعيفة جدا ومتعبة، لكن هكذا حالة يجب التبليغ عنها. سأرسلك إلى طبيب شرعي، لا تسكتي عن الموضوع.

نطقت أمي:

- طبيب شرعي! لا، لا داعي، إنه أخوها!
- وهل يحق له أن يقتلها لأنه أخوها!

أجابها الطبيب بغضب، وأشار أبي إليها أن تسكت، ولم يجد ما يبرر به ما حدث. وجه الطبيب كلامه إليّ بلهجة حادة وسألني إن كنت أريد التبليغ عنه، فهززت رأسي ودموعي منهمرة:

- لا..

وصف لي بعض الفيتامينات والمقويات، وقدّم لي عطلة مرضية لمدة أسبوع، ثم أرسلني إلى الجناح المقابل لحقني ببعض السيروم، وقبل أن نغادر مكتبه خاطبني:

- إن لم تبلغي عنه فستعودين للاستعجالات مرة أخرى يوما ما. هكذا يحدث دائما مع النساء المعنّفات اللواتي يتسترن على الرجال أمثال أخيك!

بقيت متعبة لأيام، ووجهي يخبر كل من يراني أني معطوبة حرب، أو بالأحرى معطوبة حب..

زارني عمي عمر بعدما أخبره أبي بأمري. لم يستوعب عمي ما حدث وهو الذي لا يشك أبدا في أخلاقي وتربيتي رغم ما يقوله عني فؤاد. تأملني ثم قال:

- فاطمة الزهراء، اسمعيني جيدا. ما دمت تعرفين أحدا قولي له أن يأتي لخطبتك. الزواج هو حلك الوحيد. يجب أن تذهبي من هنا في أقرب وقت، فلا أحد يستطيع أن يحميك منهما سوى زوجك. لا أنا ولا وأبوك نستطيع ترويض هذين الوحشين.

أومأ أبي بموافقته على ذلك، فهو يريد أيضا تخليصي مما أنا فيه. أما أمي فتتمنى لو يأخذني حبيبي اليوم قبل الغد. بالتأكيد لن أتجرأ على طلب شيء كهذا من طارق فهو لا يزال طالبا في الجامعة، لا بيت له ولا دخل، ومن المبكر جدا أن أحدثه عن الزواج رغم أنه من مشاريعنا، ولكن ليس الآن، وليس في مثل هذه الظروف.

أخذ عمي وثيقة عطلتي المرضية ليرسلها إلى مدير المدرسة التي أعمل فيها تبريرا لغيابي الذي تجاوز ثلاثة أيام، وألحّ عليّ بأن أتعافى وأعود للعمل ريثما يجعل الله لي مخرجا. طوال تلك الليلة ظلت أمي تردد عليّ:

- فليأت حبيبك هذا ليأخذك من هنا ونرتاح منك..

بعد ثلاثة أيام أخرى استرجعت بعض عافيتي. لم أكن أغادر غرفتي سوى للذهاب إلى الحمام. جمعت طاقتي ووقفت أمام المرآة أتأمل وجهي، وكررت الجملة الوحيدة التي تبقت من رسالة طارق الممزقة: كوني قوية.

آه لو يطل علي طارق في هذه اللحظات. كم أحتاج لأن يضمني إليه، لأن يمسح على وجهي وشعري، لكان شفاني في لحظات مثلما يفعل الأنبياء. لكن الحياة ليست كما في الأفلام الهندية حيث يعاش الحزن بالرقص والغناء والعناق تحت المطر! بقيت لساعة واقفة أمام المرآة أتأمل نفسي كما يحدث في الأفلام، لكن لا موسيقى انبعثت، ولا مطر نزل، ولا حبيب ظهر.. كم تجمّل السينما الأحزان!

في ظهيرة يوم الجمعة غادر جميع رجال البيت إلى المسجد. رشيد وفؤاد إلى مسجد القرية، وأبي إلى مسجد المدينة. كنت سآخذ حماما

عسى الماء يذهب بعض حزني وانكساري عندما دقت سعاد على باب غرفتي. كانت في منتهى القلق علي وكذلك كان طارق، لذا أصر عليها أن تعود إلى القرية بعد أسبوع فقط من ذهابها. اعتذرت مني بشدة لكن ما كان الخطأ خطأها ولا خطأ شقيقتها. هذه المرة لم تأت برسالة ورقية إنما شفوية فقط:

- لا تتصورين حجم معاناة طارق ولا معاناتي أنا أيضا، قلقنا جدا عليك. لقد ألح عليّ بالعودة لأطمئن عليك، وأنا مثله وأكثر كنت بحاجة لذلك. أخبريني ماذا قُرر، هل ستعودين إلى العمل؟
- لا أدري. غدا سأحاول إذا استطعت أصلا العمل فأنا منهارة جدا. قولي لطارق أني سأقاوم وأني سأكون قوية.
- طارق لا يملك مالًا ولا مكانا يأويكما، لكن إذا خطبك ربما تُتركين وشأنك.

توسلت إلى سعاد ألا تقول شيئا كهذا له، فالأهم الآن هي امتحاناته وليس الزواج.

في الغد لم يعترض أحد على ذهابي إلى العمل رغم وجودهما في البيت، وأخباري البائسة في طريقها إلى طارق. تحاشيت أسئلة المدير والمعلمين حول سبب غيابي، وقدّمت لهم إجابات غير منسقة ولا مقنعة تفيد بأني كنت مريضة، رغم وجود آثار الزرقة على وجهي والتي غطتها لي جميلة بالبودرة التي اشترتها تحضيرا لزفافها.

كان طارق يفكر في حل ما يخلصني ولو مؤقتا، وما إن أنهى امتحاناته التي لم تمر بخير حتى زار بيت والده وطلب منه مرافقته لخطبتي. اندهش والده لطلبه ورفض الفكرة جملة وتفصيلا:

- تتزوج!! وهل لديك بيت أو عمل؟ ما هذه العجلة، أم تظنني سأعيلكما معا!
- لم أقل أتزوج، قلت خطبة فقط. لن يكون هناك زفاف قبل أن أتخرج وأعمل.

لم يستطع إقناعه في البداية، وبعد الإصرار طلب منه والده اسم عائلتي وأبي حتى يسأل عنّا ويتحرى من نكون. لم يتقبل طارق هذه الفكرة لأنه لا وقت لديه ولا داعي للتحري، فهو يعرف جيدا عائلتي، لكن والده مصرّ على السؤال عنا لأنه لن يصاهر أيًّا كان.

والد طارق رجل مثقف ومتفتح، إطار في شركة عمومية، ولديه شبكة واسعة من العلاقات. ليس لطارق عم قريب في بومرداس، وأخواله يسكنون جميعا في مدينة تلمسان الواقعة أقصى الغرب الجزائري، لذا إن لم يرافقه والده فلن يجد أحدا ليرافقه.

عاد طارق إلى العاصمة تاركا لوالده فرصة للسؤال عنا، وبعد أسبوع عاد ووجد ردّه جاهزا:

- اسمعني جيدا يا طارق. أوّلا، أنت صغير على الزواج وغير جاهز. وثانيا، هذه العائلة خطيرة جدا. ألا تدري بأن لديها أخوان ينشطان مع الجماعات الإرهابية!

لم يكن صعبا عليه أن يعثر على أخبارنا ونحن لا نبعد عن المدينة سوى بخمسة كيلومترات.

- أعلم، أعلم، لكن هذا غير مهم!
- تعلم! وغير مهم! أمجنون أنت!

دخلا في جدال وشجار، وعرف طارق أن والده لن يأتي معه أبدا، بل وخسر أيضا ثقته في خياراته. خرج من البيت هائما على وجهه باتجاه البحر الذي لا يفصله عنه سوى الطريق. كان يوما باردا والبحر هائجا قليلا. مكانه المفضل في هذا الشاطئ منذ صغره، والذي يلجأ إليه كلما ألمّ به الشجن، هو المكان المسمى "الصخرة السوداء". صخرة كبيرة سوداء يعرفها كل من يقصد شاطئ مدينة بومرداس الرملي، فهذه هي الصخرة البحرية الوحيدة الموجودة في المدينة، وتبعد عن منزله مسافة تقل عن كيلومتر واحد.

من الصخرة يتأمل موج البحر وهو يعلو وينكسر، وصنارات الصيادين وهي تحمل المفاجآت. منذ سنوات تعرّف في هذا المكان على صياد يدعى الشيخ طاهر، ومعه قضى ساعات طويلة في انتظار سمكة. رجل تجاوز الستين من العمر ولديه حكايات كثيرة عن التاريخ، والسياسة، والفن، والعشاق، والنوادر، والطرائف، وأشياء أخرى... رجل صبور، فالصيد هواية الصابرين لا محبي السمك، وكم مرة حلّ عليه الظلام ولم تلتقط صنارته شيئا، ومع ذلك يجمعها بلا تذمر ليعود في الغد. إن متعة الصيد هي انتظار قدوم السمكة وليس الحصول عليها.

لا أحد يستطيع استيعاب طارق في مثل هذا الظرف أكثر من الشيخ طاهر الذي تجمعه به صداقة لا مشروطة رغم فارق السن الكبير بينهما. صحيح أنهما لا يعرفان عن بعضهما سوى الأسماء، ومع ذلك فصداقتهما عميقة.

شمّ الصياد رائحة الحزن من بعيد، وعرف أن طارق ليس بخير، وبعد أن سمع منه القصة عرض عليه أن يرافقه لخطبتي. في البداية

طارق هو من تردد في قبول العرض، لأن ملابس صديقه المتسخة والبالية، ولحيته البيضاء المبعثرة لا تناسب زيارة من هذا النوع، لكن الشيخ واثق من فكرته:

- لا تخف. سأحلق ذقني وألبس أفضل ما لدي.
- لِم لا، إنه حل. سأقول لهم إنك عمي.

اتفقا على موعد بعد أسبوع، ووصل اليوم الموعود. بعد صلاة الجمعة بساعة كان الجميع في المنزل عندما سمعنا دقات على الباب. فتحه علي وعاد إلى أبي يخبره أن بعض الناس يطلبونه. كان فؤاد في الصالون وقد شده الفضول ليعرف من هم، وما هي إلا لحظات حتى خرج. ولأن خديجة كانت بالمطبخ وسمعت ما يدور في الخارج، أسرعت لتخرج زوجها أيضا.

- مساء الخير سي صالح. أنا الشيخ طاهر، وهذا طارق ابن أخي، جئنا لطلب يد ابنتك فاطمة الزهراء.

أخفى أبي سعادته العارمة ورحب بهما، لكن وصول فؤاد لم يعط فرصة للخير أن يكون. تفحص الضيفين ثم خاطب طارق:

- من أنت؟ وماذا تريد؟
- أنا طارق وهذا عمي، جئنا لخطبة فاطمة الزهراء.

صمت للحظة قبل أن يندفع الدخان من أنفه وأذنيه:

- جئت يا ابن الكلب يا قليل الحياء! لو كنت رجلًا لكنت خطبتها قبل أن تبعث لها برسائلك القذرة، أم حسبت بنات الناس لعبة بين يديك!

تمالك طارق نفسه قليلا قبل أن يرد، واغتاظ أبي فمد ذراعه على صدر فؤاد ودفعه إلى الوراء:

- ادخل إلى البيت، فلا دخل لك أنت. إنها ابنتي وقد جاء ليخطبها مني!

لكن ما كان فؤاد ليدخل أو يسكت وقد وقف رشيد بجانبه.

- أين عرفتها؟ ومتى؟ هيا تكلم يا عديم الشرف!

راح يسأل بلا معنى، ويحاصره بصدره كأنما سيضربه. نفد صبر طارق وانفجر مخاطبا إياه بتحدٍّ لا محدود:

- لو أنك حقا تحبها وتخاف عليها ما كنت مددت يدك عليها. أم أنك تترجل على النساء الضعيفات فقط!
- أجئت لتعلمني كيف أربّي أختي يا سافل؟

تعالت الأصوات في الخارج وأنا لا أزال في غرفتي بلا خبر. شعرت بالتوتر والوجع أسفل بطني، وحسبت أن الطمث قد جاءني قبل الوقت كالعادة.

من فرط توتري لم أحاول فهم ما يحدث وقد انتابني إحساس غريب. للحظة عمّ السكون في البيت وسمعت صراخهم. دق قلبي دقة مدوية، ولبرهة شككت أني سمعت صوت طارق، ثم رحت أهدئ نفسي قائلة: لا لا.. هذا من خيالي.

في المرة الثانية اندفع قلبي من قفصي الصدري وكان سيقع أرضا لولا أني وضعت يديّ عليه. إنه حقا صوت طارق! وقبل أن أقوم من مكاني دخلت جميلة:

- إنهم يتشاجرون مع أحدهم في الخارج!

جرينا نحو نافذة المطبخ المطلة على جانب الدار، وإذا بطارق وجها لوجه مع فؤاد. صرخت مصدومة:

- طارق! لماذا أتيت لماذا؟ سيقتلك هذا الوحش!

تعالت الأصوات ولم نفهم شيئا مما يقال، فكل يتكلم من جهته. مدّ فؤاد يده وأمسك طارق من وسط صدره وضربه برأسه وركله كما يفعل معي. لكن طارق ما كان ليسكت وقد عرف أنه خسر كل شيء، لذا لن يغادر حتى يلقنه درسا في الملاكمة. عرفت طارق رجلا حنونا ورقيقا لأقصى حد، ولم أتصوره يوما عنيفا.

ثار بركانه هو الآخر، ودفع بفؤاد للوراء وركله ركلة محترف، ثم لكمه على وجهه ثأرًا بما فعله بي. لم يرحمه إطلاقا وتراءى فؤاد خائفا كجرو، ففي النهاية ليست لديه أية قوة عضلية، وإن كان دوما يغلبني فلأني لم أتربَّ على الدفاع عن نفسي، وإلا لغلبته بالتأكيد! مرّغه طارق في التراب، وأسال الدم من أنفه، وكسر له سنًّا! أصبت بالذهول وأنا أتفرج على المشهد من وراء شباك النافذة، عاجزة عن الحراك أو الكلام.

تدخل الجيران وفرّقوهما، ولمحت مربط شعري في معصمه. بكيت مزيجا من الفرحة والأسى، لأن طارق فعلا أثلج صدري بما فعله بفؤاد.

الآن قضي الأمر. لن يزوجوني لطارق ولو كان آخر رجل في الدنيا. غادر حبيبي وصديقه تاركين فؤاد يقسم بأنه سيقتله وأنه سينفيه من مدينة بومرداس. أما رشيد فبقي واقفا مندهشا وفي فمه جملة واحدة:

- من يقدر على هذا الشيطان!

دخل الجميع إلى البيت وأنا لم أعد قادرة على الوقوف من فرط الخوف. أمسكت بجميلة حتى وصلت إلى الغرفة وقد عمّ صراخ الجميع في الصالون. لا يزال فؤاد يقسم بأنه سيقتله وسيقتلني أيضا إذا تجرأت وذكرته. انهار أبي تماما وبقي مذهولا لأية درجة أصبح فؤاد عنيفا ومفسدا لكل شيء. دخل في شجار معه وكرر عليه مرارا أنه لا يزال ربّ البيت وأني ابنته وهو من سيقرر مصيري، لكن لا أحد يستطيع ترويض الوحش.

جاء وهو يتمايل في الرواق والدم يسيل من أنفه، ودفع باب غرفتي برجله:

- يا فاجرة.. تسربين أسرار الدار للرجال وتراسلينهم. كلاكما سيموت على يدي!

الآن أصبحت صلاتي هي ألا يلتقي فؤاد بطارق أبدا، وإلا سيتقاتلان من جديد. ثم إن فؤاد يحمل معه دائما سكينا يذبح بلمعانه قبل أن يُلمس، وإذا كان قد تحول إلى إرهابي فسيقتله حتما.

كلما تفاءلت قليلا، وقلت إن الأمور ستنفرج ازدادت تعقيدا. فقدت كثيرا من وزني في الأسابيع اللاحقة، وعاداني النوم حتى أصبحت متوترة جدا وعديمة التركيز. يصيبني القلق والأرق كل ليلة، ويحلّ الصبح وأنا لم أنم بعد، وعند وصولي إلى المدرسة أرى كل تلميذ على اثنين، فيبدو لي أن عدد التلاميذ قد تضاعف.

حلّ الربيع وأنا لا أزهرت ولا سأزهر قريبا. مشغولة فقط بتلاميذي الذين نشأت بيني وبينهم مودة كبيرة. أشعر بالسعادة العارمة عندما يستقبلونني كل صباح ومساء بابتسامة مشرقة ولغة

مبتهجة قائلين جميعا: صباح الخير آنستي.. مساء الخير آنستي.. إلى اللقاء آنستي..

كنت أحبهم جميعا على اختلافاتهم؛ المجتهد والكسول، المشاغب والهادئ، الجريء والخجول. أحب حينما ينشدون وأنصت إليهم، أو يرسمون تلك الخربشات لأحلامهم، ويكتبون لي رسائل حب جميلة. أجلس في مكتبي أتأملهم وهم منهمكون في الرسم والمشاغبة والأحلام، وأتساءل أي مستقبل ينتظرهم إن استمرت موجة العنف.

أمين أعزّ التلاميذ على قلبي. تلميذ هادئ وظريف، قليل الحركة والمشاغبة، ذكي وجاد، مؤدب إلى حد لا يعقل، حريص على تأدية واجباته في وقتها، وفي ذات الوقت شاعري وحالم. كان دائما يرسم سماءً زرقاء رحبة ومشرقة، ومروجا وبساتين خضراء.

كنت أتصور أي نوع من الوالدين ربيا طفلا رائعا مثله، وقد صادفتهما مرارا عند باب المدرسة وهما يوصلانه في الصباح قبل أن يذهبا إلى العمل، وأمين يقول لهما: تلك معلمتي، تلك معلمتي.. فيشيران لي بتحية. ولأنه يجلس في الطاولة الأولى من الصف الأول فلا يمكن أن يغيب دون أن ألحظ ذلك سريعا. كان يصر على الحضور حتى عندما يكون مريضا حتى لا تفوته الدروس.

ذات يوم من هذا الربيع الذي أزهر ونوّر دون أن يجمّل قبح أيامنا، لمحت مكانه فارغا وحسبته مزكوما أو محموما ككل الأطفال. في الغد، وبعد الغد، ظل مكانه شاغرا وانشغل بالي عليه. بعد أسبوع جاء ودق باب القسم مع المدير، ودخل متثاقلا منكسر الجناحين. أشار إليّ المدير بأن أستقبله فقد أحضره أهله وبرروا غيابه، وطلب مني أن أمرّ على مكتبه بعد الدرس ليوضح لي أمره.

سار إلى مكانه دون أن يرفع رأسه. لم يكن كعادته، كان مصباحا وقد انطفأ. سرت إليه وانحنيت:

- أهلا بعودتك أمين. هل أنت بخير؟

ظل صامتا مطأطئ الرأس وهو واقف جنب طاولته. مددت يدي ورفعت رأسه من ذقنه:

- أمين، انظر إلي، لِمَ غبت كل هذا الوقت؟

سالت من عينيه دمعتان شفافتان رأيت فيهما وجهي. نطق تلميذ من مكانه دون أن يسأله أحد:

- آنستي.. قتل الإرهابيون أباه!

انفجر بالبكاء محاولا حبس دموعه خجلا مني، وأنا لم أعرف كيف أواسيه. جلست على ركبتيّ ووضعت يديّ على خديه ومسحت دموعه بالسبابتين.

نطق تلميذ آخر:

- آنستي.. ذبحوه في حاجز مزيف!

لم أعثر في اللغة العربية على كلمة تنفع لهكذا موقف. سحبته إلى صدري وضممته بما أستطيع من قوة. مسحت على شعره وربتّ على ظهره وهو يبكي بحرارة. شعرت بيديه تضمّاني بكل ما فيه من قوة أيضا، وقلبه الصغير ينبض نبض العصفور. كان في منتهى الخوف والوجع ولم تكن لدي كلمات للمقام! كل ما أملكه هو حضني، وبه حـــــاولت أن أواسيه، وهل من شيء يواسي الأحزان أفضل من الأحضان!

كانت تلك أطول وأقوى ضمة عشتها. بكيت معه وبكى بقية التلاميذ في وجع إنساني لا متناهٍ. هدّأته قليلا وكررت عليه:

- ستكون بخير يا أمين. أنت قوي وذكي وسوف...

شعرت بتفاهة الكلمات فتوقفت عن تلفظها وضممته ثانية.

منذ ذلك الحين وأمين مكسور النظرة والضحكة والحركة، ما عاد كما كان، بقي مجتهدا لكنه مثلي فقد بهجة الحياة، حيث لا شيء يضحكنا ولا شيء يسلينا، نظل نفكر فيما فقدناه. هو فقد والده وأنا فقدت حبيبي.

في حفلة نهاية الفصل الدراسي الثاني التي نظمناها في القسم، تراءى لي أنه لن يتعافى أبدا، وفي الوقت الذي كان فيه جميع التلاميذ منهمكين في اللعب والمشاغبة بقي هو صامتا ساكنا في مكانه. بالأمس وزعت عليهم دفاتر العلامات ليطلع عليها أولياؤهم وقال لي:

- آنستي، هل يمكن أن توقع أمي في الكراس فأبي...

قاطعته قبل أن يكمل:

- طبعا عزيزي.

واليوم، وأنا أتأمله، أفكر في مصير مئات الأطفال المصدومين مثله وأكثر من ضحايا الإرهاب.

ودّعني التلاميذ عند باب القسم مرددين: إلى اللقاء آنستي.. عطلة سعيدة آنستي.. وعندما وصل أمامي توقف ونظر إليّ دون ابتسامة:

- عطلة سعيدة آنستي.

انحنيت نحوه وقلت له:

- هل تحبني يا أمين؟

هزّ رأسه عدة مرات ثم نطق:

- أجل..
- كم تحبني؟
- كثيرا..
- إذن اضحك وابتسم لأني أحزن كثيرا عندما أراك حزينًا.

ابتسم وغادر، وقد تذكرت قول طارق لي: لا شيء يحزنني قدر حزنك..

الآن عليّ تحمل البقاء في البيت خمسة عشر يوما مع احتمال حدوث معارك واشتباكات جديدة. عرس جميلة أصبح على بعد شهر، وبالتأكيد سنقضي الوقت في التحضير له. فكرت أنها العطلة وبالتأكيد ستعود سعاد إلى بومرداس وكذلك طارق، وربما صادفه فؤاد في مكان ما وتقاتلا. كانت الفكرة ترعبني فأنفض رأسي سريعا لأطردها.

جاءتني سعاد بعدما تأكدت من أن رشيد وفؤاد ليسا في البيت، وأخبرتني أن طارق لن يقضي العطلة هنا إنما عند جدته في تلمسان، وأنه يوصيني بأن أتحاشى فؤاد، وألا أتخلى عن العمل، وأصبر ريثما تنفرج الأمور.

اطمأن قلبي لأنه ليس هنا، رغم أني أتمناه دائما قريبا مني حتى وإن كنت لا أراه. أما سعاد فهي تزداد عشقا وخوفا على حبيبها الشرطي. هما يتقابلان من وقت لآخر في العاصمة لكن مهنته الخطيرة جدا تجعله يعيش كل يوم على حافة الموت. وعلى كل حال جميع الجزائريين يعيشون على حافة الموت، إنما بعضهم مستعد لذلك والبعض الآخر يباغتهم الموت بشكل لا يمكن أن يستوعبه العقل.

مرّت العطلة بسلام لأن فؤاد ورشيد لم يبيتا في المنزل سوى ليلة واحدة، وبنات عمي يوميا معنا للمساعدة في التحضير للعرس. ذهبت مع جميلة وسعاد إلى مدينة بومرداس لاقتناء آخر الحاجيات. خفق قلبي بسرعة عندما مررنا بجانب الجامعة، واسترجعت اللحظات التي كنت فيها امرأة وإنسانة سعيدة. طعم قبلته لا يزال في فمي كأنما حدثت قبل قليل فقط.

- أتودين معرفة أين يسكن طارق؟

قالت سعاد ثم أكملت:

- دلّني على بيت عائلته عندما جئنا مع بعض من العاصمة.

فرحت جدا لأني سأرى شيئا يتعلق به. بيته على طريق البحر غير بعيد عن الصخرة السوداء الموجودة على اليمين. بناية من خمسة طوابق في أسفلها مطعم ومقهى وهاتف عمومي، وهو يسكن في الطابق الثاني. مكان جميل وفاخر لا يفصله عن البحر سوى الطريق الرئيسي.

مع بداية شهر أفريل سعدت بالعودة إلى العمل وبلقاء تلاميذي الذين قبّلوني واحدا بواحد واستقبلوني ببهجة، وفرحت جدا لرؤيتي أمين يمشي منتصب القامة مشرق الابتسامة. بالتأكيد لم ينس أحزانه، لكن الطفولة والبهجة لا تفترقان رغم قهر الأحزان.

وفي إحدى فترات الاستراحة خرج جميع التلاميذ من القسم، وجاء إلى مكتبي يحمل ورقة صغيرة وقدمها لي بخجل:

- آنستي، هذه رسالة لك.

فتحتها وقرأت:

«معلمتي العزيزة

أنا أحبك كثيرا وأعدك بأن أظل مبتسما وسعيدا

أتمنى لك كل السعادة أيضا

أمين»

انتهت الرسالة وفي أسفلها رسم لقلبين صغيرين وزهرتين.

لم تبهرني سلامة رسالته اللغوية والتركيبية وهو لا يزال تلميذا في السنة الثالثة بقدر ما أبهرتني مشاعره. لم أتمالك نفسي وجلست على ركبتيّ وعانقته، فضمّني بمنتهى الرقة والحنان.

- سنكون جميعا سعداء في المستقبل. كل شيء سيكون بخير. ستكبر وتنجح وتتزوج، وستخبر أولادك كم كنت تحب معلمتك. أليس كذلك؟

ضحك وضحكت معه واغرورقت عيناي بالدموع.

أسبوع فقط قبل العرس وجميلة على لهفة. جاء عزيز وأهله للاتفاق على آخر الترتيبات، وسيعودون طبعا قبل ثلاثة أيام من العرس لإحضار الكبش وما لزم حسب العادات. رشيد وفؤاد ليسا هنا، وعليه فإنها لأول مرة تجلس بجانبه وتكلمه بكل أريحية.

كانا سعيدين ومتناغمين جدا، يوشوشان ويضحكان. لا أدري ماذا يقول لها، لكني أظنها تبالغ كالعادة في جعل كل شيء مضحكاً. لم أرها قبلا سعيدة ومنتشية كاليوم، إنهما يطيران فوق غيمة ككل العشاق المشتاقين، ولولا خجله منا لربما خطفها في الحين. فكرت كم هو جميل أن تتزوج بمن أحببت بشغف، وتذكرت أن زواجي من طارق في الظرف الحالي ضرب من المستحيل.

أربعة أيام قبل العرس ونحن منهمكون بتحضير آخر الحلويات والأفرشة والأواني بوجود بنات عمي وزوجته، وأنا ألتحق بهن يوميا بعد عودتي من العمل. نمنا متأخرات في تلك اليلة وفي صباح اليوم التالي، وفي حدود الساعة السابعة والربع، كنت أشرب قهوتي في المطبخ وأبي قد غادر إلى الدكان، عندما دفعت جارتنا هدى باب الفناء بقوة ثم باب الرواق وانهارت عند مدخل البيت باكية:

- جميلة.. عزيز يا جميلة.. لقد خدعك أعداء الله وخدعونا!

لم نفهم شيئا مما قالته، لكن تلفظها اسم عزيز جعل جميلة تقفز من سريرها وتخرج من الغرفة.

- لقد قتلوه يا جميلة.. قتلوه!

صرخت جميلة صرخة واحدة وهوت على الأرض. أغلق أبي الدكان وعاد إلى المنزل بعدما أخبره والد هدى والمرسول الذي أتى بالخبر من برج منايل. حدث ذلك ليلة البارحة عندما كان عزيز في مقهى بمدينته يحتفل مع أصدقائه بزواجه القريب لساعة متأخرة من الليل، وقد علم الإرهابيون، أو تم إعلامهم من بعض الخونة، بأن شابين من المجندين في الخدمة الوطنية قد جاءا لزيارة أهلهما وهما هناك أيضا. جاؤوا في سيارة ونزلوا عند باب المقهى وأطلقوا الرصاص عشوائيا على الجميع، ليقتلوا معظم من كان هناك، وأخذوا ما في صندوق المال وغادروا.

اغتيل العريس ثلاثة أيام قبل العرس! أما العروس فستموت تدريجيا موتة أسوأ من تلك التي مات بها عريسها. لا أعراس بقيت، ولا أفراح، ولا حب.. بدأ الإرهاب يقضي على كل أشكال الحياة!

مأتم في بيت عزيز وآخر في بيتنا. طبعا ذهب والديّ إلى جنازته، لكن لم يسمحا لجميلة بالذهاب لأنها لن تتحمل أبدا رؤية جثة حبيبها، وهي التي لا تكاد تفيق حتى يغمى عليها من جديد.

ما هذه الأيام العصيبة، الموت يزور بيوت الجزائريين بيتا بيتا، ولا أحد يعلم متى سيصل دوره. جاء جميع من دعوناهم لفرحها من أجل تعزيتها، ومشهدها وهي جاثمة في زاوية تبكي والناس حولها، مشهد درامي لا يمكن تمثيله بالكتابة. لقد خطفوا منها فرحتها وهي على وشك أن تقبض عليها. أخبار كثيرة من هذا النوع ستنتشر لاحقا، رجال ونساء قتلوا ساعات فقط قبل أو بعد زواجهم!

اليوم نبكي على الموتى، وغدا سنبكي على الأحياء! فهمت هذا الدرس مبكرا: إن الضحايا الحقيقيون للإرهاب ليس الذين ماتوا، إنما الذين بقوا على قيد الحياة!!

يا لسخرية القدر! كل ما حضرناه من حلويات ومشروبات ومناديل زهرية من أجل الفرح، إنما ستوزع على المعزين!

الآن وقد انطفأت جميلة كشمعة في الظلام، خيّم الحزن على بيتنا بشكل رهيب وبالأخص في غرفتنا، حيث تظل في سريرها معانقة صورة عزيز وأشياءه. جميلة التي كانت تواسيني في مصائبي، هي الآن في أبشع مصائبها ولا تكف عن البكاء والمناجاة:

- يا عزيزي.. يا عزيز..

كلمات تذبحني كلما سمعتها بصوتها المبحوح.

بعد مرور شهر ما زالت جميلة على حالها، وأنا لا أزال مثلها لا أعرف كيف أبتسم أو أتفاءل، لولا أن تلاميذي يملؤون وقتي وحياتي

ببهجتهم وطفولتهم البريئة. لا خبر عن طارق، وسعاد نادرا ما تزورني حتى لا تتصادم مع فؤاد ورشيد بعد علمهما أنها مرسولي إلى حبيبي، ثم إننا توقفنا عن التراسل، وآخر مرة جاءت فيها كانت من أجل تعزية جميلة فقط، ولم تطل زيارتها لأن بيتنا كان يعج بالمعزّين، وبالكاد استطاعت أن تقول لي جملة:

- إنه بخير ويسلم عليك، ويوصيك بأن تصبري وتظلي قوية.

الصبر.. كيف نتعلم الصبر على الفراق؟ على من نحب؟ حسبت نفسي صبرت طويلا لكني في الحقيقة لا أزال في أوّل الصبر.

إنه منتصف شهر ماي، كل أنواع الزهور تفتحت، وابتهجت الفراشات والعصافير، والسنة الدراسية توشك على نهايتها. بعد اغتيال عزيز عاد فؤاد إلى البيت مرتين أو ثلاثاً ولم يحدث بيننا أي صدام، فبيتنا لم يفرغ من الضيوف المعزين، ثم لا أحد منا يمتلك الطاقة للشجار عداه هو.

كنا نتعشى لحظة دخل فؤاد ورشيد وبجعبتهما سرّ ما. نظرا إليّ نظرة غريبة. أعرف تلك النظرة، نظرة تهديد ووعيد. تساءلت مع نفسي أية مشكلة سيختلقان الآن!

غادرت المطبخ قبل أن أكمل عشائي وذهبت لأسلي جميلة قليلا. دخل أبي إلى الصالون ولحقا به. في البداية تعالت أصواتهم ثم هدأت، لم أستطع سماع شيء، ثم فتح رشيد الباب ونادى على أمي وأغلقه من جديد.

دام الاجتماع نصف ساعة، وأنا بقيت ذاهبة راجعة إلى المطبخ أتفقد ماذا يحدث في الصالون المقابل، ثم أرسلت أخي علي وطلبت منه أن

يتحجج بأخذ محفظته ويترك الباب مفتوحا، ولحسن الحظ أنه يطيعني ولا يفضحني، إنه الوحيد الذي أتفاءل به ليكون أخا لي بالمعنى العميق للأخوة، لا عدوا كسابقيه.

عندما دخل سمعت رشيد يقول:

- نحن نعرف السيد جيدا، إنه رجل فحل وابن حلال.

قاطعه فؤاد:

- لقد أعطينا الكلمة للرجل ولن نتراجع، أم أنه لا وزن لنا في هذا البيت ولا رأي!

ثم واصل رشيد:

- "الجايحة".. تريد الزواج من رجل أحضر شاهده من الشارع. من لا يعرف الشيخ طاهر؟ صياد سكير، أولاد الجيران يعرفونه جميعا.

فهمت أن الموضوع يعنيني، فتسارعت دقات قلبي وارتعشت أطرافي خاصة بعدما سمعت قول فؤاد:

- حضّروا أنفسكم لأنهم سيأتون يوم الجمعة وانتهى الكلام!

كنت خلف الباب حينما همّ بالخروج وقال لي ساخرا:

- ها أنت! احمدي الله أننا وجدنا لك رجلا، وإلا ستبقين عانسا طوال عمرك!

دخلت إلى الصالون وقدماي ترتجفان. انتظرت تعليقا من أبي لكنه لم يقل شيئا، في حين تكلمت أمي:

- إن كان موظفا وابـــن حـــلال فلم لا. على كلٍّ عاجلا أم آجلا ستتزوجين.

لم أرد عليها وخاطبت أبي:

- بابا.. أنا لا أريد الزواج!
- إذا لم يعجبك لا تتزوجيه.
- لا أريد حتى رؤيته!

صرخ رشيد في وجهي:

- لم تريه بعد ولا تريدينه! يوم الجمعة ستكون الخطبة وانتهى الأمر، والأحسن لك أن تدعي الأمور تمر بسلام. لن يأتوا من البليدة إلى هنا لتقولي لهم لا يا "لونجة بنت الغول"!

عاد فؤاد:

- اسمعيني جيدا، خضت معك ما يكفي من المعارك فلتتزوجي أحسن لك إن كنت تريدين العيش. وإياك ثم إياك أن أسمعك تنطقين باسم ابن الحرام ذاك، أما إذا عاد ثانية فأقسم بأني سأقتله وأقتلك.
- سأقتلك، سأقتلك، تظل تهددني! أهذه هي مهنتك الجديدة! فلتقتلني إذًا وترحني منك. من قال لك بأني لا أريد الموت!

علا صوت رشيد وأبي وأمي، وشكّلوا بأجسادهم حاجزا بيننا قبل أن نتشابك، هو يقسم بأني سأتزوج وأنا أردد بأني لن أفعل.

عدت إلى غرفتي منهارة. في العادة أجلس على السرير وأضم وسادتي وأبكي عليها كاتمة صوتي، لكن هذه المرة رحت أذهب وأجيء في غرفتنا الصغيرة ممسكة برأسي:

- يا ويلي، هذه هي مصيبة المصائب، باعوني في الجبل لإرهابي مثلهما!

جميلة التي لا تزال في حداد قامت لتهدئ من روعي الذي لن يهدأ أبدا. وأمي جاءت لتحاول إقناعي بأن الزواج أفضل حل لي، وأنه قد يكون عريسا جيدا، لكنني انفجرت في وجهها:

- أمي أرجوك، لماذا لا تريدين أن تفهمي؟ ولداك يعملان مع الإرهابيين وقد زوجوني لإرهابي مثلهما!

ثارت ثائرتها لأنها لا تحب إطلاقا أن نقول عن ولديها إرهابيين:

- أخذتهما الشرطة وحققت معهما، لو كانا كذلك ما أُطلق سراحهما، أم أنك تعرفين الإرهاب أفضل من الدولة! أنت حقا عنيدة وتستحقين ما يحدث لك.

توسلت إليها أن تغادر الغرفة وتتركني وشأني، فقد خرج الدخان من أنفي وأذنيّ كتنين مثلما يحدث مع فؤاد عندما يغضب!

لحظات وأتت خديجة:

- قال رشيد بأنه يعرف هذا الخاطب جيدا، موظف وخلوق، ولن تجدي أفضل منه!

طردتها وأغلقت الباب في وجهها بقوة لأني لا أتحمل سماع المزيد!

لم يغمض لي جفن تلك الليلة وما تلاها من الليالي، وقابلت تلاميذي وأنا في منتهى الإعياء النفسي والجسدي. وصل يوم الجمعة وانتبهت أن يوم الجمعة هو دائما يوم مصائب. فيوم تسلّم فؤاد الرسالة كان جمعة. يوم تشاجر مع طارق كان جمعة. واليوم أيضا جمعة وستتم

خطبتي رغما عني. ولا أدري كم جمعة شقية تنتظرني بعد. أين هي بركات يوم الجمعة! لماذا لا تنزل علي؟!

حضّرت أمي وخديجة كل شيء، وجميلة مثلي غارقة في حزنها العميق. لم أشأ أن أغيّر ملابسي ولا أن أتزين. عندما وصل الخطاب، وفي آخر لحظة، أجبرتني أمي على ارتداء فستان مطرز طويل. لم أضع شيئا على وجهي، وربطت شعري كيفما كان عسى أبدو لهم قبيحة فيغيرون رأيهم ويدعوني وشأني، فالجمال مقياس مهم في هكذا مناسبات يكون فيها القرار الأول والأخير للنساء المرافقات للعريس!

لن أعرف أبدا قصة هذا العريس وكيف وصل إليّ. القصة التي يحكيها رشيد لا تقنعني لكنها القصة الوحيدة. يقول بأن لفؤاد صديقا حميما من مدينة البليدة وله أخ يبحث عن بنت "فاميليا" للزواج فحدّثه عني. كم يبـــدو الأمر بسيطـــا وساذجـــا. ثم إني أتصور أي نوع من الأصدقاء لديه.

أستغرب أن فؤاد قد رأى فيّ سمات زوجة صالحة، فطالما ناداني بالفاجرة، ولم يرض يوما عن سلوكي! هل مدحني حقا أمام صديقه؟ أيعقل أنه يحبني لكنه لا يعرف كيف يعبر عن ذلك! أم أنه يريد التخلص مني وإبعادي عن وجهه كي لا يرتكب جريمة قتلي يوما ما؟

جلس الرجال في الفناء تحت شجرة التين حيث توجد طاولة وبعض الكراسي القديمة، وجلست النساء في الصالون، الاختلاط حرام طبعا. طلبت من جميلة غلق باب الصالون ودخلت إلى المطبخ لأرى جلادي الجديد من النافذة المطلة على الفناء. كانا اثنين، واحدا منهما لم أستطع رؤية وجهه لأنه أعطى بظهره للنافذة، أما الآخر فلم أر في حياتي رجلا بمثل ذلك القبح!

لحية سوداء طويلة ومتوحشة. شامة دائرية كبيرة تميل للسواد وسط جبينه. ظفر أصبع الخنصر، الأيمن والأيسر، طويل وحاد كسكين. نظرة ماكرة خبيثة لعينين تظللها من فوق حواجب مبعثرة وكثيفة، ومن تحت تغرقان في هالات سوداء عميقة. إن كان هذا هو عريسي فالموت أرحم لي!

جريت نحو غرفتي مرعوبة وقد تبعتني جميلة:

- آه يا أختي لو ترينه.. إنه حقا إرهابي!

في الصالون أمه وأخته وزوجة أخيه ينتظرنني. النار مشتعلة في أصابعي، لذا لن أحمل صينية القهوة كما قد تفعل عروس سعيدة، لأني سأسكبها فوقهن بالتأكيد! فأنا غير قادرة حتى على حمل نفسي فكيف أحمل إبريقا مملوءا بالقهوة وصينية فناجين!

دخلت عليهن بخطوات متثاقلة. سلّمت على تلك السيدة المربعة الجثة، أمه، بجلابيتها العريضة. المتجلببة الأولى التي كانت معها هي أخته، والمتجلببة الثانية هي زوجة أخيه. تفحصنني من رأسي حتى قدميّ بعيونهن المتخفية وراء كحل شديد السواد، وحدسي يقول إنهن سيحولن حياتي لجحيم إن تزوجت بهذا الرجل.

جلست بجانب أمي، ورحت أحسب عدد الخطوط والدوائر في السجادة المفروشة على الأرض. قالت العجوز عندما قدّمتني أمي:

- ما شاء الله، ما شاء الله..

لم أرُد لها المجاملة ولو لباقة!

لحظات ودخل أبي ومعه رشيد والعريس. لا أدري إن كان العريس هو من طلب رؤيتي، أم أن أبي هو الذي أرادني أن أراه. تأخرت في رفع بصري للنظر إليه.

خاطبه رشيد مشيرا بيده:

- هذه أمي..

انحنى العريس وقبّل رأسها، وأنا لا أزال جالسة. رفعت بصري من حذائه اللماع إلى وجهه، وإذا به شاب مقبول الوسامة، بذلة أنيقة بلا ربطة عنق، لحية خفيفة مهذبة، وعطر قوي لكن غير زكي. وقف أمامي وقفة مستقيمة كأنما يستعد لتحية العلم.

نطق رشيد ثانية مشيرا إليّ:

- هذه أختي فاطمة الزهراء.. عروسك..

رفعت رأسي قليلا ونظرت في وجهه دون أن أقف. حدق فيّ دون ابتسامة وقال:

- تشرفت بمعرفتك..

أنزلت رأسي ولم أقل شيئا، وعدت ثانية لحساب عدد خطوط السجادة ودوائرها عندما أطلقت أمه زغرودة طويلة وتبعتها ابنتها كأنما انتهى كل شيء. وأنا شعرت بالدوار وبدت لي الخطوط والدوائر قد تداخلت مع بعضها بعض ولم يعد لرسوم السجادة أي معنى.

ربت رشيد على كتف العريس مباركا إياه كتلميح له بالخروج فخرجا. وشوشتُ لأمي بأني أريد الذهاب إلى غرفتي، وردت علي بقرصة على فخذي بأن أبقى.

ساد الصمت وأرادت أمي أن تملأ الفراغ بشيء:

- حدثينا عنكم "الحاجة مليكة". كم من الأبناء لديك وماذا يفعلون؟ وأين هو زوجك على فكرة؟

- زوجي مات منذ سنوات بعد مرض طويل، أما الأبناء فلدي سبعة؛ أربعة أولاد وثلاث بنات. ابني الأكبر اسمه عبد الله ويعيش في فرنسا، تأتي بعده فريدة وهي متزوجة في البليدة، ثم فاتح صديق ابنك، أعني الذي جاء معنا وبقي في الفناء وهو إمام مسجد، ثم رقية وهي متزوجة في سيدي بلعباس، ثم ناصر، العريس، وهو موظف إداري في مديرية الضرائب، وبعده تأتي حفيظة الجالسة على يميني وهي عزباء، أما ابني الأصغر فاسمه رياض وهو تلميذ في الثانوية، والجالسة على يساري هي حميدة زوجة فاتح.

كررت أمي عبارة "ما شاء الله"، قبل أن تسألها هي الأخرى:

- وماذا عنكم؟

وقبل أن تبدأ أمي بتقديم بطاقة تعريفية لعائلتنا قمت من مكاني قاصدة غرفتي وأنا أدندن في داخلي:

- اسمه ناصر. كم أكره هذا الاسم!

تمت الخطبة دون موافقتي، وتم بيعي أرخص بيع. لا اشترطت شيئا ولا اعترضت على شيء. أما أبي فرأى فيه العريس النموذجي؛ مقبول شكلا، لا يكبرني سوى بخمس سنوات، موظف حكومي، والأهم أنه يبدو هادئا جدا ومؤدبا.

ما إن غادر الخُطّاب البيت، حتى ذهبت إلى الصالون بحثا عن أبي، وقبل أن أقول له بأن هذا العريس لا يهمني، وأني لا أريد الزواج به، سبقني هو بالكلام:

- أظنه عريساً جيدا.

لحظتها دخل رشيد وفؤاد، واستعجل فؤاد مخاطبتي:

- جيد أو غير جيد. هذا هو نصيبك والعرس في الصيف وانتهى الكلام. وقد أوصى ناصر بشيء، وهذه المرة لن تكسري كلمتنا. إنه رجل محترم ومتدين، وقد طلب منك أن تتحجبي بدءا من اليوم. أما العمل فانسيه إلى الأبد فهو موظف وميسور الحال ولا يريد امرأة عاملة.
- أبي أرجوك قل إنك لن توافق على هذا؟
- لكنه لم يحدّثني عن عملك!

تدخل رشيد:

- حدّثنا أنا وفؤاد، ألا يكفي ذلك!

نطق فؤاد من جديد مخاطبا أبي:

- إن لم تزوجها فستجلب لك العار. ما به ناصر؟ إنها لا تستحق رجلا مثله.

دخلت في جدال معهما، وأخبرتهما بأني لن أتخلى عن عملي ولن أتحجب، لكن أبي قاطعني بحدة:

- بالنسبة للعمل سأعطيه له شرطا المرة المقبلة. أما الحجاب فتحجبي وخلصينا من هذا الموضوع الآن، فقد تعبت من مشاكلك!

لم أصدق أن أبي قد نطق بذلك أمامهما! لن يرحماني بعد اليوم بعد أن أعلن أبي موافقته على عريسهما ودعاني للتحجب. أبي الذي يحاول حمايتي من صدامات جديدة قد تكون أعنف مما فات، لا يعلم بأنه قدّمني قربانا لهما!

لحظتها انكسر خاطري أكبر انكسار، كما ينكسر إناء الزجاج الهاوي من الأعالي، وسمعت صوته وهو يتناثر في داخلي قطعة قطعة. لم أضف كلمة واحدة وانسحبت من الصالون مهزومة. لا دموع ولا كلام، دخلت في حالة من السكون، وربما من الجنون..

جميلة في سريرها وأنا في سريري. لن نقول شيئا لبعضنا هذا المساء فنحن في الهوا سوا كما يقال. من حين لآخر تدخل أمي علينا، تتكلم وتتكلم فلا نرد عليها بحرف. المرة الوحيدة التي أنطقتني فيها، كانت عندما قالت:

- تزوجي بهذا أو بغيره، فكل الرجال يتشابهون!

فرددت عليها:

- طارق لا يشبههم أبدا..

قامت وانتفضت غاضبة:

- أما زلت تذكرين اسمه! أنت حقا ستجلبين لنا العار!

في صباح الغد استيقظ فؤاد ورشيد باكرا وبقيا ينتظران خروجي. أبي ذهب إلى دكانه، واليوم على ما يبدو يوم معركة. بدأ فؤاد يذهب ويجيء من الصالون إلى المطبخ وهو متأهب لشيء ما. فهمت الرسالة، فقد أمرني أبي بالتحجب، وإذا لم أنفذ الأمر اليوم فهذه المرة سيحفرون قبري فعلا!

ليس لدي شيء يلبس اسمه حجاب. ارتديت كالعادة سروالا ومعطفا ربيعيا طويلا إلى الركبتين، وكنت سألف الشال على رقبتي كالعادة أيضا لأن الجو بارد في الصباح. تذكرت وصية طارق بأن أحافظ على هدوئي وحياتي، فنزعت الشال من رقبتي ولفيته على رأسي. لقد تحجبت!! بحثت في أغراض جميلة عن شيء أمسكه به كما تفعل هي، وعندما رأتني نطقت من فراشها:

- لا أصدق أنهم هزموك. حسبتك لا تهزمين!

أيقظت فيّ جراحي التي كنت أحاول نسيانها. لم أرد عليها بحرف، وخرجت من الغرفة ماشية على مهل، ورشيد وفؤاد يتأملاني بنشوة المنتصر.

- الله الله ما أجملك بالحجاب!

قالت أمي، وخديجة تطل من غرفتها بابتسامة خبيثة. لم أعلق ولم أرد على أحد. خرجت من البيت دافعة باب الفناء بكل قوتي، وانهمرت دموعي المحبوسة منذ الأمس.

وصلت إلى المدرسة وأنا لا أزال أبكي. تلاميذي فاجأهم خماري وسمعتهم يوشوشون:

- آنستي لبست الحجاب! آنستي تحجبت!

أجل لقد تحجبت. فعلت ذلك حفاظا على حياتي لأني لو خرجت بدون خمار هذا الصباح لكسّرا أضلعي، خاصة وأن أبي ليس بالبيت وقد أمرني بذلك هو أيضا.

لن يمشط الريح شعري بعد اليوم، ولن تصبغه أشعة الشمس باللون الذهبي، ولن ينسدل على وجهي، ولن يرفعه أحد.. لولا أني

عرفت رجلا كطارق، لفكرت حقا أن كل الرجال يتشابهون كما قالت أمي، ولعاديتهم إلى الأبد!!

لم أرِد فعل أي شيء تحضيرا لهذا الزواج أملا بأن الله سيبطله. ما خلقت إلا لأكون لطارق، هذا ما يقوله لي حدسي وأنا أثق به لأنه أقوى حواسي.

في نهاية الأسبوع الأول من شهر جوان، وفي طريق عودتي إلى البيت، نزلت في موقف الحافلات، وكنت سأصعد التلة عندما توقفت حافلة أخرى قادمة من الاتجاه المعاكس، ونزلت منها سعاد. مشيت بضع خطوات وسارت هي ورائي، وكانت ستتجاوزني لحظة التفتّ إليها وفاجأتها بخماري:

- هذه أنت! أتحجبت! لا لا، أنت لست صديقتي، هذا مستحيل!

عانقتها وأنا أبكي ثم سرنا ببطء واختصرت لها ما حدث، وطلبت منها أن تعلم طارق باستعدادي لأي شيء لإنقاذ حبنا. نبّهتني أن هذه الفترة فترة امتحانات والأفضل ألا تخبره حتى ينهيها، لأنه كان مضطربا جدا في الامتحانات الماضية.

بقيت أترقب الأيام والصيف اللعين قادم على عجل. بعد ثلاثة أسابيع توقفت الدروس، وودعت تلاميذي وودعوني في حفلة نهاية السنة التي أمطروني فيها بالرسائل والأزهار البرية والقبلات. كانوا يودعونني كالكبار؛ قبلة على الخد الأيمن، وقبلة على الخد الأيسر، لكني كنت أفتح ذراعيّ وأقول لهم: ضموني ضموني.. حضنت كل واحد منهم عند الباب وهم يغادرون، وعندما وصل دور أمين ضمّني بقوة وقال بكل بهجة:

- عطلة سعيدة آنستي.

كنت أعرف مسبقا أنها لن تكون عطلة سعيدة، لذا اعتراني حزن عميق، ورغم ذلك ابتسمت له ومسحت على وجنتيه المحمرتين:

- أنا سعيدة يا أمين، وكذلك أريدك أن تكون أيضا.

بعد مغادرة جميع التلاميذ القسم بقيت ساعة بمكتبي أقرأ رسائلهم، وعندما وصلت إلى رسالة أمين بكيت بكل حرقة:

« معلمتي العزيزة

لقد جعلتني أبتسم لكنك دائما حزينة

كوني سعيدة أنت أيضا

أحبك كثيرا »

انتهت الرسالة برسم لقلبين صغيرين.

الأطفال يشعرون بآلام الكبار، وتلاميذي بلا شك لاحظوا كم كنت متعبة وحزينة مؤخرا. وحده أمين حدّثني عن ذلك، لأنه طفل يعرف الحزن جيدا حتى وهو صغير. كم سأشتاق إلى تلاميذي..

قبل بداية عطلة الصيف بأسبوعين، أخبر فؤاد أبي بأن العرس سيكون في أول أسبوع من شهر أوت، وأنا مازالت أنتظر حدوث معجزة، وأمي تلحّ عليَّ:

- حضّري نفسك يا بنت، واشتري لك بعض الثياب الجديدة.

وجميلة ترد عليها:

- لا داعي يا أمي، فكل ما اشتريته من أجل عزيز لن ألبسه أبدا، ولتأخذه فاطمة الزهراء.

كانت جميلة عائدة من بيت صديقتها هدى، التي تزورها من حين لآخر لتسترجع معها ذكريات حبيبها، وقد التقت بسعاد في الطريق، وأخبرتها أنها تريد رؤيتي عاجلا.

عرضت على جميلة مرافقتي، على أن ندّعي بأننا سنذهب إلى بيت عمي، لأن إحدى بناته خياطة ماهرة وأنا بحاجة إليها، وفي طريقنا سنمر على سعاد. وافقت ولم يكن أحد ليعترض على ذهابي للخياطة استعدادا للعرس. مررنا ببيت سعاد أوّلا وقادتنا نحو غرفتها. لم تشأ في البداية أن تتكلم، وأشرت لها أن جميلة تعلم بالأمر.

- طارق وجد حلّا لكن إياك أن تترددي. تعلمين أن لديه جدّة في تلمسان، لقد حدّثها عنك وهي مستعدة لاستقبالكما مدى الحياة كضيفين أو كزوجين. هو سيواصل الدراسة في جامعة تلمسان وأنت ستعملين هناك أيضا. قولي لأهلك أنك بحاجة لبعض المشتريات من المدينة ولا تأخذي معك شيئا عدا وثائقك كبطاقة تعريفك وشهادتك وما تعلق بالعمل. اقصدي محطة الحافلات في بومرداس حيث سينتظرك طارق لتذهبا إلى العاصمة، وهناك ستغيران الحافلة للذهاب إلى وهران ومن بعدها إلى تلمسان. ستعيشان مع جدته فهي وحيدة في بيت كبير. لن يعرف أحد أين ذهبت ولن يأتوا للبحث عنك. أفهمت!

لم أستوعب تماما الخطة لكنه حل سهل وسريع، ولا أظن أنه من الصعب علي تنفيذه عمليا. سبقتني جميلة بالكلام:

- ستقتلين أبي وأمي، أما فؤاد ورشيد فلن يرتاحا حتى يشربا من دمك! لكن الحب يستحق المغامرة.

أسكتتها سعاد بإشارة من يدها وأكملت:

- الموعد يوم الأحد صباحا على الساعة الحادية عشرة. ستجدينني في المدينة وسأرافقك إلى المحطة إذا شئت. سيتظاهر طارق بأنه لا يعرفك حتى لا يثير الشبهات، وسيصعد الحافلة بعدك وسيجلس بعيدا عنك، وعندما تصلان إلى العاصمة وتبتعدان عن الحافلة سيأتي إليك.
- أهرب معه! ألن تجدني الشرطة؟
- البلاد خربانة، والإرهاب في كل مكان، وأنت تعتقدين أن الشرطة لديها الوقت لتبحث عنك! إن وجدوك قولي لهم هربت من الإرهابيين، أليس هذا صحيحا في النهاية! ثم ألا تعرفين أين توجد تلمسان؟ إنها على الحدود مع المغرب، لن يصل إليك أحد من بومرداس.

خرجنا من بيت سعاد ومررنا على عجل على بيت عمي، وعدنا إلى المنزل سريعا. أغلقت جميلة باب الغرفة وجلست تفكر معي. للحظة خلتها ستفضحني أمام الجميع لأنها تنطق تماما بما يقوله لي عقلي وضميري. تأملتني لبرهة وقالت:

- لا تترددي فهذه فرصتك، الحياة تعاش مرة واحدة فقط.

لم أستوعبها وتمتمتُ لها:

- ماذا عن أبي وأمي؟
- لستِ الهاربة الوحيدة من بيت أهلها في الجزائر، لو يعود عزيز إلى الحياة ويسألني هكذا شيء لن أتردد لحظة واحدة.

كنت أعرفها عاشقة كبيرة لكني لم أعرفها مغامرة كبيرة أيضا. ظل باب غرفتنا مغلقا، وحديثنا خافتا، وكلما مرت أمي فتحته معلقة:

- أتخططان لقنبلة!

كانت كلمة قنبلة من المفردات التي أصبحت كثيرة التداول في لغتنا منذ ظهور الإرهاب!

لم أذق طعم النوم في تلك الليالي الحالكات. وقبل يومين أو ثلاثة على موعد هروبي، جاء ناصر وفاتح ومعهما مبلغ من المال؛ مصاريف العرس، ومهر رمزي لي، وقبل أن يقبض أبي شيئا منهما خاطب ناصر:

- ابنتي عاملة وستظل كذلك. هذا شرطي الوحيد، وإذا لم تقبل به فخذ مالك واعتبر كل شيء قد انتهى.

تدخل فاتح:

- ليس في عائلتنا امرأة عاملة. نحن نعمل وهذا يكفي.

قاطعه ناصر:

- كما تريد عمي صالح، ستظل عاملة.

أقفلا الموضوع أمام أبي لكنهما سيتناوشان من أجله طوال طريق العودة، فرأي فاتح هو أيضا رأي أمه.

جاء أبي يبشرني أنه اشترط على ناصر أن أظل عاملة بعد زواجي وقد وافق على ذلك. تأثرت جدا لحماسه نقل هذا الخبر إلي، لأنه ما كان ليرضى أبدا أن يراني تعيسة. فكرت فيه وفيما سيحصل له لو هربت، ولم أتحمل تصور المشهد.

أخبرت أمي بأني ذاهبة غدا إلى المدينة لشراء بعض الملابس. لم تعترض لكنها عرضت علي أن ترافقني جميلة، لكن جميلة لن تفعل ذلك حتى لا تحاسب لاحقا على هروبي.

وعدتُ أمي بـأني سأعود قبل الظهر، وبقيت طوال الليل أفكر، وجميلة تردد علي:

- اهربي اهربي مع محبوبك قبل فوات الأوان.

نامت وهي توصيني بألا أغادر صباحا قبل أن أودعها. أطفأت النور، وفي الظلام الدامس استنرت بنار قلبي المشتعل..

في الصباح وجدت جميلة مستيقظة قبلي، وقالت لي بنبرة استهزاء:

- أيتها الهاربة من قدرها، أيهرب الناس بعد طلوع الشمس!

هي لا تعرف أني لم أنم سوى ساعة أو ساعتين قبل طلوع الشمس. بقيت صامتة وعندما أتممت تحضير نفسي قفزت من سريرها وعانقتني وهي توصيني:

- اعتني بنفسك وإياك أن تفكري في العودة.

شربت القهوة مع أبي وقد علم من أمي أني ذاهبة للتسوق، فحضّر لي مبلغا من المال:

- خذي لتجهزي نفسك.
- أبي، ولكني عاملة ولدي راتب، وهو يكفيني.
- نعم ولكن هذا من حقك. هذا كل ما أملك حاليا، احتفظي به ستحتاجينه.

قبّلته على رأسه وسألت الله بأن يطيل في عمره حينها أضاف:

- أتمنى أن تسعدي بهذا الزواج، إنه أفضل لك من البقاء هنا.

لم أتمالك نفسي وفاضت دموعي أمامه.

خرجت من البيت عند التاسعة صباحا، وعوض أن أقصد موقف الحافلات، قصدت بيت سعاد. دققت على الباب دقا خفيفا وفتحت لي أمها:

- صباح الخير ابنتي. أستخرجين مع سعاد؟ إنها لا تزال نائمة.
- أيقظيها رجاءً فنحن متأخرتان وقد وعدتني بالمرافقة لاختيار بعض الفساتين.

بقيت في فناء الدار حتى جاءت سعاد:

- ماذا تفعلين هنا يا مجنونة؟ لِمَ جئت؟ ستثيرين الشبهات حولي!
- أسرعي أريد أن أكلمك.

لبست سعاد أقرب ما وجدت من ملابسها، وارتشفت نصف فنجان قهوة، وفي طريقنا إلى الموقف لامتني ووبّختني لأننا اتفقنا على اللقاء في المدينة وليس في بيتها، ففؤاد ورشيد يعرفان أنها وسيطي مع طارق وهما يعتبرانها رفيقة سوء، وإذا اختفيت سيضغطان عليها وعلى عائلتها لتدلهم على مكاني، وسيسببان لها مشاكل كبيرة، رغم أن إخوانها ليسوا سلفيين لكنهم كمعظم الإخوة الجزائريين غيورون جدا ومتنرفزون.

ولما وقفنا ننتظر الحافلة قلت لها:

- لن أهرب معه..
- ماذا؟!
- سيموت أبي وأمي قهرا إن فعلت.
- أنت من سيموت قهرا إن لم تفعلي!

دخلنا في جدال وذكّرتني بكل ما عشته من مآسٍ، وما يحتمل أن أعيشه مع رجل لا أعرفه ولا أحبه، وكيف سأخسر حبا كبيرا ورجلا رائعا كطارق.

- أنا أعرف فؤاد جيدا. إن لم يكن إرهابيا فهو مشروع إرهابي. سيقتلني إن وجدني، وسيموت والديّ قهرا وعارا.
- أووه منك كم أنت متشائمة! لماذا خرجت إن كنت لا تنوين الهروب؟
- خرجت لأتنفس الهواء لأني أشعر بالاختناق.

رفضت الذهاب مع سعاد إلى محطة الحافلات حيث ينتظرني طارق لتعلمه بقراري. أنا خجلة منه ولا يمكنني مقابلته. تفكيري منطقي وعقلاني، ولو أني فكرت بقلبي قليلا لكنت هربت معه. لكني لم أكن أعي بعد أن عين الحكمة هي أن تسمع صوت القلب لا صوت العقل!

ذهبت سعاد وحدها وهي تلومني وتتأسف لجبني. كيف ستخبر طارق الآن أني رفضت عرضه، وأني فضلت الزواج من رجل آخر على أن أجرح مشاعر والديّ وأعرّضهما لشرّ كلام الناس!

مشيت في الشوارع بلا هدف، ومررت بعدة أماكن لأول مرة. كنت قريبة من البحر وفكرت للحظة أن أذهب إليه، لكني كالعادة خائفة. فماذا لو التقيت بفؤاد، أو رآني أحد من أبناء الجيران؟ ماذا لو، ماذا لو.. قتلتني الاحتمالات البائسة!

عند الواحدة زوالا وصلت إلى البيت. كانت أمي في الفناء مع أولاد رشيد، لمحت يديَّ فارغتين وسألتني: أين هي مشترياتك؟ لم أرد عليها ودخلت إلى غرفتي. رأتني جميلة من المطبخ وجاءت إلي مسرعة:

- لماذا عدت؟ ماذا حدث تكلمي؟!
- لم أتجرأ!
- ماذا! يا لك من جبانة! مرّ كل شيء بخير ولم ينتبه أحد لشيء، ضيعت فرصة لن تتكرر!

دخلت في حالة صمت وسكون، وبعد ساعة وقفت سعاد بجانب سريري:

- لقد جرحته وخيّبتِ ظنه وظني أيضا، حسبك تحبينه بصدق. إنه مقهور ومكسور بسبب موقفك هذا.

بقيت صامتة أهزّ نفسي ذهابا وإيابا، ونصف الوسادة بين يديّ، والنصف الآخر على فمي.

- الآن وقد اخترتِ تحملي تبعات خيارك. لقد جاء بعدما خطط لكل شيء حتى لا يصيبك الأذى من أيّ كان. أتظنين أن ناصر سيحبك أكثر منه؟ أم أن والديك سيظلان دائما هنا من أجلك؟ إني حقا لا أستوعب كيف استسلمت في اللحظة الأخيرة. كنتِ على بعد خطوة منه، على بعد لحظة فقط.

قالت لي سعاد كل الكلام الذي كنت سأسمعه لو سمعت صوت قلبي، ثم غادرت.

آه كم أحبك يا طارق لكني لا أعرف كيف أقول ذلك، فكلمة أحبك لا تكفي ولا تشفي..

كنت نحيلة وازداد نحولي. الجلد فقط يلم العظام وإلا تناثرت على الأرض. لا أكل، لا نوم، لا كلام، ولا وعي بشيء. الأيام تجري والعرس يقترب.

في المساء، قفزت من سريري فجأة وقصدت أبي في غرفته. كان يصلي العشاء وما إن سلّم حتى وجدني وراءه منهارة تماما:

- أقسم عليك أبي، أقسم عليك، خلصني من عذابي.. افسخ هذه الخطوبة. قل لهم أني لا أريد الزواج. سأموت إن تزوجت هذا الرجل سأموت!

في الحقيقة ذهبت عند أبي بحثا عن رضاه، فقد كنت على وشك فعل شيء لن يرضاه أبدا. سمعني الجميع وتدفقوا إلى غرفته. لم يكن فؤاد ورشيد بالبيت وإلا حدثت الكارثة، لكن خديجة ستوصل الخبر لزوجها سريعا جدا.

- أوووه منك يا فاطمة الزهراء!! متى سأرتاح من مشاكلك. أتظنيننا نلعب! ستتزوجين ناصر، وموتي إن شئت أن تموتي!

في اليوم الموالي أصبحت على أسوأ حال. فقدت كل قواي وانتابتني حالة من الهستيريا. قلبي يعذبني لأني لم أهرب مع طارق ويقول بأني ضيعت سعادتي للأبد، وعقلي يقول بأني فعلت الصواب. لم أعرف لأيٍّ منهما أستمع وتمنيت لو يسكتان معا! عندما جاء فؤاد أعلمه رشيد بإصراري على رفض الزواج وإعلاني العصيان. تعالت أصوات التهديد في البيت وقد اتفقوا جميعا على تقرير مصيري.

بعد أيام أصبح ضروريا أن يراني الطبيب لأني لم أعد قادرة على الوقوف. ولأن أبي مشغول بدكانه كلّف أمي بمرافقتي، لكنها مشغولة أيضا بتحضيرات العرس، لذا سترافقني أختي.

ساعدتني جميلة في ارتداء ملابسي ولفّت الشال على رأسي وخرجنا. عندما توقفت الحافلة في مدخل المدينة نزلت منها تاركة إياها ورائي تناديني مستغربة:

- عودي فالطبيب بعد عدة محطات أخرى!

مشيت ولم أجبها. تبعتني حائرة تتساءل:

- ماذا يوجد هنا؟ هل تقصدينِ البحر أم ماذا؟

صامتة سرت نحو تلك البناية التي يسكن فيها طارق، فقد أخبرتني سعاد أنه لم يسافر يومذاك. ربما هو هنا، أريد أن أراه وأخبره كم أحبه، وأني لن أتزوج أحدا سواه.

في أسفل البناية يوجد محل هاتف عمومي يعمل فيه شاب يعرف طارق، فقد ذكره مرة وأخبرني أنه صديقه المقرب. دخلنا وأنا لا أقوى على الوقوف وجميلة تمسكني من ذراعي:

- أأنتَ صديق طارق؟

تأملني وتردد في الجواب:

- من طارق؟ الذي يسكن فوق؟
- أجل. أحتاجه لشيء ضروري، هلّا ناديته إن كان في البيت رجاءً.
- لقد مرّ من هنا منذ ساعة، وقال إنه ذاهب إلى البحر ليتمشى. هل أنت بخير؟ أتريدين الجلوس؟

لم تستوعب جميلة حجم تهوري وأنا في تلك الحالة من الضعف. ولأن صديق طارق يعرف قصتنا وحجم معاناتنا، نادى على شقيقه الذي كان بالمقهى المجاور، وطلب منه أن يبقى في مكانه ريثما يعود، وعرض علينا أن يرافقنا ليرينا المكان الذي يجلس فيه طارق عادة، فهو لم يذهب للسباحة بل ذهب ليشم الهواء فقط في مكانه المفضل عند الصخرة السوداء.

الصخرة السوداء على بعد كيلومتر واحد أو أقل ولكني لا أستطيع المشي، فأنا لم أذق طعم النوم والأكل منذ أيام. هويت، وأوقفاني من جديد، جميلة تصر عليّ أن نعود، والشاب قلق على حالي:

- أنت لست بخير أختي، عودي إلى المحل وسأبحث عن طارق وأحضره.

- لا لا، أنا أيضا أريد الجلوس قرب البحر.

رغم أنني أسكن في مدينة ساحلية، إلا أني لم أذهب إلى البحر سوى مرات قليلة مع أبي عندما كنت صغيرة، ومنذ أن كبر أخواي حرّماه علينا. لا أدري من أين جاءت فكرة تأثيم الذهاب إلى البحر، لكني فهمت أن أعداء الله هم أيضا أعداء الكون، فحيثما يكون الجمال يزعجهم، لأنه يذكرهم بقبحهم الشديد!

هويت مرة أخرى بعدما أصابني الدوار، وعندما اقتربنا من الصخرة نادى الشاب بأعلى صوته:

- طارق، يا طارق..

كان جالسا مع الشيخ طاهر، ولحظة أبصرته عيناي هويت مرة ثالثة.

أفقت وأنا ممددة على الرمل، وعلى جانبي جميلة تبكي، وطارق يحمل رأسي مناديا:

- زهرة.. يا زهرة.. هيا أفيقي..

بسعادة أفقت على يده المرتعشة وهي تمسح وجهي، ومربط شعري في معصمه. أجلسوني وأشربوني بعض الماء والموج يرمي ببعض قطراته علي.

دعوها تتنفس! قال لهم الشيخ طاهر، وجميلة في منتهى الخوف. إنه شهر جويلية وبعض المصطافين الذين يتحدون الإرهاب بدأوا في الوصول، وقد يمر علينا أحد من العائلة أو الجيران، ومن يدري ربما جاء فؤاد بحد ذاته.

- يا مجنونة لِمَ فعلت هذا بنفسك؟ أستموتين من أجلهم!
- بل من أجلك أنت أموت. لو لم أرك اليوم لمت فعلا. جئت لأقول لك أني أحبك، وأني أريد الذهاب معك.
- آه يا عمري.. إياك أن تموتي أسمعتِ؟ لقد اتصلت بخالي الكبير، وهو رجل ذو وقار وسيصل بعد يومين، وسآتي لخطبتك مرة أخرى عسى يغيّر أبوك رأيه.

بالكاد سمعت ما قال ودخت من جديد. لم يعرفوا ماذا يفعلون بي وجميلة منهارة الأعصاب. جرى صديقه نحو الطريق وأوقف تاكسي، وأخذوني إلى المستشفى تاركين الشيخ طاهر على الرصيف يدعو لي بالسلامة.

في الاستعجالات حقنوني بالسيروم، وبقي طارق وجميلة عند رأسي ينتظران. طلبت من جميلة أن تعود إلى المنزل لأني سأغادر حالا مع طارق إلى تلمسان. لم ترد علي ولم يقل طارق شيئا. إن سافرت اليوم فسأموت في الطريق، ثم إن فؤاد ورشيد سيعذبان جميلة طويلا لأنها سمحت لي بالفرار.

قال الطبيب بأني أعاني من إرهاق مزمن وليس لي دواء سوى الأكل والنوم، والابتعاد عن مسببات القلق! لا يعرف الطبيب أن وصفته أندر وأغلى الوصفات على الإطلاق!!

الساعة الثانية بعد الظهر، وبالتأكيد بدأوا يقلقون علينا في البيت. إذا دخل فؤاد ولم يجدنا فسيأتي للبحث عنا.

ناداني طارق:

- زهرة.. يا زهرة..

بقيت مغمضة العينين ولم أجبه.

- يا زهرتي الغالية.. يجب أن تعودي إلى البيت فأنت مريضة ومنهكة. أقسم عليك إن كنت تحبينني لا تقتلي نفسك هكذا. نامي وكلي جيدا وارتاحي لتسترجعي طاقتك، ثم سنرى ماذا سنفعل.

بعد أن كلمني ولم يلق جوابا، خاطب جميلة قائلا:

- جميلة لن أوصيك عليها. فقدتِ حبيبك وتعرفين ماذا يعني فقدان الحبيب. اعتني بها وأرغميها على الأكل.

بعد انتهاء محلول السيروم أسنداني على كتفيهما، وجاءنا صديقه بالتاكسي مرة أخرى. أجلسني طارق في المقعد الخلفي، وقبّلني على جبيني، ثم همس لي:

- كوني قوية، سنلتقي مرة أخرى بالتأكيد، وسنكون لبعضنا مهما حدث.

انطلقت السيارة، وهو بقي واقفا في مكانه بلا حراك.

عندما وصلنا إلى البيت كانت الساعة الرابعة، وأمي جد قلقة وخائفة. خائفة مني، أو علي، أو الاثنين معا، لست أدري.. فؤاد ينتظر

تفسيرا، وجميلة حملتني إلى الغرفة وحاولت لفت انتباههم إلى حالتي الصحية لا إلى تأخري بقولها:

- لقد كادت أن تموت اليوم، ومنذ الصباح وهي في الاستعجالات!

في الحال أحضرت لي شيئا آكله، وأرغمتني وهي تقول بصوت خافت:

- لقد أوصاني عليك، فكلي إن كنت تريدين ملاقاته من جديد.

أكلت قليلا وغرقت في نوم عميق بعد أن ارتاح بالي لرؤيته، فلو افترقنا وبقي معتقدا أني تخليت عنه، لمت قهرا مدى حياتي.

بعد يومين جاء طارق وخاله، وقصدا أبي في الدكان حتى لا يتصادما مع فؤاد، وترجياه أن يفسخ خطوبتي من ناصر، على أن يخطبني طارق ويعوّض له جميع المصاريف، لكن أبي ردّ عليهما بغضب رافضا الطلب:

- لقد زوجتها لرجل آخر والعرس بعد أسبوع. إن كنت حقا تحبها فدع العرس يمر بسلام، فقد سببت لنا ما يكفي من المشاكل لحد الآن!

جاء عليٌّ من الدكان بعدما أحضر شيئا لأمي، وسمعته يقول لها أن طارق ورجلا آخر كانا هناك، وقد طردهما أبي وغادرا. في الظهر عندما جاء أبي لم يقل شيئا، ولم يخبر أحدا بعودة طارق، ولن تفعل أمي ذلك أيضا ولا علي تفاديا للكارثة.

غضبت جدا عندما أدركت أن أبي الذي من أجله تراجعت عن الهروب مع حبيبي، لم يكن يملك ما يكفي من الشجاعة ليعلن انتصار

الحب على الإرهاب، ويفسخ خطبتي من رجل ليزوجني بآخر. ربما كان هو أيضا منطقيا وعقلانيا مثلي!

في ذلك المساء لم أذهب إليه لأستفسر عن الأمر أو أتوسل إليه. تحاشيت لقاءه وقد فهم أنه جرحني في الأعماق.

جاء موكب الحنة أمسية الأربعاء، وموكب الزفاف سيأتي غدا الخميس. ولأن البليدة مدينة بعيدة، والحواجز المزيفة تصطاد السيارات والمسافرين اصطيادا، أرسلوا فقط سيارتين في الموكب، ثلاثة رجال وخمس نساء: أخته حفيظة وبعض العجائز.

كدمية، حمموني، وألبسوني، ومشطوا شعري. طبعا لن تكون هناك موسيقى فهذا حرام حسب الفتوى التي أفسدت على الجزائريين كل الأعراس والأفراح، وقد أشرتُ إلى النساء من أهلي أني لا أريد أية زغاريد، بحجة أن جرح جميلة لا يزال جديدا. عرس وأي عرس عندما يكون الحزن هو العريس.

لم تفارقني سعاد لحظة وهي ترتب شعري ومكياجي، وقد أدرك كل من رآني أني لست بخير. بعد العشاء جاءت أخته بالحنة والحقيبة التي يفترض أن يكون فيها فستان الزفاف. وكمن أصابه الصمم كنت أرى الناس حولي يتحركون لكني لا أسمعهم. مدحوني قليلا بذلك المديح الذبّاح الذي يخنق العرائس خنقا، وأنا التي سمعت كل أنواع السب والشتم في حياتي!

وضعن الحنة في يدي، والزغاريد تعلو من أفواه نساء أهل العريس فقط. فتحت حفيظة الحقيبة وبدأت تفرغ محتوياتها في حجري: ملابس داخلية، قارورة عطر، صابون وجه، حقيبة يد، حذاء أسود بكعب

قصير، فستان طويل بأكمام، علبة ماكياج ضخمة من عدة طوابق، وجلباب!

كمن يصعقني بضربة كهرباء عالية التوتر، استفقت وعدت لوعيي غير مصدقة أنها قالت:

- وهذا جلبابها!

سألتها سعاد:

- وأين الفستان الأبيض؟

أجابتها بتحد:

- وأي فستان أبيض؟ ستزف بالجلباب!

لم أستوعب الفكرة، وانتفضت من مكاني، فسقط ما في حجري:

- جلباب! هل سأزف بجلباب أسود!

تركتُ جميلة ونصيرة تتناوشان مع حفيظة في الصالون، وذهبت إلى غرفتي وأنا أغلي كبركان. الوقت متأخر والمحلات مغلقة، لكن سعاد أكدت لي أنها ستأتيني بفستان أبيض بأية طريقة قبل وصول موكب الزفاف غدا. وفي الصباح الباكر ذهبت إلى المدينة، وعادت بفستان فرح أبيض، وألبستني إياه وأنا أرتجف من الخوف.

بعد وصول الموكب، ودخول النساء إلى المنزل، أخبرت حفيظة أختها فريدة وزوجة أخيها حميدة، أني أنوي الخروج من بيت أهلي بفستان أبيض. جئن إلى غرفتي وقالت حميدة:

- اسمعيني جيدا.. ستزفين إلى بيت زوجك بالجلباب والنقاب كما فعلت أنا. أنت ذاهبة إلى بيت إمام، أم أنك نسيت ذلك؟!

رفضت خلع الفستان واحتدم الشجار. حفيظة وفريدة وحميدة من جهة، ومن جهة أخرى جميلة ونصيرة وسعاد. لم ينتبه الرجال إلى وجود مشكلة، لكنهم مستعجلون للذهاب. طبعا ناصر لم يأت مع الموكب وبعث بفاتح وأخواته لأخذي!

دخل أبي واستفسر من أمي:

- ألم تجهز بعد؟ إنهم قلقون ويريدون المغادرة فالطريق بعيدة.

لم ترد أمي إخباره بالموضوع، وطلبت منه أن يصبّرهم قليلا.

مرت ساعة والمعركة متواصلة، وقد أدرك الرجال في الخارج أن مشكلة ما قد حدثت بعدما تعالت أصوات النساء في الداخل، وفي النهاية اقتحم فؤاد ورشيد غرفتي ومعهما فاتح الذي تجرأ ودخل بين النساء يستعرض قبحه، وهو الذي لا يرضى أبدا بالاختلاط في بيته!

عندما رأوني بالفستان الأبيض الذي قالت سعاد أني أبدو فيه كالملاك، ولأنهم أعداء الجمال فقد أقسموا جميعا أني لن أخرج إلا بالجلباب! كانت ستحدث جريمة، ففؤاد ثارت ثائرته وهددني بالقتل أمام الجميع.

دخل أبي وعمي عمر:

- وما المشكلة إن لبست فستانا أبيض؟ ماذا تلبس العروس إذًا؟

لم يكن أبي يعرف أن فستان العروس عند السلفيين لونه أسود! وأي فستان! صدمه الاكتشاف لأن هذا لم يكن من تقاليدنا إطلاقا..

خاطبني بما تمنيت أن يقوله:

- فاطمة الزهراء، إن شئتِ أُبطل هذا الزواج حالا. فقط قولي نعم وينتهي كل شيء! هل تريدين أن أطردهم؟!

لم أستطع التفكير، ولم أستوعب أبي، ولا ما كان يحدث حولي. كان عرضه أقصى ما أتمنى، لكن تفاديا لمأساة ما، وفضيحة لن ينساها الناس قلت:

- لا!!!

لم أصدق بأني قلت لا! أيعقل أن نقول لا، حينما نرغب بشدة أن نقول نعم! أهي اللغة التي تخوننا، أم القلب، أم العقل، أم القدر! أحيانا قولنا لا، إنما يعني نعم، ونعم، وألف نعم!

بأسرع ما يمكن قامت حفيظة وحميدة بنزع فستاني الأبيض وأنا أبكي، وألبساني الجلباب والنقاب والسدل والستار ولا أدري ما أسماء تلك القطع التابعة لكفني، وفؤاد يصرخ:

- خذوها، خذوها..

أمسكتني واحدة من اليمين وأخرى من اليسار، وسحبتاني من ذراعيّ نحو باب السيارة، ولم يتسن لي أن أودع أحدا. أخذوني وأنا مجهشة بالبكاء، ولم يزغرد أحد من أهلي عند خروجي، فالجميع يعلم أني أزف إلى قبري. إن بعض أنواع الزواج ليست سوى انتحارٍ..

حينما انطلقت السيارة رأيت أبي عند زاوية الدار واقفا وحده يبكي. تحت النقاب أصبح وجهي لوحة تشكيلية، فبالكحل والدموع يتحول وجه أي امرأة حزينة إلى لوحة تشكيلية.. لم أتوقف عن البكاء والشهيق كأنما ستنقطع أنفاسي، وأنا جالسة بين حفيظة وحميدة اللتين تدكاني دكًا بأردافهما الضخمة.

بعد دقائق قليلة دخلنا مدينة بومرداس، وبدأ الموكب يسير في طريق البحر. سار الموكب ببطء وأطلقوا أبواق السيارات. مررنا

بجنب الصخرة السوداء، ثم البناية التي يسكن فيها طارق. كان هناك ينتظرني، فهو يعرف أن اليوم يوم زفافي. كان عند محل الهاتف العمومي واقفا مع صديقه، وبالتأكيد عرف أن الموكب موكبي من ترقيم السيارات التابعة لولاية البليدة.

تقدم خطوتين ولمحني في سيارة العروس بجلبابي الأسود، وهو على بعد ثلاثة أمتار مني أو أقل. أمسك رأسه وجمد في مكانه، ومربط شعري لا يزال في معصمه. كانت تلك آخر مرة أرى فيها حبيبي.

- كلنا تزوجنا ولم نُغرق الدنيا بالدموع كما تفعلين! إن كنت تحبين أهلك كل هذا الحب فلِم رضيت بالزواج!

قالت حميدة التي تشدني من ذراعي اليمنى. وأضافت لكلامها حفيظة التي تشدني من ذراعي اليسرى، كأنما تخشيان أن أهرب:

- ولماذا لا ترضى؟ أم وجدت أفضل من ناصر؟

صرخ فاتح من مقدمة السيارة:

- اسكتا! لا أريد سماع شيء!

لا أحد يستطيع فهم إحساس المرأة لحظة تغادر بيت أهلها وهي عروس، حتى وإن كان ذلك بفرحة وعن حب، فماذا إذا غادرته مثلي!

في وسط الطريق انقطع صوتي، وهم لا علم لهم إن دخت أو متّ أو تحولت إلى كائن فضائي! فبدون وجه تصبح بلا هوية، وبلا إنسانية أيضا..

عندما وصلنا إلى البليدة حوصرت من كل الجهات وتم إنزالي من السيارة بعنف، ولاح لي حذائي الأبيض ذي الكعب العالي الذي لم

ينتبهن لتغييره في بيتنا. لم يأت ناصر لإدخالي إلى البيت فأخواته لعبن جميع الأدوار. أجلسنني على كرسي خشبي في غرفة تعج بالأطفال والنساء، وكل العيون تتفحصني بفضول لرؤية وجهي المخفي وراء النقاب.

سمعت إحداهن تعلق ضاحكة مستهزئة:

- عروس بجلباب أسود وحذاء أبيض!!

فردت عليها أخرى:

- أوه.. هذه موضة جديدة بالتأكيد!

تعالت الضحكات، وسارت النكتة بين النساء. وكلما دخلت إلى الغرفة امرأة جديدة وشوشن لها:

- انظري انظري.. جلباب أسود بحذاء أبيض! إنها موضة الأبيض والأسود!

بعد ساعة جاءت أخته رقية ورفعت النقاب عن وجهي ثم أسدلته وأخذتني إلى غرفتي:

- إذا رأتك النسوة هكذا سنبقى أضحوكة بين الناس. انظري إلى وجهك..

مسحتْ وجهي ورتبت شعري، وخلعت جلبابي وألبستني فستانا طويلا بأكمام، ثم لفّت الخمار على رأسي. بدت لي أحن وألطف من الأخريات.

عدت إلى غرفة الضيوف وبقيت طوال النهار كالتمثال لا صوت ولا حراك. سمعت التعليقات، ونكتة هذا الصباح ما زالت تضحك بعض النسوة.

في المساء لم أستطع الوقوف لأن ركبتيّ ترتجفان، وبقيت جالسة على طرف السرير وألم الخوف يعصرني من الداخل.

سعل، دخل، دار، جلس، نظر إلي، نهض، غيّر ملابسه، عاد، اقترب، اقترب أكثر، أطفأ النور، عرّاني، اعتلاني، أغلق فمي، اغتالني!!!

عند الفجر أفقت من غيبوبتي على صوت زغاريد مزقت طبلة أذني. صوت أقوى من دوي المدافع. هجمن كالقوات العسكرية المدربة على غرفتي. نفضن السرير نفضا وتحققن من الأدلة والبصمات: هذا دم.. نعم إنه دم.. إنها عذراء!!

في هذا الوقت لا يزال طارق مرميا على شاطئ البحر، فبعدما مرّ الموكب أمامه انطلق جاريا بلا هدف نحو البحر، وركض إلى أن انقطعت أنفاسه. مرّ على الصخرة السوداء وخطف من الشيخ طاهر قارورة البيرة التي كانت معه، وواصل الركض ولم يرد على الشيخ الذي بقي يناديه ويترجّاه أن يعود.

بعدما أنهكه التعب، رمى بنفسه على الرمل وبقي لساعات في فراغ ذهني وعاطفي لا يحتملان. لم يستطع أن يبرح مكانه، وفي الليل فرغ له البحر وحده، وصرخ صرخة عظيمة، ثم هوى على الأرض. بعد منتصف الليل كانت دوريات الشرطة تتفقد الشوارع وحظر التجول قد بدأ منذ الساعة العاشرة مساءً، وقد لاح لهم من بعيد. لم يستفق إلا وهم عند رأسه مصوبين أسلحتهم نحوه:

- من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟
- ماذا هناك؟ ماذا فعلت؟ ألا يكفي ما حدث معي؟ ألا يكفي أن محبوبتي قد زوجوها لغيري؟ لماذا لا تتدخلون لإنصاف الحب؟

اذهبوا للقبض على الإرهابيين الذين يقتلون الناس عوض أن تطاردوا العشاق!

لم يكن واعيا تماما لما يقول، وعندما عرفوا أنه معطوب حب تركوه في حاله، وغادروا وهم يضحكون من تعليق أحدهم:

- من لم يجنّنه الإرهاب في هذه البلاد جنّنه العشق!

هي اليوم مجرد نكتة، لكن قريبا ستصبح حقيقة مفزعة. ففي السنوات اللاحقة تزايد عدد المجانين في الجزائر بشكل رهيب. إنهم ضحايا الإرهاب على أشكاله، إرهاب السلاح وإرهاب العواطف..

ضممت وسادتي وبقيت أتذكر مشهد طارق وهو واقف على الرصيف. لا شك أنه عاش ليلة رعب مثلي، ثم تذكرت موقف أبي بالأمس، ونكتة "عروس بجلباب أسود وحذاء أبيض"، وحاولت تصور شكل حياتي ابتداءً من اليوم.

في الأيام الموالية بدأت أتعرف على موقعي في خريطة العالم. نحن في حي شعبي بمدينة البليدة، في الطابق الأول من عمارة متآكلة. شقة صغيرة من غرفتين ومطبخ وصالون. غرفة لفاتح وزوجته وأولاده. غرفة لي أنا وناصر. أما الحاجة مليكة فتنام في الصالون مع حفيظة ورياض الذي يضطر للنوم في الرواق عندما يعج البيت ببناتها وأحفادها.

لم أكن أعرف البليدة قبلًا، لكن في ذهني صورة جميلة عنها، لأني سمعت مرارا أنها مدينة الورود فحسبتها كذلك. وأنا أختلس النظر من النافذة لم أر سوى القمامات المتناثرة هنا وهناك أسفل العمارات،

والنساء العابرات بجلابيبهن لا يشبهن الورد في شيء. أنا الهاربة من مدينة الإرهاب إلى مدينة الورود، وإذا بي في مدينة أكثر إرهابا!

وكما جرت العادات والتقاليد، سأزور بيت أهلي في اليوم السابع من زواجي لأبيت عندهم ليلة واحدة وأعود. لكن الطريق بعيدة وناصر لا يريدني أن أبيت هناك. ذهبنا صامتين بسيارة فاتح التي تصدر كل أنواع الدربكة.

سلّمت على أهلي كما لو كانوا غرباء، وبقيت في الصالون كما لو كنت ضيفة. دعتني جميلة إلى غرفتها وراحت تسألني وتهزني لكني ما أزال في حالة "صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يعقلون". وددت لو أرى سعاد عساها تحمل لي خبرا عن طارق، لكن ذلك غير ممكن طالما ناصر معي.

أخذت من غرفتي كراريسي وكتبي، وتفاديت الجلوس مع أبي لوحدنا، فلا فائدة من الكلام بعد أن خسرت كل شيء. أنا لم أخسر فقط حبيبي وعائلتي، إنما خسرت نفسي أيضا.

عدنا بصمت كما ذهبنا، وفي المساء جمعتني أمه بحفيظة وحميدة وقدمت لي شروط الإقامة في بيتها:

- أوّلا، تذكري دائما أنك في بيت إمام وبيت رجال. لا تنزعي الخمار أبدا، والبسي فساتين طويلة الأكمام، وإياك من "بيجامات السروال". الكحل والزينة لزوجك فقط وفي غرفتك فقط، فلا تخرجي بهما أبدا. لا تسلمي على أحـــد من الرجال من غير المحارم، ولا خروج لك من البيت إلا مع زوجك. أما أشغال البيت فيدًا بيد مع حفيظة وحميدة، لن تكون بينكن مناوبة ومن لحقت بشيء تفعله.

بلعت غصتي ولم أعلّق على شيء، وقلت في داخلي: أهذه ثكنة أم سجن؟! هذا البيت أسوأ من بيتنا!

في السرير لا أزال على نفس الريتم: يعرّيني، يعتليني، ثم يغتصبني. لا شيء سوى الوجع والقرف.. حسبت الجنس أمتع من هذا، لكن لا قُبل ولا عناق، فقط يدخل ويخرج لدقائق معدودات، ثم ينبطح على ظهره يشخر!

طبعا ليس هناك شهر عسل في البرنامج ولا لحظة عسل، فقط أيام مرّة مرارة العلقم، تزداد مع كل يوم جديد.

صوت فاتح يهز الجدران، هذا حلال وهذا حرام. طوال النهار وهو يفتي ويملي الأوامر على الجميع. يغيب عن البيت كثيرا لأنه مشغول بحلقات الجهاد وتجنيد الشباب، وقد حققت معه الشرطة عدة مرات، لكن في كل مرة يطلق سراحه بعد أيام.

لا يوجد تلفاز في غرفتي أو في غرفته لأنه حرام، والتلفاز الضخم المتصدع الموجود في الصالون، فيه فقط القناة الوطنية الوحيدة، ولا تريد أمه التخلي عنه، فهي تظل في البيت مستلقية على كنبتها، ولا تسلية لها سواه. أما أولاده فلا يشاهدون الرسوم المتحركة إلا إذا كان غائبا لأنها أيضا حرام، وعند أول خطأ يرتكبه أحدهم سيأخذ ضربة لن ينساها، أما زوجته فلا تكاد تتنفس أمامه بعدما أدّبها جيدا!

ورغم ذلك فحفيظة تمشي في البيت متبخترة لأنها تحت حماية أمها. وحده رياض كان قابلا للحوار والتواصل، تلميذ هادئ وذكي، لا تبدو عليه علامات التأسلم أو التزمت. هو الوحيد الذي يحييني بابتسامة عندما يراني، ويسألني دائما قبل خروجه إن كنت أحتاج لشيء. زوجي لا يفعل ذلك!

في بداية شهر سبتمبر فتحت محفظتي وإذا باسم طارق يخرج لي من كل الصفحات، بكل الأحجام والأشكال والألوان. حاولت كتابة شيء، لكن لم ينزل علي لا وحي الشعر ولا وحي النثر، فأدركت أني عاجزة عن الكتابة أيضا، ومزقت الأوراق التي فيها اسم طارق تفاديا للمشاكل.

دخل ناصر إلى الغرفة دون أن يلقي التحية كالعادة، وخاطبته:

- علي الذهاب إلى مديرية التربية غدا. يجب أن أبدأ إجراءات التحويل فأنا متأخرة جدا. سيعود التلاميذ إلى الدراسة بعد أسبوع.
- ومن قال إنك ستعودين إلى العمل؟

بسرعة اجتاحني الإحساس بالخوف والخطر:

- ماذا قلت؟ لكن هذا كان شرطي وشرط أبي وقد وافقت عليه!
- لقد غيرت رأيي، ولا أحد يحاسبني!

شعرت بالدوار ورأيته على اثنين:

- لا يمكنك منعي. مستحيل أن أتخلى عن عملي!
- قلت إنك لن تعملي وانتهى الكلام!
- لا لم ينته فالآن فقط قد بدأ. عيب، أقسم أنه عيب أن يعِد الرجل بشرفه ثم لا يفي!

قبل أن يرتد طرفي إلي، كان قد صفعني بما يملك من قوة. ومن فرط ذهولي وصدمتي أمسكت خدي وبقيت صامتة للحظات:

- وتضربني أيضا!

- أقتلك إن شئت!

كأنما فؤاد هو من يتكلم. أقتلك.. نفس الكلمة ونفس اللهجة! هذا أيضا يخرج الدخان من أنفه وأذنيه كتنين غاضب! لم أعرف بعد إلى أي قدر هو عنيف، وقلت له شيئا أخطر:

- غيرتَ رأيك! إذًا أنا أيضا غيرت رأيي، وأريد العودة إلى بيت أهلي!

ما إن سمع هذه الجملة حتى شدني من شعري وبدأ يضربني بشكل عشوائي. رماني فوق السرير ثم خرج. لقد هربت من وحش إلى وحش آخر!

طوال الأسبوع بقينا نتشاجر وضربني عدة مرات أخرى. لا هاتف ولا مرسول يمكن أن يوصل الخبر إلى أبي. وطبعا أمه تلومني على طول لساني، وتذكّرني كل يوم أن مكان المرأة هو بيتها ولا ضرورة لها للعمل.

يضربني في النهار ويضاجعني في الليل باسم الحقوق الزوجية! في ذلك المساء الذي ضربني فيه أوّل مرة حاولت منعه لمسي، فكتم صوتي بوسادة إلى أن انقطعت أنفاسي ثم أخذ ما أراد! أما فاتح فكلما سمعني أبكي وأخوه يضربني، ينادي من بعيد:

- أدّبها، أدّبها، فالعصا تؤدب النساء!

قبل الدخول المدرسي بيومين جمعت القليل من أغراضي في حقيبة صغيرة وحملت محفظتي وجلست في الصالون. أخبرت أمه أني أريد العودة إلى بيت أهلي، وسمعت منها ومن ابنتها ما لم أسمعه بعد من

أنواع الشتائم النسائية المبتكرة بإبداع. بعد عودته من العمل في المساء وجدني متأهبة وخاطبته ببرودة:

- أعدني إلى أهلي، أو ابعث لهم خبرا ليأتوا لأخذي.

انفجر في وجهي وسبّني وركلني أمام الجميع، ثم سحبني إلى الغرفة:

- لم يفت بعد على وصولك شهر واحد وبدأتِ المشاكل! قلت لك انسي سيرة العمل هذه!

كلما أجبته كانت ضرباته أقوى، وحده رياض كان منزعجا جدا مما يحصل. بعدما نام الجميع، عطشت من ملح دموعي وملح حظي، وقصدت المطبخ لأشرب. وجدت رياض يراجع دروسه على الطاولة الصغيرة المكتظة بالخبز والأواني، رمقني بعطف وسألني إن كنت أحتاج شيئا قبل أن يضيف:

- أنت سيئة الحظ. أنقذي نفسك قبل فوات الآوان، فلن تعرفي أبدا طعم السلام في هذا البيت.

جلست بجانبه مطمئنة إليه، وطلبت منه خدمة سرية. كان لدي رقم هاتف المصلحة التي يعمل فيها عمي، أعطاني إياه في وقت سابق عندما كنت في المعهد التكنولوجي لأتصل به في حالة الضرورة. ترجيت رياض أن يتصل بعمي ويطلب منه إعلام أبي أن ناصر منعني من العمل، ويجب أن يتدخلا سريعا، لكن دون إخباره أني قد ضربت.

في الغد اتصل به، وبعد غد جاء أبي وعمي معا وقصدا ناصر في العمل. وبّخاه بشدة لأنه كان قد وافق على الشرط ثم خلف وعده،

وهدّده أبي أنه إن لم يدعني أعمل فسيأخذني معه حالا. حاول تبرير فعلته بالوضع الأمني، وعدم حاجته لامرأة عاملة، وبتقاليد العائلة، وأنه لا وقت لديه ليأخذني كل يوم إلى العمل ويعيدني منه، وأشياء أخرى لفّقها في آخر لحظة. شعر بالخجل والذّل أمامهما بعدما وضعاه أمام الأمر الواقع واحتقرا تصرفه.

تحت الضغط والإهانة لبى لهما الطلب، ورافقهما إلى البيت لأخذي إلى مديرية التربية لولاية البليدة. عندما سمعت صوت أبي وعمي عند الباب، طرت فرحًا وامتلأت أملًا أن ناصر مازال مصرا على موقفه، وأني حقا عائدة إلى بيت أهلي اليوم.

قبّلتهما، وشعرت لأول مرة ببعض الأمان في ذلك البيت. أمرني عمي أن أحضّر نفسي للخروج وأن أحمل معي جميع وثائقي للذهاب إلى مديرية التربية طلبا للتحويل والحصول على منصب، فهو يعرف جيدا هذا النوع من الإجراءات، وبالتأكيد لديه بعض العلاقات لحل مشكلتي.

في المديرية أجرى عمي بعض الاتصالات، وأرسل فاكسا إلى مديرية التربية ببومرداس واستقبل آخر، وراح يتنقل بملفي بين المكاتب. بعد ساعتين أو أكثر أخذني إلى مصلحة الموظفين وبشّرني بأن إجراءات التحويل قد تمت. قدّم لي رئيس المصلحة مقرر التعيين وطلب مني الالتحاق بعملي في الغد.

عند باب المديرية ودّعاني، وذكّر أبي ناصر من جديد أنه لا يريد مناقشة مسألة العمل مرة أخرى. غادرا دون أن أقول لهما شيئا عن ضربي. كان القلق واضحا عليهما لأن البؤس بادٍ علي. في طريق العودة

إلى البيت كان ناصر صامتا ومتذمرا، وبعدما أقفل باب الغرفة بعنف انفجر في وجهي:

- كيف أخبرتهم؟ ولماذا أخبرتهم؟ أتيت بأهلك ليملوا علي ما يجب فعله؟ أنت زوجتي الآن ووحدي أقرر مصيرك أفهمت!
- إن لم تكن راضيا فلماذا لم تسرحني لأذهب معهما؟

هذه جملة تساوي ضربة قاضية. شدني من شعري وصفعني عدة مرات مهددا:

- إياك أن تعيدي مرة أخرى جملة أعود لأهلي لأني سأقطع رأسك قطعا!

بقي يتساءل كيف وصل الخبر إلى أهلي وأنا لم أغادر البيت ولم يزرني أحد، فقلت له عندما حاصرني بالأسئلة أن عمي اتصل بمديرية التربية بالبليدة ليعرف إن كان قد تم تعييني في مدرسة ما بعدما أرسل لهم طلب التحويل عن طريق الفاكس، فأخبروه أني لم أذهب بعد لاستكمال الإجراءات.

رافقني ناصر متذمرا إلى المدرسة التي تبعد عن المنزل مسافة نصف ساعة بالحافلة. تعرّفت على قسمي وتلاميذي، وبعد نهاية الدوام جاء وأعادني إلى البيت.

قبل نهاية الأسبوع الأول من العمل كان قد حرّم علي كل مصادر البهجة والجمال: لا تنظري لأحد، لا تتكلمي مع أحد، لا تلبسي هذا، لا تتزيني، لا تتعطري، لا... لا... بعد أيام قليلة تغير مظهري تماما، فالسروال ممنوع، والكعب ممنوع، والعطر والكحل والماكياج ممنوع، كل شيء قد يشي بجمالي أو أنوثتي ممنوع. أمشي فقط وراءه وهو يجرني بحبل الزوجية..

لم تكن لدي ملابس كثيرة لأني لم أشتر شيئا مهما قبل الزواج. أمرني بأن ألبس جلبابا أو حجابا ملتزما وطويلا وعريضا، ولم يكن لدي شيء يشبه ذلك. وطبعا ممنوع عليّ مغادرة المدرسة أثناء فترات الراحة، أو الخروج مع باقي المعلمات لأي سبب كان.

بعد أسبوعين احتجت لبعض الأغراض المدرسية والملابس، فطلبت منه أن يأخذني إلى مركز البريد لأسحب بعض المال. كان مجبرا على أخذي لشراء حجاب على ذوقه. رافقني إلى مركز البريد، وأخذ مني بطاقتي الوطنية ودفتر الشيكات، فهو لن يرضى أبدا بأن أكلّم موظف البريد أو أتعامل معه. قبض راتبي كاملا، وفي حسابي بقي راتب الشهر السابق ومنحة المردودية أيضا. وضع كل شيء في جيبه وجرّني وراءه كالعادة.

أخذني إلى أقرب محل، واشترى لي أول حجاب طويل عريض صادفه. لم أجربه حتى، وبالتأكيد لن أتكلم مع البائع أو أنظر إليه. في البيت انتظرت أن يعيد إليّ دفتر الشيكات والمال لكنه لم يفعل، وحسبته مجرد نسيان. بعد يومين ذكّرته بالأمر فانفجر في وجهي:

- وماذا ستفعلين بالمال؟ أستجوبين الشوارع كمن لا تملك من يتحكم فيها! هذا ثمن أكلك وشربك أم أنك تعيشين مجانا هنا!

لم أستوعب لحظتها الأمر، لكني فهمت جيدا أنه ينوي ألا يعطيني دينارا من مالي. لم أرد الشجار من جديد وحسبته فعل ذلك ليعاقبني فقط. تجاوزت عن الموضوع وقد صدمني الاكتشاف أني في الحقيقة لست متزوجة، إنما مستأجرة عند رجل سأدفع له ثمن الكراء والطعام!

قررت السكوت الآن على أن أطالبه بأجرة الشهر القادم، وأسترد منه دفتر الشيكات وأقبض مالي بنفسي.

في الشهر الموالي سمعت المعلمين يبشرون بعضهم بدخول أجرة الشهر، وفي المساء خاطبته بشيء من اللطف لأستميله:

- دخل الراتب وأحتاج لعدة أغراض. أعد إليّ دفتر الشيكات ودعني أذهب مع زميلاتي غدا لسحب المال وشراء حجاب آخر، فالحجاب الأول عريض جدا علي، كما أنه ليس لدي حذاء مريح.

كأنما ارتكبت جريمة أو أني على وشك ارتكابها. انفجر في وجهي وعايرني مهددا:

- طبعا هذا ما تريدينه، الذهاب والإياب في الشوارع كمن لا رقيب لها! قليلة الأدب والحياء! احذري أن تطلبي مرة أخرى شيئا كهذا!

كالعادة جاء في الغد إلى المدرسة ليأخذني إلى البيت بعد الدوام وهو متذمر، وقبل أن نركب في الحافلة ذكّرته أني أحتاج المال وأنه لم يعطني شيئا مما سحبه المرة الماضية. نظر إلي نظرة تهديد ووعيد وأركبني الحافلة بصمت.

في المساء كتب ورقة ووضعها أمامي وأنا أحضّر الدروس على طاولة الزينة التي حوّلتها إلى شبه مكتب، وطلب مني أن أوقّعها. أمسكت الورقة وبدأت أقرأ عندما صرخ في أذني:

- قلت لك وقّعي وليس اقرئي!

بسرعة قرأت أهم ما فيها. إنها وكالة باسمي، أصرح فيها بأني قد وكلت زوجي لسحب أموالي. وقبل أن أعترض على الأمر وأناقشه سبقني مبرّرا:

- كم مرة علي ترك عملي لآخذك إلى مركز البريد! يكفي أني مضطر لأخذك إلى العمل وإعادتك صباحًا ومساءً. أتعتقدين أنه لا شغل لدي سواك!

تحت الضغط أمضيت على الورقة. لن يحتاج بعد الآن لتوقيعي أو حضوري ليسحب مالي. بقيت أياما أسأله إن كان قد سحب المال، وكان يرد بأنه لم يفعل لأنه مشغول.

بعد مدة نفد صبري، وسألته أن يمنحني بعض المال من مالي، وإذا بثائرته تثور عندما سمع كلمة "مالي"، فأنا ومالي له! دخلنا في شجار عنيف، وجمعت ما لدي من قوة وواجهته وذكّرته أنه مالي ولا يحق له التصرف فيه أو حرماني منه، وهو ثمرة تعبي وعَرقي:

- إن كنت تريدين العمل فاغلقي فمك أحسن لك. أنت زوجتي ومالك هو مالي، وإذا لم يعجبك الأمر فلا عمل بعد الآن!

ثارت ثائرتي أنا أيضا وصرخت في وجهه معلنة عصياني، وما كان جوابه سوى أن شدني من شعري وأخذ يجرني منه. هذه المرة لم أكن لأستسلم، وأخذت أدفعه بعنف محاولة تخليص نفسي، وعندما نعتّه بالغدار صفعني وركلني وأسقطني أرضا في زاوية ضيقة ما بين الخزانة والسرير. لم أجد متسعا للحراك أو الفرار، وانهال علي ضربًا وركلًا حتى تعب.

جثمت في مكاني لساعات أبكي وأندب حظي، وعندما أراد النوم أزعجه صوت نواحي. قام من السرير وشدني من شعري مرة أخرى وأوقفني آمرا أن أسكت وأدعه ينام. حينما وقفت كان فستاني قد ارتسمت عليه بقعة كبيرة من الدماء من الوراء، وعلى الأرض بقايا دمائي. لم أفهم ولم يفهم ما حدث. أطلق شعري وابتعد قليلا كأنما قززه الأمر أو أخافه.

شعرت بألم فظيع أسفل بطني وحسبته ألم الخوف كما يحدث عادة، أما الدم فربما يكون الطمث الذي فاض فجأة بعدما انحبس في بطني منذ شهرين أو أكثر.

جلست على طرف السرير والألم يزداد حتى ما عاد يحتمل، والدم يفيض ويفيض. علا صراخي ودخلت أمه لتوبخني هي الأخرى، وعندما وجدتني غارقة في دمائي انتبهت أنه ليس بطمث، وأنا كطفلة ساذجة لا تعرف شيئا بعد عن جسدها، لم أفهم ماذا حصل.

بلغ ألمي حدا لا يحتمل، ورغما عنه وافق فاتح على أخذي إلى المستشفى بعدما سمع الجيران صراخي، وفي الاستعجالات علمت أني كنت حاملا وها قد أجهضه والده بركلاته!

أبقوني تلك الليلة في المستشفى بأمر من الطبيب وفي الغد أخرجوني.

بدأت الآن أعي حجم المأساة التي سأعيشها في هذا الزواج، لكن ردي لم يكن سوى الصمت. عند عودتنا إلى البيت دنا مني وأنا مستلقية على السرير، وهو يشعر بشيء من الذنب على ما فعل:

– أنت تعرفين بأني عصبي فلماذا تستفزينني؟ كوني مطيعة واسمعي الكلام. لقد سمحت لك بالعمل فلا تطلبي أكثر. أما

مالك فدعينا نجمعه لنشتري به بيتا وسيارة، أم تريدين أن نظل طوال حياتنا نعيش في غرفة واحدة، ونتزاحم مع الناس في موقف الحافلات!

لم أرد عليه، لا اليوم، ولا غدا، ولا بعد الغد. دخلت من جديد في صيام عن الكلام. هو لا يكلمني إلا ليأمرني، وأنا أنفذ بدون تعليق. لن أناقش موضوع مالي بعد اليوم.

في الأشهر الموالية لم أزر أهلي سوى مرة أو مرتين، ولم أخبرهم بقصص ضربي وإجهاضي وحرماني من مالي، لأن أبي الذي سيدافع عني منهار تماما، وأمي ما بيدها حيلة، ففؤاد ورشيد التحقا فعليا ونهائيا بالجبل، ولم يعد ذلك سرًا على سكان القرية أو الشرطة التي وضعتهما في قائمة المطلوبين أحياءً أو أمواتا. رشيد يذهب إلى البيت من حين لآخر خفية عن أبي لكن فؤاد نادرا ما يفعل ذلك.

أبي المقهور المكسور الخاطر، يظل يتابع أخبار الجزائر في الراديو الموجود في دكانه الذي يفرغونه ليلا كلما جاءوا. أبدا لن يرضى بتمويل الإرهابيين، وقد أخبر الشرطة بذلك، لكن يبدو أن الأمن الجزائري لن يتفرغ حاليا لحراسة الدكان كل ليلة، في الوقت الذي يتوالد فيه مئات الإرهابيين يوميا، ليزرعوا القنابل هنا وهناك، ويتصيدوا الناس في الحواجز الأمنية المزيفة.

أما فاتح فليس إرهابيا وفقط، إنما هو أميرهم أيضا! أصبح كثير الغياب عن البيت، فالمسجد الذي يعمل فيه يوجد خارج مدينة البليدة ببضع كيلومترات، ويبيت هناك من حين لآخر عندما لا يجد من ينوب عنه في صلاة الفجر. في الأيام التي يأتي فيها إلى البيت كأنما ملك الموت

قد حلّ بيننا، يسود الصمت ويبقى صوته الخشن وحده يعم الأجواء. يجلس في الصالون مع أمه يفتي، ويحلّل ويحرّم في أتفه الأمور. لاحقا أصبح يغيب لأيام، ثم لأسابيع، ثم التحق نهائيا بالجبل. فاتح من ذلك النوع الذي يمكنه حقا قتل إنسان بكل برودة، فالشر كله يخرج من بين أصابعه وعينيه.

ناصر الذي رأيته أول مرة بلحية خفيفة مهذبة، أصبحت لحيته الآن غابة متوحشة، ويلبس قميصا قصيرا. غيرته التي لا معنى لها قضت على جميع ملامح جمالي وأنوثتي. لم أسمع منه يوما مجاملة، لا تغزل بشعري الذهبي الذي ينسدل كسنابل القمح على ظهري، ولا ضمني إلى صدره، ولا قبّلني، ومع ذلك فهو وحش جنسي لا يشبع!

يضاجعني كل ليلة تقريبا وأنا مستسلمة له كجثة لا حياة فيها. نهداي اللذان كوّرهما بيديه العنيفتين في الأيام الأولى من زواجنا دون أن يعرف ماذا يفعل بهما، كفّ نهائيا عن البحث عنهما!

مرة تذمرت من عنفه، وسرعته، وبخجل حاولت القول له أنه عنيف جدا، وسريع جدا، وأني أودّ لو يحضنني أو يقبلني، لو يحاور جسدي قليلا.. ولأني لا أزال أعيش على ذكرى قبلة طارق، وضمة طارق، أردت استرجاع تلك اللحظات لأواسي بها نفسي.

بمنتهى الحياء قلت له وأنا أدفع به عني وهو يعتليني:

- تمهل تمهل! لو تضمني أو تقبلني قليلا ربما يخف هذا الوجع!

استغرب جرأتي، ولم يحبّها أبدا. وكمن يحاول التقبيل ولا يريد ذلك، دنا مني ووضع شفتيه على جانب فمي للحظة ثم سحبهما وقال:

- أنا لا أحب التقبيل!!!

كانت تلك أول مرة أسمع فيها أن رجلًا لا يحب التقبيل!! لا أدري إن كانت حالة شائعة أم نادرة، لكن فكرت أن ذلك أفضل، فعلى الأقل لن يوسخ قبلة طارق ولن يمحوها، وستظل قبلة حبيبي ذكرى جميلة أعيش عليها.

من فرط ما كنت أفكر بطارق، وأتمنى لو كان هو الذي يتمدد عليّ، كنت كلما اقترب مني ناصر أغمضت عينيّ وتخيلت أن الفاعل هو طارق. وفي المرات النادرة التي شعرت فيها بشيء من النشوة وبلغت فيها الرعشة، إنما فعلت ذلك مع طارق لا معه! لقد أصبحت هذه إحدى عاداتي السرية التي لن يتفطن لها ناصر أبدا، لأنها تحدث في خيالي فقط!

مع الأيام أصبح ذلك منعكسا شرطيا تلقائيا، فما إن يتمدد عليّ أشده من ذراعيه، وأحيانا أضمه بقوة وأنا في داخلي أناجي: طارق.. طارق.. ولولا هذا لبقيت في عذاباتي وآهاتي. فمنذ أن اكتشفت أن خيال طارق يساعدني على تحمل مضاجعة رجل أكرهه بكل كياني، أصبح طيفه هو خلاصي الجنسي. لن يكون هناك لا عناق ولا تقبيل وهذا جيد، فأنا لا أريد أن أقبّل بعد حبيبي وحشًا!

موجة الإرهاب تزداد وترتفع، وملامح المجتمع الجزائري تنحو للتغير. ملابسه، عقليته، عاداته، يومياته... كل شيء يتغير نحو الانغلاق والقبح والتعصب. العنف ينخر البلاد يوما بعد يوم، من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، وقد أصبح للإرهاب ألف شكل وشكل للوجود؛ إرهاب الإرهاب، إرهاب الأزواج،

إرهاب الإخوان، وإرهاب النساء! أجل، ففي البيوت نوع آخر من الإرهاب لم تضعه الدولة في مخططاتها لتحاربه!

كلما عدت إلى المنزل بعد العمل وجدت ثلاث إرهابيات في انتظاري. فأمه لا تكف عن معايرتي وتحميلي مسؤولية كل الأعمال المنزلية، بحجة أني عاملة وأن حفيظة وحميدة تعتنيان بالبيت في غيابي، فإذا وصلت توقفتا عن كل شيء، وأجد أواني الغذاء تنتظرني، وتحضير العشاء ينتظرني، كما ينتظرني المسح والكنس، وغسل ملابس هذه العجوز المربعة التي لا تفعل شيئا سوى الأكل والنوم على كنبتها، وإصدار الأوامر للجميع. إنها كالملكة، ولِمَ لا، فابنها أمير!!

يوميا يوجد سبب للشجار، وبسببهن ضربني ناصر عدة مرات. يجب أن أعمل صامتة وإذا قلت شيئا تعالت أصواتهن، خاصة في غياب فاتح، أما في حضوره فزوجته تبتلع لسانها ولا تكاد تستطيع التنفس، وما إن يخرج حتى تتحول إلى إرهابية مثله، وتشبع أولادها ضربا مبرحا، انتقاما منه ومن أمه وابنتها. أما أنا فتسمعني من الكلام ما كنت أشك أحيانا أنها قرأته في كتب متخصصة أو أخذت دروسا فيه!

حفيظة هي مدللة أمها، تأكل وتنام هي الأخرى، وتختلق الأسباب للشجار. من حين لآخر تلبس جلبابها ونقابها وتخرج بحجة أنها تتعلم الخياطة، وفي المساء تعود منتشية، مورّدة الخدين. إنها أخت إرهابي ومع ذلك تقابل عشيقها، بل عشاقها، في الأحياء المجاورة، وفي ذات الحي أحيانًا!

من أين تأتي بتلك القوة والجرأة لا أدري، لكني كنت أحسدها كلما عادت من موعد غرام. تعود وهي حاملة بعض القماش لفستان لن

يخاط للتمويه فقط، والبقع الزرقاء والحمراء تطل من هنا وهناك من رقبتها وذراعيها وصدرها وفخذيها. رأيت ذلك حينما صادفتها ذات مرة في الدوش، فهي تستحم جيدا قبل الخروج، وتستخدم كريمة نزع الشعر، وشفرات الحلاقة، وماء الكولونيا، وأشياء أخرى تشي بأنها تحضر نفسها لرجل.

***

بعد أقل من سنة أنجبت ابنتي الأولى "أمال"، والتي سميتها كذلك بحثا عن شيء من الأمل. وبعد سنة أخرى أنجبت ابني "محمد"، وبذلك بدأ فصل جديد من العذابات في حياتي، وبين المدرسة والبيت انشطرت إلى نصفين.

غيرة ناصر بدأت تتراجع مع تراجع بهجتي وجمالي، حتى إنه أمرني بالذهاب إلى العمل وحدي، بعدما ملّ من اصطحابي كل يوم صباح مساء، والانتظار معي في موقف الحافلات والتزاحم على المقاعد.

تراجعت شجاراتي معه قليلا، لكنها تضاعفت مع أمه وأخته. فأنا مضطرة لترك الأولاد عندهما أثناء غيابي، وسأدفع ضريبة ذلك كل يوم. وبحجة أن لا وقت عند حفيظة للطبخ والغسيل بسبب أولادي، علي القيام بكل شيء بمفردي، أطبخ لليوم الموالي غذاءهم جميعا، وأنجز جميع الأعمال مسبقا أو لاحقا.

فاتح مطلوب لدى الشرطة حيًا أو ميتًا، مثله مثل فؤاد ورشيد، ومع ذلك ينجح من وقت لآخر في اقتحام المنزل كسارق. لم تكن أمه تتذمر كثيرا، وإن كانت تطرده كلما دخل فذلك حفاظا على حياته فقط، لأنه على لائحة المطلوبين وقد يوشى به للشرطة.

لم يكن ناصر يأخذني عند أهلي إلا نادرا، ولا حتى في الأعياد الدينية، بسبب عدم وجود سيارة، فسيارة فاتح المهترئة صادرتها الشرطة عند سفح الجبل. أما أهلي فيزوروني من ولادة لأخرى لا غير. في العطلة الصيفية فقط يسمح لي بالذهاب إلى بومرداس، ويبقيني هناك مدة شهر حتى لا أطالبه خلال السنة بأية زيارة!

في الصيف الأخير كنت في عطلة مدرسية وزوجية عند أهلي. في حجري طفلان والثالث في بطني، فناصر لن يأتيني بحبوب منع الحمل أبدا لأن منع النسل حرام كما أفتى له فاتح! كنت مرتاحة لأن فؤاد ورشيد ليسا هناك، لكن وجع أبي كان أقوى أوجاعي.

طلبت رؤية سعاد في اليوم التالي من وصولي، كانت جميلة وبهية، وسعيدة بحبها وبحبيبها. دراستها في الطب تتقدم بشكل جيد، فلحد الآن لم ترسب في أية سنة دراسية، وكذلك طارق، رغم أنه أصبح قليل الابتسامة والكلام بعدما فقد البهجة. يملأ وقته كاملا بالدراسة ولا يزور والده في بومرداس إلا في المناسبات. كنت آمل أن يأتي إلى المدينة هذا الصيف، ليس طمعا في لقائه، إنما لأواسي نفسي بقربه فقط، لكن سعاد تقول بأنه سيقضي العطلة الصيفية في تلمسان.

سألتها إن كانت لديه صديقة فردت علي ساخرة:

- لو كانت لديه صديقة لتخلص من مربط شعرك الذي لا يزال في معصمه!

اقشعر بدني عندما فكرت أنه لا يزال يحملني في قلبه كما في معصمه. لا يمر يوم دون أن أفكر فيه في طارق عدة مرات، وكذلك هو الحال معه. العاشق لا ينسى حبيبه بعد الزواج، أو بعد الأولاد، وربما حتى بعد الموت لا ينساه..

جميلة لم تعثر بعد على سبب للبهجة بعد أن فقدت عزيز. منطفئة، هادئة، لا تنكيت، ولا شغب. بعد ظهر كل يوم تقريبا تأتي سعاد، وأثناء القيلولة ينام الأولاد ويفيق العشق النائم في قلبي، ليطرح ألف سؤال وسؤال عن طارق، لكن قصتي معه انتهت وما عاد هناك شيء مشوق يحكى بعد تلك النهاية البائسة. الآن جاء دور سعاد لتحكي، فحبيبها من ذلك النوع من الرجال الذي يجب أن تكون المرأة محظوظة جدا لتصادفه في حياتها. يحبها أن تكون دائما جميلة وأنيقة، يحب طيشها ويخاف عليها، يشجعها على إكمال دراستها ومتحمس لأن يراها طبيبة، منفتح ومنشرح، ووفي ومخلص.

سعاد ليست مستعجلة للخطبة لأن دراستها لا تزال طويلة ومضغوطة، وهو لا يزال يعمل بعيدا. ولأن عطلة الصيف طويلة سيأتي لزيارتها في بومرداس هذه الأيام. حسبت نفسي عاشقة كبيرة، لكن سعاد أضحت هي الأخرى كذلك. في النهاية كل العشاق كبار ولا أحد في الحب صغير..

ذات صباح من هذه العطلة، كان أبي قد غادر إلى الدكان، والأولاد غارقون في النوم، وأنا وجميلة ونصيرة التي تأتي دائما عندما أكون في بيت أهلي، ندردش في المطبخ ونحضر الغداء. سمعنا دقات سريعة وقوية على باب الفناء. فتحت جميلة وأنا لم أتحرك من مكاني، فكرت أنها الشرطة، وإذا بسعاد صفراء الوجه ترتعش كورقة، تبكي وتقول أنصاف كلمات، وفي يدها جريدة.

أدخلناها إلى المطبخ وأجلسناها وهي لا تقوى على الكلام. بصعوبة شرحت لنا أنها تصفحت جريدة الأمس التي وجدتها في غرفة والدها

هذا الصباح عندما كانت ترتبها، وهو المواظب كأبي على قراءة الجرائد كل يوم، حينما قرأت على الصفحة الأولى بالخط العريض: مجزرة عند مخرج ولاية المدية تودي بحياة ثلاثة عشر شخصا من بينهم شرطي.

أخذنا منها الجريدة وقرأنا التفاصيل: نصب الإرهابيون حاجزا أمنيا مزيفا وأوقفوا حافلة ركاب صغيرة وقتلوا جميع ركابها!

لم يذكروا أسماء الضحايا واكتفوا بالإشارة إليهم بالحروف: (ك.ن)، (س.ع)، (ت.ز)... كأنما الجريدة لا تتسع لذكر الأسماء كاملة! ومن بين المشار إليهم المدعو (م.ب)، سبعة وعشرون عاما، شرطي من تيزي وزو ويعمل بالمدية.

كل الإشارات تقول إنه حبيبها، لكن سعاد لا تريد التصديق، لذا ستذهب إلى المدينة لتتأكد من صديق له في مركز الشرطة، كان قد عرّفها مراد به سابقا، ووصاها أن تلجأ إليه إن احتاجت لشيء. لم تكن قادرة على الوقوف أو الكلام، ولم يكن من الحكمة أن تذهب وحدها، لكن لا أنا ولا جميلة نستطيع مرافقتها، وهي لم تعلم أحدا من أهلها بعلاقتها بمراد.

قلنا لها ربما لا يكون هو المقصود، فالاسم غير مذكور بالكامل، وقد يكون مجرد تشابه في الأسماء، لكن هيهات أن نعيد عجلة الزمن إلى الوراء، أو نمحو أحداثا ونكتب أخرى. ذهبت سعاد لوحدها إلى مركز الشرطة، وطوال الطريق لم تتوقف عن الدعاء، لكن أكدوا لها صحة الخبر.

بين يدي صديقه هوى جسدها، وبين يدي الوجع هوى قلبها. وأنا بقيت طوال النهار أترقب عودتها، لكنها لم تعد.

لقد ذبحوه من الوريد إلى الوريد عندما عرفوا أنه شرطي. فقد بادر بإطلاق النار ما إن أوقفوا الحافلة، وقتل منهم واحدا وجرح اثنين، لكن لم يكن في مسدسه ما يكفي من الرصاصات لقتل عصابة من الإرهابيين المدججين بالأسلحة النارية والبيضاء. أصابوه بطلقاتهم وأسقطوه أرضا ثم ذبحوه!

في الأيام الموالية زار ملك الموت سعاد عدة مرات لكن لم يأخذها. ممددة على فراشها وقد غشى البياض عينيها، لا كلام ولا طعام ولا شراب، افتضح أمرها أمام الجميع، وعلم أهلها بما حدث بعدما استرجعوها من المستشفى ذلك المساء، لكنهم لم يعنّفوها لأنها أحبت رجلا وواعدته، فقد كان وضعها مثيرا للشفقة.

دخلت سعاد في حالة من الموت الجزئي، ولم ينفع معها الأطباء ولا الرقاة. ظلت في الفراش ثلاثة أشهر تقريبا ولم تعد إليها الحياة إلا بشق الأنفس.

عدت إلى البليدة وقلبي مع سعاد. ومع الدخول المدرسي الجديد بدأ الضغط يحاصرني من كل الجهات؛ المفتش، المدير، التلاميذ، أولياؤهم، أولادي، زوجي، حماتي، أخته... وحده طارق كان يشعرني بالحياة كلما خطر على بالي.

عدت أيضا إلى الشجارات اليومية، فلا يكاد يمر يوم بسلام حتى تثير حماتي وابنتها أو زوجة فاتح مشكلة ما، وفي كل مساء تقريبا إما آخذ توبيخا أو ضربة، فناصر لا يحاول أن يفهم ويكفي أن يسمع أصواتنا ترتفع أو تشكيني له أمه، حتى يجرني من شعري أمامهن وأمام أولادي، ويضربني كمن ينتقم من عدو.

بفتور وتعب حبلت للمرة الثالثة وأنجبت طفلتي "نور الهدى". شعرت بأني لست سوى آلة لإنجاب الأطفال. أعمل كالعبيد، أنجب كالآلة، وأعيش على هامش الحياة..

وككل ولادة، زارني أهلي زيارة قصيرة لم تدم سوى ساعة أو ساعتين. أخبرتني جميلة أن سعاد التي بقيت في الفراش ثلاثة أشهر، لا حية ولا ميتة، استيقظت ذات صباح وقد اتخذت قرارا لا رجعة فيه: لن تدرس الطب بعد اليوم! ستصبح شرطية مثل مراد، وستقاتل الإرهابيين حتى الموت!!

لم تكن عائلتها لتسمح لها بمغادرة كلية الطب وهي في منتصف المشوار، لتزاول مهنة خطيرة كهذه. لكن سعاد ليست من النوع الذي يتردد أو يتراجع عن قراراته، وفي النهاية رضخ لها أهلها لأن الأهم بالنسبة إليهم أنها عادت للحياة بعدما أوشكت على الهلاك.

في ذات اليوم الذي قررت فيه ذلك، قصدت مركز الشرطة ببومرداس وطلبت من صديق مراد أن يدلها على الطريق لتحقيق هدفها الجديد، وبالصدفة كانت هناك مسابقة لتوظيف الشرطة في تلك الفترة، فالأمن الجزائري منهك وعشرات رجال الشرطة والدرك والجيش يموتون أسبوعيا على يد الإرهاب. لم ترد سعاد أن تكون مجرد شرطية عادية، وقد أصرت على الدخول في القوات الخاصة بمكافحة الإرهاب أيما إصرار، وفعلا كانت من أوائل النساء اللواتي التحقن بها. حاليا هي في تربص ولينتظرها الإرهابيون في الجبل!

الآن انكسرت قلوبنا جميعا. لا حب ولا فرح. وحده الموت يحلق في كل مكان ليخطف من كل حبيب حبيبه، ومن كل بيت واحدا أو

اثنين أو ربما أكثر. تطرف الإرهابيين بلغ أقصاه، والجزائر تتوجع وتئن في عالم لم يستوعب بعد معنى الإرهاب!

إرهاب ذكوري في الجبال والشوارع، وإرهاب أنثوي في البيوت. ما عادت الحياة تحتمل في ذلك البيت الصغير بمساحته والكبير بمشاكله، خاصة بعد مجيء فريدة وأولادها بعد خصام مع زوجها. فمن أجل لا شيء تحمل أطفالها وتأتي باكية شاكية عند أمها التي تقول لها كالعادة:

- لا تعودي إليه حتى ييبس رأسك!

البيت يعج بالأطفال، وعليّ إعداد الطعام للجميع، والغسل، والكنس، والترتيب، وعشرات الأشغال التي تتكرر كل يوم.

انتهت عطلة الأمومة وعدت إلى العمل كعبد، بل وأسوأ منه، فعلى الأقل العبد يحظى ببعض الأجر، أما أنا فلم أر دينارا من أجرتي منذ زواجي. عدت إلى العمل وهذه المرة قررت الحصول على حبوب منع الحمل بأية طريقة. ولأنه لا يحق لي الانحراف عن طريق المدرسة ولو للذهاب إلى الصيدلية، طلبت من إحدى زميلاتي أن تشتريها لي، وقد أعطيتها مالا مما قدّمته لي أختي نصيرة عند ولادة ابنتي.

بين تلاميذي الثلاثين وأبنائي الثلاثة، كنت أوزع ما تبقى لي من حنان. يقال فاقد الشيء لا يعطيه، وأنا لا أدري من أين يأتيني بعض الحنان. في هذه الفترة عاد فاتح إلى البيت بعدما استفاد من قانون الوئام المدني، وتوبته لا تؤتمن لأنه سبق وأن استفاد من قانون الرحمة ومع ذلك عاد للجهاد ثانية. هذه المرة عاد أكثر شراسة بعدما ذبح العباد ذبحا! بدا متعبا من السهر، داكن البشرة ومخيف النظرة.

الآن هو عاطل عن العمل لأنه تم توقيف نشاطه كإمام. يجلس دائما في الصالون مع أمه وناصر، يعوي كذئب جائع ويفتي في أمور الدين والدنيا. وحده رياض يسابق الزمن والعنف، كان يعيد امتحان البكالوريا للمرة الثالثة وهو مشوش ومشتت. ولأنه يتعاطف معي ويتدخل دائما لصالحي حينما يضربني ناصر، فقد سمع من أمه وأخته كل أنواع الإهانات، ومع ذلك لا يرد ولا يجيب، وبعد كل شجار يقول لي:

- اهربي وأنقذي نفسك قبل فوات الأوان..

بقيت أتفرج على سنوات عمري وهي تمضي، وشبابي ينطفئ، ومصيري المأساوي قادم. الندم ينخرني من الداخل كما ينخر الدود لب الخشب. ذات مساء بعدما نام الأولاد جلست إلى طاولة الزينة التي أحضّر فيها مذكراتي وحاولت كتابة شيء، لكن قلمي لم يخط غير كلمة طارق.. بقيت لساعة أتفنن في زخرفة اسمه. كم اشتقت إليه!

رفعت رأسي للمرآة التي أصبحت أخشى مواجهتها، واستحضرت للحظات قبلته، وضمته، ولمسته على وجهي وشعري. شعرت بالفراغ يملأ صدري كأنما لا عظام ولا لحم فيه، وبحاجة عارمة لأن يضمني أحد.

سمعت وقع خطوات ناصر قادما من الصالون، فمزقت الورقة سريعا ودخلت للفراش دون أن أحضّر أية مذكرة. وما نفع المذكرات وأنا قد حفظت كل الدروس عن ظهر قلب أفضل من كل التلاميذ!

أغمضت عينيّ وخيال طارق يطوقني. بعد لحظات قلّبتني يده الخشنة:

- استديري.. أحتاجك!

استمريت في التظاهر بالنوم عندما رمى بثقله عليّ..

كالعادة راح يدخل ويخرج، بلا قبلة، ولا ضمة، ولا لمسة.. وكالعادة أيضا سبقه خيال طارق لاعتلائي. ومن فرط ما غصت في خيالي، واشتقت لطارق هذا المساء، ضممته بقوة، وفي لحظة لا وعي تأوهت من النشوة التي صنعها خيالي، وناديت في داخلي: طارق!! وإذا بصوتي قد انفجر!!

توقف وسحب مدفعه:

- من طارق هذا؟!

تقطعت أحشائي من الخوف. أمسكني من أسفل وجهي بيد عنيفة وهزني بقوة:

- قلت من طارق؟!

- ومن طارق؟ تلميذ مشاغب جنّني طوال النهار!

لم أفهم من ملامحه إن كان قد صدقني أم لا. للحظة خلته سيذبحني وإذا بمدفعه يخترقني من جديد.. بالنسبة إليّ طارت رغبتي بلا رجعة، وتسارعت دقات قلبي كالهارب من الموت. هو يعرف جيدا بأني خوّافة وجبانة، ولن أقدم حتى على قتل ذبابة، فما بال خيانة رجل مثله! لم يخطر على باله أبدا أنه يمكن أن أخونه ولو في خيالي، وأنا الخاضعة له خضوع العبد لسيده.

في الغد أضفت اسم طارق إلى قائمة التلاميذ، وابتكرت له لقبا وتاريخ ميلاد حتى أريه الدليل في حالة احتجت لذلك!

ترعى حفيظة أبنائي أثناء غيابي رغما عنها بأمر من ناصر، وقد طلبت مني أجرا على رعايتها، ووجهتها إليه لأنه القابض لمالي، وقد أسكتها ما إن تكلمت وعرف سؤالها. تعايرني دائما بأني ألهث في الطرقات، وأترك أولادي طوال النهار بلا رعاية، وحماتي مثلها تكرر نفس الكلام:

- ابنتي ليست خادمتك. إذا اضطررنا سنربي ابن ابني فقط، أما ابنتاك فلتتدبري أمرهما!

جدة لا تحن سوى على الذكور من أحفادها! هي تحب ابني محمد فقط، أما أمال ونور الهدى فليس في قلبها مكان لهما. في كل مساء أعود من العمل منهكة كمن يعود من حساب يوم القيامة، وفي البيت تنتظرني أعمال لا نهاية لها، وشكاوي وشجارات. هذه المرة سيتطور الوضع لأخطر، فمرة كنت أرد الصرف، كما يقال، لحفيظة وحميدة على عدم غسلهما أواني الغداء وعدم إعداد العشاء وانتظار قدومي لأفعل كل شيء، وتدخلت حماتي بجملتها المعتادة:

- نربي لك أولادك وتفتحين فمك!

انفجرت غضبا وقلت بعض الجمل المبعثرة دفاعا عن نفسي التي لا أجيد إطلاقا الدفاع عنها وإلا ما وصلت لهذا الحال، وإذا بحفيظة تنقض عليّ كوحش لتتبعها حميدة.

ضربٌ، وعضٌّ، وركلٌ، كما لو كنت عبدا أو دابة! لم يخلصني منهما سوى رياض الذي دخل ووجدني وسط الرواق لا حول لي ولا قوة أمام بقرتين بحجمهما. كل الحقد والسمّ خرج من أصابعهما ولسانهما. فكّني من بين مخالبهما لكن لم يستطع إسكاتهما، فهو ليس برجل خشن أو عنيف ليمد يده على امرأة، بل وعايرته أمه لأنه وقف معي ضدهن.

عندما دخل فاتح وناصر بادرت حماتي بالشكوى، وأنا كنت في المطبخ وسمعت فاتح يخاطب ناصر:

- أتترك أولادها لتربي أولاد الناس! لماذا لا توقفها عن العمل؟ أدّبها يا أخي أدّبها!

لم يكن ناصر ليوقفني عن العمل، ليس التزاما بوعد ما إنما لحاجة في نفسه لن أعرفها الآن. ناداني إلى الغرفة وأخذ يصرخ والدخان يخرج من أنفه وأذنيه، فصرخت أنا أيضا في وجهه:

- قالت أمي، قالت أمي! أنت لا تسمع سوى ما تقوله أمك! وهل سمعت ما أقوله أنا يوما؟ أأنا المخطئة دوما والظالمة! لقد ضربتني أختك اليوم وزوجة أخيك، وعوض أن تنصفني جئت لتلومني. هل أنا إنسان في هذا البيت أم ماذا؟!

صرخت وعلا صوتي وأنا أشكي وأبكي. شدّني من رأسي وتدلى خماري. أمسكني من شعري وبدأ يضربني. قاومت بما استطعت وأنا أكرر على مسامعه:

- كرهت.. تعبت.. دعني.. طلقني!

ما إن سمع الكلمة الأخيرة حتى جنّ جنونه، وسحب الحزام الجلدي من سرواله وبدأ يضربني به:

- أعيدي ما قلتِ! أطلقك.. طبعا هذا ما تريدينه!

فتح رياض الباب وسحبني من بين يديه وهو يصرخ:

- ستقتلها يا وحش!

كان فاتح وأمه في الرواق يناديان على رياض بالخروج، لكنه خلصني وأوقفني، وقبل أن يخرجني من الغرفة شده فاتح من صدره:

- وما دخلك أنت؟ كيف تقتحم غرفة أخيك؟

كنت أبكي مكشوفة الشعر وهو ما أزعج فاتح جدا، ولم يزعجه أبدا الدم الذي يسيل من فمي! أولادي يبكون حولي، وأنا أندب حظي وسط الرواق. المعركة الآن انتقلت إلى رياض وفاتح وناصر. تلفظ رياض بجملة قبل أن يلكمه فاتح:

- أنتم وحوش ولستم بشرا!

نطقت حماتي:

- أتتقاتلون من أجلها! من أجل أعرّ النساء هذه!

قال فاتح لرياض:

- لو لم تكن ابن أمي لقتلتك بيدي يا سافل!

دخلا في شجار عنيف وعمّت الفوضى، وتفرج الجيران دون أن يروا شيئا. تدخل ناصر بينهما وعنّف رياض هو الآخر، فردّ عليه:

- قالت لك طلقني فطلقها. لِمَ تعذبها هكذا؟ إن لم تكن تريدها فدعها تذهب!

- أتريني ما يجب علي فعله مع زوجتي يا سافل!

تشابك هو الآخر معه، ولولا أن حماتي خلّصته بعويلها ونواحها لكانا قتلاه. في وسط الدمار ذاك تذكرت يوم تشاجر فؤاد مع طارق.

أخذ رياض محفظته والجاكيت وغادر البيت وهو يقسم بأنه لن يعود إليه.

اجتمعوا مرة أخرى في الصالون تحت رئاسة هذه العجوز الضخمة الجثة، ضيقة الصدر، قاسية القلب، يتباحثون عن حل لفك شجاراتنا

نحن نساء البيت الأربع، وبما أن معظم المشاكل تحدث في المطبخ فقد قرروا عزلي منه، وناصر هو من اقترح ذلك.

غرفتنا صغيرة ولكن لديه مخطط. سوف يتخلص من الخزانة الطويلة العريضة وطاولة الزينة أيضا، ويضع ركنا للفرن والأواني في زاوية الغرفة! في الغد نمنا في ديكور جديد، وطبعا ذهبت إلى العمل وآثار الضرب بادية على وجهي كالعادة!

من فرط التعب والإرهاق أصبحت كالمختلة، أنسى كثيرا، أتكلم وحدي، ومظهري كالمتسولة أو أسوأ. نسيت أخذ حبوب منع الحمل عدة مرات، وكدت أجن حين أدركت أني حامل مرة أخرى.

أنجبت طفلي الرابع "إسلام" وقد أنهكني الحمل والولادة. لم أُسمّ من أولادي سوى أمال، والبقية سمّاهم فاتح وناصر. اختارا أسماءً إسلامية تبركا بإسلام لا يعرفان منه سوى اللحية والقميص والحقوق الزوجية، وقد تذمرا جدا عندما سميت ابنتي البكر دون أن أشاورهما.

رياض الذي كان يفكني من بين مخالب المفترسين، يعيش حاليا في العاصمة بعدما نجح في البكالوريا، ويدرس الاقتصاد في إحدى جامعاتها، ولا يأتي إلى البليدة إلا في المناسبات، فهو غير مرحب به، ثم إنه لا يريد الشجار معهم. رياض في منتهى العطف والإنسانية، وفاتح وناصر في منتهى الهمجية. كأنما لم يولد هؤلاء الرجال من رحم واحد!

في عطلة الصيف أخذني ناصر إلى بومرداس لزيارة أهلي الذين غادرتهم في سن العشرين، وها أنا في الخامسة والعشرين بأربعة أطفال. كنت أشعر وأولادي يحيطون بي بأني ما أزال طفلة، وأحتاج لكثير من الرعاية والحنان. كلما كبرت شعرت بالطفولة تتدفق في

داخلي، وبحاجة لأن يضمني أحد، أن ألعب وأضحك بلا سبب، وأن أجري وأركض بلا هدف دون أن يوقفني أحد.

خمس سنوات من القهر لم أشكُ فيها لوالديّ همي حتى لا أعذبهما، لكن آثار جروحي الجسدية والنفسية توحي بكل شيء. أخبرتهم أني من يوم تزوجت لم أعش لحظة هنية، وأني لم أقبض يوما دينارا من مالي، ولا رأيت من زوجي هدية، وأنه يضربني يوميا تقريبا بسبب أو بدونه، وأن في بيتي ثلاث غولات وأحيانا تأتي رابعة، يتربصن بي في كل زاوية.

وأنا أتكلم مع أبي قاطعتني ابنتي أمال لتشهد على ما حدث:

- جدّي.. لقد ضربها أبي وجرحها!

جمد أبي طويلا في مكانه دون حراك وقد تغير لونه، وعندما نطق قام منتفضا:

- لن تعودي إليه! عندما يأتي ردّي له أولاده، وإن عزّ عليك فراقهم فأبقيهم وأنا سأعيلهم.

أبي رجـل شهـم فوق الظنون. ما من شيء أرغب فيه أكثر من الانفصال عن ناصر، لكن فكرة التخلي عن أربعة أطفال كانت تربكني. ومع أني سألته الطلاق مرارا ورفض إلا أني في نهاية الأمر لا أستطيع التخلي عن واجبي نحو أطفالي. كالعادة أنا أفكر في الآخرين قبل أن أفكر في نفسي!

خلال الأيام الأولى أتعبتني أمي بهذا الموضوع من فرط خوفها أن أطلق فعلا، ففي نظرها لا شيء أسوأ من الطلاق بالنسبة للمرأة ولو

كانت معنّفة. أما جميلة فشجعتني كما فعلت ذات يوم لأهرب مع حبيبي ولم أفعل:

- اتركيه، اتركيه، فهذه فرصتك..

لم أتركه عندما كنت بدون أولاد، والآن أتركه وأنا بأربعة أطفال هم كل ما حققت في حياتي! لا أظنني قادرة على ذلك.

رشيد وفؤاد ما زالا في الجبل، ووالديّ كمن عرّياهما أمام الناس لا يقدران على مواجهة أحد. لم يكن أبي يوما عنيفا ولا أمي، لا جسديا ولا لفظيا، لكن منابع الإرهاب جاءت من مصادر لم نشك فيها أبدا.

سعاد لن تأتي هذا الصيف إلى بيت أهلها. أخبرتني أختها أنها قصّت شعرها قَصّة قصيرة، وأصبحت ترتدي سراويل الجينز دائما. إنها متأهبة للمعركة في كل وقت. لن أعرف شيئا عن طارق الذي لا شك أنه أنهى دراسته كمهندس دولة في الإعلام الآلي.

شهر كامل في بيت أهلي، وأنا كمن فقد حواسه، لا أشعر بشيء، لا الجوع، لا العطش، لا البرد، لا الحر، لا شيء يثيرني. ومع ذلك ارتحت قليلا مع جميلة ونصيرة، وإن كان غياب سعاد قد ترك فراغا كبيرا.

عندما جاء ناصر لأخذي ومعه التاكسي، سألني أبي مرة أخرى إن كنت أريد البقاء، وأجبته بلا. فكرت أن حياتي ضاعت ولا داعي لأن أضيع حياة أولادي أيضا، لذا توسلت من أبي ألا يفتح معه موضوع الطلاق، ومع ذلك سحبه لزاوية وكلّمه بلهجة حادة:

- أودعتك ابنتي أمانة، لكن يبدو أنك لست ممن يحفظ الأمانات!

لامه ووبّخه دون أن يذكر له شيئا عن الطلاق تلبية لطلبي، لأني كنت موافقة على رأي أمي حينما قالت بأن أبي لن يظل هنا ليحميني

ويحمي أولادي، وعندما يعود فؤاد ورشيد سأرى الويلات على يديهما من جديد.

في المساء خاطبني ناصر ساخرا:

- أتشكينني لأهلك! أنت حقا مضحكة. لو كنت عزيزة عليهم، لكانوا قد أخذوك من زمان!

لأول مرة كان محقا في شيء ما!

بدأ الضباب ينقشع والنور يشع بعد عشرية دموية سوداء، عشناها خارج التاريخ وخارج الإنسانية.. فبعد تطبيق قانون الوئام المدني عام 1999 والذي جاء كمحاولة ثانية من الحكومة الجزائرية لترويض الوحوش الإرهابية وإعادتهم إلى آدميتهم بعد تطبيق قانون الرحمة عام 1995، بدأت الأمور تنفرج أخيرا.

رشيد كان من المتأخرين الذين سلّموا أنفسهم في إطار قانون الوئام المدني، بعد شجار عنيف مع فؤاد الذي رأى في توبته خيانة. غادر الجبل مع بعض الإرهابيين الراغبين في تسليم أنفسهم خفية وعن كره، لأن الذين بقوا هناك أشد بأسًا من أن يسمحوا لهم بالمغادرة أحياء.

حياتي الآن كموتي، حياة بلا حياة.. أعيش مع زوج وأربعة أطفال في غرفة واحدة، فيها زاوية للطبخ ولا مكان لشيء آخر عدا أفرشة النوم والملابس. لا أخرج من غرفتي سوى للذهاب إلى الحمام الذي لا أدري كيف لم يقسّموه!

أمال ومحمد ونور الهدى يخرجون عادة من الغرفة للعب في الصالون حيث ما زالت حماتي تتربع على كنبتها وهي دائمة الشكوى: يؤلمني هذا،

يؤلمني ذاك، أنا مريضة، أنا ضعيفة... لكنها تلتهم كل شيء، ويوما بعد يوم يزداد عرضها ووزنها حتى لا تكاد أرجل الكنبة تحملها!

حفيظة ما زالت تختلق الأسباب للخروج، متزينة متعطرة، وكحلها الهمجي الأشد سوادًا من الزفت ينادي: تعال تعال! ومع ذلك لا شيء يجعلها جميلة، فهي تشبه فاتح في قبح وجهه بحيث لا شيء يجمله! ترتدي سترينغ وحمالات صدر شفافة من الدانتيل الأحمر والأسود، ومن فوقهما تلبس الجلباب والسدل والستار والجوارب والقفازات وتخفي جسدها كاملا!

أية حرية تحظى بها حفيظة وهي بلا هوية! إن التقت بفاتح عند باب كباريه لن يتعرف عليها، فلا دليل يثبت من تكون!

وعند عودتها إلى البيت تبقى لأيام حريصة على تغطية رقبتها وذراعيها خوفا من أن تفضحها البقع الحمراء والزرقاء التي تطل من هنا وهناك، وما خفي أعظم! يحدث أيضا أن تقوم من حين لآخر بزيارة أختها رقية في سيدي بلعباس، وتغيب لأيام دون أن يعلم أحد متى وصلت إلى هناك ومتى عادت، وأمها تدعمها إن اعترض فاتح وناصر على ذهابها، بحجة أن رقية لا تزورهم إطلاقا، وتلك فرصة لن تفوتها لتبيت مع عشيقها.

زوج رقية دركي ويعرف جيدا نشاط شقيقها الإرهابي منذ البداية، وقد أقسم منذ سنوات ألا يدخل بيت حماته من جديد بعد تصادمه مع فاتح بسبب فتاويه الغبية. هو رجل أمن مخلص جدا، نجا مرتين من عمليات إرهابية، مرة من انفجار قنبلة على موكب الدرك، ومرة في مواجهة بالرصاص مع الإرهابيين، وفي جسده ما يكفي من آثار

الجروح التي تذكره بذلك، وقد فقد عشرات الأصدقاء والزملاء في مهنته، لذا لا يتحمل لقاء فاتح.

رقية مثل رياض، إنسانية وحكيمة، لم تعارض زوجها على موقفه ولا خاصمته في الموضوع. يحيرني دائما كيف يختلف أبناء الرحم الواحد؟!

بين تلاميذي الأربعين وأبنائي الأربعة، مازلت أوزع ما تبقى لي من الحب والحنان. انتقلت إلى مدرسة قريبة من المنزل، وهي مكتظة أكثر من السابقة كونها موجودة في حي شعبي كبير. تدبّرت مربية، وهي جارتنا الساكنة في الطابق الأرضي. أترك لها في كل صباح نور الهدى وإسلام لتعتني بهما دون مقابل إشفاقا علي، فمنذ سنوات وهي تستمع لنواحي وضربات رأسي على الحيطان التي تهتز لها أركان بيتها أيضا، وهي تعلم بأنه لا مال لدي لذا تتعاون معي من باب الشفقة فقط.

أمال بدأت الدراسة وآخذها معي كل يوم، أما محمد فلا أخاف عليه كثيرا ما دام محبوب جدته وفاتح، فهما يرعيانه جيدا لأنه كما تقول حماتي دائما:

- هو منّا ولنا، لأنه ابن ابننا..

بالله من يستطيع فهم هذه العقلية!

أجرّ نفسي يوميا إلى المدرسة جرّ الميت الذي لا رجاء فيه. ألبس دائما نفس الحجاب، ونفس الخمار، ونفس الحذاء، حاملة محفظة مقطعة بالية.

لا أمشط شعري الذي التهمه الشيب من كل الجهات إلا نادرا، خاصة بعدما قصصته بنفسي كي لا يسحبني منه ناصر الذي لم يلحظ أصلا أنني قصصته! من قال إننا نشيب ونشيخ عندما نكبر في العمر؟ إنما يحدث ذلك عندما نكبر في الأحزان..

بدأ العنف يمتد الآن مني إلى ابنتي أمال، فكم مرة ضربها فاتح. أما محمد فقد أصبح مع الأيام حقا ابنهم لا ابني!

ذات مساء لعين، كنا في عطلة نهاية الأسبوع، وكنت مبعثرة ما بين الطبخ، والغسيل، وحمام الأطفال، ومذكرات التلاميذ، وأشغال أخرى.

غلّيت الحليب ووضعته على مائدة صغيرة، وكنت سأسكبه للأولاد وهم يلعبون في الغرفة عندما دفعوا بالمائدة وسال الحليب الساخن على ذراع محمد. بكى وصرخ بما أوتي من قوة وأنا لا أعرف ماذا أفعل. جريت به إلى الدوش لأسكب عليه الماء البارد.

ناصر وفاتح وأمهما كانوا في الصالون، لحقوا بي جميعا وخرجت من فم حماتي جملة كريهة لا تحتمل:

- أيتها الأم المهملة، يا أسوأ امرأة في الدنيا، أتحرقين أولادك أحياء!

أخذ ناصر وفاتح ابني إلى المستشفى وبقيت أنا تحت رحمة حماتي التي لا تتعب من الكلام. بعد عودتهما وضعاه عندها في الصالون، أردت رؤيته والاطمئنان عليه لكن فاتح وحماتي أسمعاني من عبارات الذل ما لا يخطر على بال. محمد يبكي من حروقه التي قال الطبيب إنها

من الدرجة الثانية وأنها ستتعافى مع الوقت، وأنا أبكي من حروقي النفسية التي لا دواء لها ولا شفاء.

قبض ناصر ذراعي قبضة مفترس وأدخلني إلى الغرفة:

- أين كنت؟ ماذا كنت تفعلين؟ كيف تحرقين الولد؟
- إنه حادث منزلي واردٌ جدا. كيف لي أن أحرس أربعة أولاد في مثل هذا العمر في غرفة صغيرة كهذه، فيها نومنا وأكلنا وطهينا! لو لم أكن حريصة جدا لهلكوا جميعا قبل اليوم في حوادث لا تحصى.

صفعني ثم شدني من شعري وبدأ يضرب رأسي على الجدار، وأنا أستنجد لم يأت لنجدتي أحد! عند الضربة الثالثة سمعت صوت شيء تكسر في وجهي.. إنه أنفي!! أغمي علي للحظات والدم يسيل من أنفي.

رغمًا عنهما أخذاني إلى المستشفى، وفي الاستعجالات عرف الطبيب سريعا أنها حالة عنف، وألحّ عليّ بالتبليغ. أنكر ناصر الموضوع وقال له أني سقطت من أعلى الدرج، لكن الطبيب الذي عرف من كدمات وجهي أني تعرضت فعلا للضرب أصرّ على التبليغ، وأمر ناصر الذي لم يكف عن النكران بمغادرة المكتب ليفحصني على مهل ويحصل مني على اعتراف، لكن ناصر ثارت ثائرته حينما سمع طلب الطبيب ودخل في شجار معه.

اقتحم فاتح المكتب دون إذن، واستفسر ما الأمر، وأخبره ناصر أن هذا الطبيب قليل الأدب، قد طلب منه مغادرة المكتب ليبقى معي وحده! قبض فاتح على صدر الطبيب وراح يخنقه:

- كيف تطلب من رجل أن يترك لك زوجته؟

جعل من الأمر قضية شرف!! وأنا على الطاولة أموت وأحيا من الألم وهم يتشاجرون!

تدخل أمن المستشفى وفصل بينهم، وغادر الطبيب مكتبه غاضبا ليبلغ عنهما لدى الشرطة، لأنه تم الاعتداء عليه أثناء أداء عمله. لم تكن نية الطبيب المناوب سوى معرفة حقيقة ما حصل، لأن ناصر لم يدعني أتكلم. لو كان لناصر ذرة شرف ما كان مدّ يده عليّ، أما فاتح فقد قتل عشرات الأرواح البريئة ويتكلم عن الأخلاق!

ممن يريد ناصر حمايتي؟ من الطبيب!! لو فقط يحميني من نفسه، فلا أحد أذاني، ولا أحد سيؤذيني أكثر منه!! تذكرت وسط المعركة أنه سبق لي أن زرت الاستعجالات منذ سنوات بسبب العنف، وقد تنبأ لي الطبيب آنذاك بأني سأعود إليها يوما إن لم أبلغ عن معنّفي وأضع له حدا، وها قد تحققت نبوءته!

جاءت الطبيبة وأرسلتني مع ممرضة لإجراء فحص الأشعة، وتبين أن أنفي كسر وانقسم إلى نصفين. قبل أن يوضع لي الجبس كان وجهي قد انتفخ وازرقّت عيناي وتغيرت ملامحي تماما. أعاداني إلى البيت بعدما تفرج علينـــا الناس في الاستعجالات دون أن أصرّح بأني تعرضت للعنف. في الغد أصبح وجهي منتفخا ومزرقّا لدرجة أن أولادي خافوا مني!

لم أكن أقوى على شيء. مستلقية كالميت في فراشي أردد "يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيا".. ليس الموت بشيء سيّئ، فالموت بالنسبة لي رحمة لا توصف. يا ليتني مت على يد فؤاد، أو في أي حادث، فما أجمل الموت في نهاية الأمر!

لماذا لا أرمي بنفسي أمام سيارة، أو من شرفة البيت، أو أشرب سمًّا! هذه ليست أول مرة تراودني فيها أفكار انتحارية، لكني الآن، وأكثر من أي وقت مضى، أريد الموت وأتمناه.

منذ هذه الحادثة ومحمد ينام مع جدته في الصالون، وفاتح هو من يأخذه إلى المستشفى لتغيير الكمادات لأن ناصر يعمل. حُشي رأسه وهو صغير بكل أنواع الحقد والغل:

- لا تذهب إليها فهي أسوأ الأمهات، أحرقتك وأنت صغير!

هذا ما تكرره عليه جدته يوميا!

لم أستطع حماية أطفالي وتربيتهم كما أريد. كنت دائما ضحية والآن أصبحنا خمس ضحايا..

من قال إن زواجي سترة! إنه فضيحة الفضائح!

تمضي الأيام على عجل كما لو كانت هاربة من قبضة الزمن، وأنا من حال سيّئ إلى أسوأ. إنّ امرأة تعودت على الذل والمهانة لن يطل عليها العزّ فجأة! جسديا، تآكلت من الداخل والخارج، وأصبح كل شيء فيّ يؤلمني. يتناوب الوجع على أطرافي وأعضائي، لا دواء معي ولا مال، وليس من شيء يثير غضب ناصر أكثر من قولي له: خذني إلى الطبيب، فيجيب:

- ما عدتِ تصلحين لشيء!

آهٍ يا طارق، يا حلمًا جميلا لم يتحقق، يا عشقًا قبلُ لم يعشق.. ذكراك كانت فيما سبق تسليني، لكنها الآن أصبحت تعذبني.

ذات مرة كتبت وطارق بخاطري:

«أحبك.. هذا جنون، تمرد، تهورٌ في قراري

أحبك.. هذا السّر أخطر أسراري

أحبك.. هذا ما أبقاني حية إلى اليوم يا أجمل أقداري»

أعدت قراءة ما كتبت وفرحت لأني استطعت كتابة شيء. وضعت الورقة تحت كراس وقمت لأمر ما. عندما خرجت من الغرفة احتاج ناصر لورقة ليدون رقما فراح يبحث بين أوراقي. تحت الكراس لاحت له زاوية ورقة بيضاء، سحبها وقرأها. لم يكن تفتيش أغراضي من عاداته لكن حتى الصدف تأتي ضدي!

عدت إلى الغرفة ووجدته واقفا يحمل الورقة بين يديه. تأملني للحظة ثم بدأ يبحث بين الأوراق ومحاضر التلاميذ ومذكرات الدروس عن كلام يشبه ذلك الكلام، وصرخ في وجهي:

- من يكون؟
- من تقصد؟
- هذا الذي تحبينه يا سافلة!
- لا أحد. إنها أبيات شعرية قرأتها يوما فتذكرتها وكتبتها.

شدني من شعري ووضع الورقة على وجهي:

- قلت من هو؟
- أقسم أنه لا أحد. شِعر حفظته من أيام المدرسة.
- وما مناسبة هذا الشعر الآن؟

عصره الشك عصرا، لكن لا دليل لديه، لذا أشفى غليله بضربي حتى الثمالة، وهو يعرف جيدا أنه من المستحيل أن يكون هو المقصود!

عندما ملّ من ضربي رماني على الأرض قائلا:

- لو تهتمين بأولادك أفضل لك من الشعر!

تذكرت أن هذه ثاني مرة أضرب فيها بسبب الشعر! لا يعرف ناصر أني أحب الشعر أو أحاول كتابته، فهو لا يعرف عني سوى أني زوجته ليلا وخادمته نهارا! لم يدُر بيننا حوار يوما ما بخصوص أي موضوع كان، فحديثه معي ليس سوى أوامرَ أو نواهٍ!

انتهت المعركة والتقطت الورقة وخبأتها في محفظتي. كم وددت لو صرخت في وجهه وقلت له:

- أجل أجل، لدي حبيب، وأحبّه جدا!

لكن هيهات أن تكون لي الجرأة.

في المدرسة يعرف الجميع بأني امرأة معنّفة. في البداية كنت أخجل منهم لكنني تعودت عليهم كما تعودوا هم علي. مرات عديدة سمعت المعلمات يعلقن على أخبار الجرائد:

- يا إلهي، هل سمعتن بالرجل الذي قتل زوجته!

وكنت أرد بجدية:

- يوما ما ستقرأن خبر قتلي أنا أيضا!

كنت أفكر هل النساء المعنفات كثيرات أم أنني استثناء، لكن أخبار الجرائد التي تنقل قصص زوجات قتلن على أيدي أزواجهن أو كسرن وجرحن ليست من صنع خيال الصحفيين. على العكس لن تعرف الصحافة أبدا ولا السلطات الرسمية حجم المأساة طالما تمتنع أغلبية النساء، أو يُمنعن، عن تقديم شكاوى رسمية وإجراء فحص عند طبيب شرعي.

من وضع هذه القوانين البائسة التي جعلت المرأة تحت رحمة أزواج لا رحمة في قلوبهم؟

سمعت فاتح مرارا يردد على ناصر:

- "فاضربوهن".. الله من قال ذلك يا أخي، أتعصي أوامر الله!

فتاوى فاتح وناصر لا تنتهي، يحيكان الدين على مقاسهما تماما. لا شيء يحلو لهما الحديث عنه أكثر من النساء! يكرران دائما نفس الجمل من نوع: الرجال قوّامون على النساء، وانكحوا ما طاب لكم من النساء...

لولا أن البيت ضيق جدا لكان فاتح قد ختم الأربع زوجات منذ زمن! كلما أخطأت حميدة هدّدها بضرّة ثانية! ولأنه لا عمل له ولا شغل سوى مراقبة النساء، والإفتاء في شؤونهن، بلغ درجة من النذالة لا تحتمل.

مرة سمعته يقول لأمه ساخرا، ضاحكا ضحكة صفراء كما يقال:

- يا ليتني متّ شهيدًا في الجبل، لكنت الآن في جنة النعيم محاطًا بحور العين!

كم أشفق على حور العين! هل خلق الله حوريات خرافيات الجمال ليجبرهن على مضاجعة رجال من نوع فاتح وأمثاله! ألا يكفي ما تعانيه نساء الدنيا معهم! لو أنهم فقط يفقهون في الحب شيئًا، فبعضهم كزوجي، لا يجيدون حتى التقبيل! من ينقذ حور العين من هذا المصير! كيف سيتحملن أقبح وأقذر الرجال! على الأقل حياة نساء الدنيا مؤقتة، أما حياتهن فأبدية!!

ابتسمت ساخرة مما قلته في نفسي.

منذ دخولنا في الألفية الجديدة تراجعت العمليات الإرهابية، وبدأت الجزائر تستعيد بعض عافيتها، لكنها مثلي منكوبة، معطوبة، مجروحة، ومكسورة من كل الجهات. ما زلتُ طبلًا يضرب عليه ناصر حسب إيقاعات غضبه، وما زلت العبد الضعيف الذي يعمل ولا يؤجر، والزوجة الوفية المطيعة بجسدها الخائنة بقلبها. وما زال ناصر يضربني كالمعتاد بسبب أو بدونه.

أما أولادي فلا أعرف كيف أربيهم في غرفة مغلقة، بين عقول مغلقة وقلوب مغلقة، وقد بدأ الضحايا الجدد في الظهور..

البداية ستكون مع أمال، الطفلة الهادئة الخجولة. ففي يوم مشؤوم كانت تلعب ككل البنات بما تبقى في أغراضي من أشياء أنثوية قد تسلي طفلة في عمرها: حذاء أبيض بكعب عال ارتديته يوم عرسي فقط، وبقايا أحمر شفاه لم أستخدمه إلا مرة أو مرتين عندما كنت عروسة، وكذا عقد وسوار لا يساويان شيئا. لم يكن عندها دمى أو ألعاب، ولا حتى مساحة كافية للعب. رأيتها تلعب لعبة النساء الكبيرات وشعرت بالأسى وقلت في قلبي:

- لو تعلمين يا ابنتي كم تكبر هموم المرأة وأحزانها كلما كبرت، فلا تستعجلي لتكبري وظلّي طفلة ما استطعتِ.

تركتها تلعب وتعبث كما تشاء، فأنا أشعر بالشفقة عليها لأنها تكبر في جو عنيف كما كبرت أنا. تمشّت متبخترة منتشية بالكعب العالي، وعند المرآة وقفت تحمّر شفتيها. نظرت إليّ بخوف وخجل وقالت:

- أنا عروسة..

ابتسمت في وجهها، وكدت أقول لها إياك أن تفكري في الزواج، ثم تراجعت عن ذلك كي لا أفسد عليها بهجتها، فحينما نكون صغارا نتمنى لو نكبر بسرعة، وعندما نكبر نتمنى لو نعود صغارا!

نبّهتها بألا تخرج من الغرفة وانهمكت في شغلي. كنت أغسل الملابس في الدوش حينما سمعت صراخها فجأة بعدما تلقت صفعة. من فرط رعبي لم أستطع الوقوف، وبصعوبة جريت نحو الغرفة لأجد ناصر يضربها:

- يا سافلة، أنت مثل أمك لا تستحين!

خلّصتها من بين يديه لينقضّ عليّ كوحش:

- هذا ما تعلمينه لابنتك عوض أن تربيها وتلبسيها الحجاب!

- إنها طفلة وهي تلعب لا أكثر!

ها قد عادت قصة الحجاب من جديد!

أمال تحتمي ورائي، وأنا أحتمي وراء ذراعي. وبعد أن كفّ عن ضربي تعانقت مع ابنتي وبكينا بكل ما أوتينا من دموع. كل هذا لأنه لم يحتمل رؤية أحمر الشفاه يلمع على شفتيها! منذ ذلك الحين لم تلعب أمال تلك اللعبة أبدا. كرهتْ أحمر الشفاه، كرهت الكعب العالي، كرهت لعبة العروسة، وكرهت كونها أنثى!!

في الغد ألبستها الحجاب كما أمر حتى لا تتكرر مأساتي، فأنا لم أتحجب حتى شبعت الضرب من فؤاد. حجّبتها لأحميها من أب يفترض أن يكون هو حاميها!

بالية أنا كثوب عتيق، لا شباب بقي ولا جمال، لا أحلام ولا آمال. أجرّ نفسي يوميا إلى المدرسة، أرى كل تلميذ اثنين، أكتب وأنسى، أوراقي ومذكراتي مبعثرة، ولا ذاكرة لي ولا غد..

تهالكت محفظتي مثلي وما عادت تُحمل. تقطّعت يدها، وقفلها ما عاد يقفل، وأصبحت أحملها تحت إبطي. تدبرت لها يدًا من قماش، وقفلا من سلك معدني، لكن لم يصمدا أمام ثقلها. كل يوم أسأل ناصر بعض المال لأشتري محفظة جديدة، لكن بلا جدوى. رآني لاحقا وأنا أجمع أوراقي أسفل العمارة حينما تقطّع اليد الذي فبركته. كان يوما ممطرا وقد تمرغّت أغراضي في الوحل.

حملت لعدة أسابيع بقايا محفظة كما أنا بقايا امرأة. أعرف أن التلاميذ والمعلمين يسخرون منها ومني، لكن ما عاد هناك ما يؤلمني أو يهمني. ثمة درجة معينة من الألم إذا بلغتها لم تعد تشعر بشيء، وقد بلغتها.. حملت أغراضي في كيس الزبالة لعدة أيام أخرى، وذات مساء جاء ومعه أرخص أنواع المحافظ، ورماها في حجري كما لو كنت متسولة وقد أشفق عليّ بصدقة مفرغة من كل إنسانية!

في بداية كل سنة جديدة، ومع وصول عيد ميلادي منتصف شهر جانفي دون أن يتذكرني أحد، أسترجع مع نفسي يوما قال لي فيه طارق:

- كل عام وأنت زهرتي..

أستحضر كل اللحظات التي جمعتنا مع بعض: قُبلته، ضمّته، لمسته، نظرته، كلماته... إنها أطيب ما ذقت في الحياة. قبلة واحدة أحيتني طيلة هذه السنوات العجاف.

من لا حياة له في يومه يقتات على ذكريات الأمس. نحن لا نعيد إنتاج الماضي في قلوبنا لأنه كان جميلا، بل لأننا نعيش فراغا في حياتنا اليوم، ولم يشغلنا بعد ما هو أجمل.

بدأت الأمور تهدأ قليلا. فاتح اقترض بعض المال من أحد التائبين أمثاله ممن عادوا بثروة من الجبل، وفتح محلا صغيرا يبيع فيه الملابس الداخلية للنساء! كانت ظاهرة لافتة وقتها حيث اشتغل كثير من التائبين في بيع الملابس الداخلية للنساء! من يستطيع فهم هؤلاء الرجال، من الجهاد إلى السترينغ! طبعا هو بائع بارع، ويعرف مقاسات النهود والأرداف من أصغر مقاس لأكبر مقاس، وما إن تدخل عنده زبونة حتى يمررها بجهاز السكانير عالي التقنية الموجود في عينيه، والذي يرى به حتى حجم حلمتها! وقبل أن تسأله المقاس الذي تريده، حتى يضع أمامها كل الخيارات، وإذا طلبت منه مقاسا أكبر أو أصغر، جادلها كما لو كان قد أخذ مقاسها بيديه، وقال لها بكل ثقة:

– هذا أنسب لك. عندما تجربينه ستعرفين بأني على حق!

ظاهرة كهذه تحتاج لخبراء فائقي الذكاء لتحليلها وتفسيرها. فمتى، وكيف، وأين، تعلم هؤلاء فن الدانتيل؟!

ناصر هذّب لحيته في المدة الأخيرة، وعاد يلبس البذلات بعدما حظي بترقية صغيرة في العمل، وأصبح ملزما على ارتداء اللباس الرسمي. حماتي وابنتها دوما في الصالون، وأنا دوما في غرفتي، أو بالأحرى في زنزانتي. المدرسة ليست مشكلة، فقد حفظت جميع البرامج لكل المواد في كل المستويات، من السنة الأولى إلى السنة السادسة.

وكتلميذة مجتهدة أحفظ عن ظهر قلب كل الأناشيد والقواعد العامة والخلاصات.

التلاميذ يكبرون بسرعة، يتغيرون، ينجحون، يغادرون، والمعلمون يبقون في نفس المكان وبنفس المستوى. تلاميذي كانوا المشروع الوحيد الذي استثمرت فيه بمحبة ونجاح.

التعليم مهنة عاطفية شديدة الحساسية، حيث يتعلق المعلم بتلاميذ لن يتعرف عليهم إذا لقيهم مستقبلا. سيحبهم جدا ويخاف عليهم، وربما أعطى لهم أكثر مما يعطي لأولاده، وفي النهاية يرحلون جميعا ويتركونه.

التلاميذ أيضا يتعلقون كثيرا بمعلمهم في الابتدائي، باحثين عن الحبّ والأمان، والتشجيع والثقة، وأشياء أخرى لا يدركها سوى المعلم. ثمة تلاميذ يعلقون في ذاكرة المعلم إلى الأبد، إما لشغبهم، أو شغفهم، أو إنسانيتهم.

ولأني لا أقوى على قتل ذبابة، لم أضرب يوما تلميذا أو عنّفته، وعندما ترتفع أصوات التلاميذ طيشًا ولعبًا، أكتفي بالقول لهم بلهجة مستسلمة:

- هذا يكفي الآن. أتريدون إغضابي!

تضحك عليّ زميلاتي عندما أشكو لهن شغبهم فيقلن:

- اضربي، اضربي، فلولا الضرب ما أنجزنا يوما درسًا!

صحيح أن التلاميذ يخافون من الضرب لأن أغلبهم تربى عليه في البيت، ومع أنهم يغلبونني بشغبهم وعصيانهم، غير أني أظل مسالمة

حتى يعود الهدوء إلى القسم. يحدث أحيانا أن أرى معلمة أو معلما يضرب تلميذا فيدهشني أسلوبهم العنيف. أنا لست فقط غير قادرة على العنف، إنما غير قادرة حتى على الدفاع عن نفسي، وهذا أسوأ ما في الأمر!

تخدّرت حواسي وأحاسيسي، وما عدت أستجيب لشيء، مؤلم أو مضحك، حلو أو مرّ، وحتى الموت الذي تمنيته لم يتحقق. وكلما نظرت إلى أولادي وتلاميذي قلت لنفسي:

- ما زال أمامي الكثير لأنجزه، فهؤلاء يحتاجونني ويحبونني بصدق.

أزهر الربيع وأنا ما عدت زهرة الزهرات، ولا فاطمة الفاطمات، إنما بائسة البائسات. في ليلة عادية من شهر ماي، تعشى الأولاد وناموا. جاء ناصر بعد سهرة كلام بلا طعم ولا معنى مع فاتح وأمه في الصالون. ارتمى عليّ بثقله الذي زاد، وراح يدخل ويخرج، وأنا لا جاءني طيف طارق ولا بحثت عنه. انقلب، نام، وشخر حتى الصباح.

رنّ المنبه بجانبي. أفقت وحاولت مدّ يدي إليه لكنها لم تمتد. ظل يرن ويرن واستيقظ إسلام وبدأ يبكي. دفعني ناصر بقوة ثم هزني عدة مرات. لم أستجب فناداني متنرفزا لكن لا حراك لي. أشعل النور وأسكتَ المنبه اللعين وعاد إلي:

- هيا استيقظي يا بقرة!

لو استطعت الكلام لقلت له:

- أنا فعلا بقرتك الحلوب التي تدرّ عليك منذ سنوات!

مشدودة الأطراف، هزني دون أن ينظر إليّ في البداية، وفي اللحظة التي رأى فيها فمي معوجًّا نحو جانب واحد، وعيني مغمضة، وخدي مدفون، لا حراك لي يمينا ولا شمالا، أدرك، وقد أدركت قبله، أنني شللت!!!

طلبوا الإسعاف وعندما حُمِلت حسبت نفسي مت وهذا نعشي. لم أكن واعية بما يحدث، وأصوات أبنائي وهم يبكون تصم أذنيّ. في المستشفى تبين بعد التحاليل وفحوص الأشعة بأني أصبت بشلل نصفي لسبب مجهول! مكثت هناك ما يقرب من ثلاثة أشهر ممددة وعيناي معلقتان في السماء. حسبت أن الأسوأ قد حدث في حياتي، لكن في الحقيقة الأسوأ هو ما لم يحدث بعد.

عندما زارني أبي شدّ يدي وراح يناديني:

- فاطمة الزهراء.. يا فاطمة..

دمعت عيناه ورددت عليه بالمثل لأني لا أستطيع الكلام.

أما بالنسبة لناصر فهذا لا حدث. في البداية كان يأتي يوميا إلى المستشفى، تارة مع أمال ومحمد، وتارة أخرى مع أمه، وبعدما ملّ وضجر أصبح يأتي لوحده كل يومين أو ثلاثة أيام.

الذين أدخلوا البهجة إلى قلبي يوم زاروني هم أهلي وتلاميذي الذين جاءوا جميعا مع المعلمة الشابة التي استخلفتني، حاملين لي رسائل محبة مزينة برسومات للقلوب والأزهار. رسائل تشبه بعضها محتوىً، وتختلف خطًا ورسمًا. قرأت في واحدة منها:

«معلمتي العزيزة

أتمنى لك الشفاء العاجل والعودة إلينا قريبا

أحبك كثيرا»

ولأن شفائي ليس أكيدا، وربما كان بعيدا، اقترحت أمي على ناصر أن تأخذ معها نور الهدى وإسلام ريثما أتحسن قليلا، ولأنه لا حل لديه وافق بسرعة. بعد شهر من التأهيل الحركي في مستشفى البليدة استطعت الجلوس على كرسي متحرك. وبعد شهر آخر وقفت ومشيت بعكازة. ومع نهاية الشهر الثالث خرجت من المستشفى، على أن أواصل التأهيل الحركي حتى أعود لحالتي الطبيعية.

في العطلة الصيفية لم أزر أهلي في بومرداس، ومع بداية شهر سبتمبر مدّدت عطلتي المرضية لأني لم أتعاف بعد. أصرّ عليّ الأطباء الذهاب إلى مركز متخصص في إعادة التأهيل الحركي، وقد أرسلوني إلى أقرب مركز وهو مركز المعالجة بمياه البحر الكائن بسيدي فرج في الجزائر العاصمة. لم أكن أعرف المكان ولا سمعت به، وناصر لم يتقبل الفكرة، ولولا أن الأطباء حذّروه من تفاقم وضعي وبقائي مشلولة لمدة أطول، ما وافق أبدا على ذهابي.

أخذني مرغما، وعند وصولنا اكتشفت روعة المكان، مكان هادئٌ وجميل جمالًا أخاذًا. كان ناصر منزعجا جدا وهو يقدم ملفي ووثائقي عند الاستقبال، فقد حسدني على ما سأكون عليه!

بعد أن استكمل الإجراءات رافقني إلى الغرفة التي سأتقاسمها مع مريضتين، وقبل أن يغادر أوصاني بغباء:

- لا تكلمي أحدًا ولا تغادري لأي مكان!

لا أفهم ممن يخاف عليّ هذا الرجل وهو جلّادي الوحيد! أيخاف أن أهرب منه وأنا نصف مشلولة جسديا، ومشلولة كليا ذهنيا وعاطفيا!

غادر المركز متذمرا لأن روعة المكان قد آذته..

هذه أول مرة في حياتي آتي فيها إلى العاصمة. العاصمة التي تمنيت أن أعيش فيها مع طارق. ربما لا يزال هنا، فبوصلة قلبي تدل عليه، وتقول إنه هنا في مكان قريب.

يحيط البحر بالمركز من ثلاث جهات، وحيثما ولّيتَ وجهك يقابلك. بعد حصص العلاج الصباحية والمسائية أمشي إلى أقرب نقطة أستطيع الجلوس فيها بقربه، ومشهد الشمس الخجولة وهي تغيب في الأفق البعيد، صورة كونية في منتهى الروعة.

هناك تعرّفت على نساء بائسات مثلي وأكثر، وسعيدات حظ أيضا. عادة يأتي إلى هذا المركز ضحايا حوادث المرور وحوادث الحياة، لجبر الكسور وجبر القلوب. في البداية حسبت نفسي لن أصبر على أولادي، لكني في النهاية لم أكن أفكر فيهم كثيرا بقدر ما كنت أفكر في طارق.

زارني والداي وجميلة وعلي ومعهم إسلام، أما نور الهدى فقد أعادوها إلى البليدة من أجل المدرسة. سألت جميلة عن سعاد وأخبرتني أنها نادرا ما تأتي إلى القرية، وأن آخر مرة جاءت فيها كانت تعمل في القوات الخاصة بمكافحة الإرهاب في العاصمة. سعاد في العاصمة لكن كيف لي أن أصل إليها؟

جاء ناصر في أول زيارة لي في عطلة نهاية الأسبوع ومعه كل العائلة تقريبا؛ أمه وأخته، فاتح وأولاده، وأولادي. لم يكن الاستجمام أو

السياحة من ثقافتهم، وما جاؤوا حبا فيّ، إنما حبا في المكان المشهور بروعته. لاحقا زارني مرتين في عطلة نهاية الأسبوع، مرة مع أولادي فقط ومرة وحده.

لكن الزيارة الأروع كانت لشخص عزيز علي فاجأني أجمل مفاجأة. طلبوني في الهاتف من الاستقبال وأخبروني أن شخصا يريد رؤيتي، فتساءلت من يزورني وسط الأسبوع على الساعة السادسة مساءً! نزلت إلى البهو حيث صالون المركز، وقلبي يدق خوفا. هل حدث شيء للأولاد؟

- يا للمفاجأة، أهذا أنت!

ضمني إلى صدره بقوة وقال مازحا:

- أنت محظوظة بإقامتك في مكان جميل كهذا.

رياض هو الزائر، وقد أصبح أكثر وسامة وبهاءً مما كان عليه في البليدة. أمسكت يده وأخبرته كم اشتقت إليه وسعدت برؤيته. ازداد وزنه قليلا وبدت عليه آثار النعمة لا البؤس الذي كان فيه. أوّل ما سألته عنه كان كيف علم بمكاني، وهو الذي ما عاد يزورنا إلا نادرا، يأتي فقط من عيد إلى عيد ليقبّل رأس أمه ويغادر، دون أن يشرب حتى كوب ماء في ذلك البيت، وأنا أشعر طوال الوقت بالذنب اتجاهه.

في الحقيقة غادر رياض البيت لأنه لم يكن منسجما البتة معهم، فلا مكان له في بيت إمام يظل يفتي بعدم جواز بقاء المرأة مع غير محرم، وهو يعرف جيدا بأنه المقصود، وأنه غير مرغوب فيه إطلاقا، لذلك كان سيتركهم عاجلا أم آجلا، وتلك المرة كانت فرصة لا غير. ورغم كل شيء تظل تلك عائلته الوحيدة، وأهله الذين لم يخترهم.

لدى رياض جميع أخبارنا لأنه يتواصل بشكل مستمر مع صديق له من أبناء جيراننا، وهو من يعطي له جديدنا بالتفصيل، فلا خبر يخفى في عمارتنا التي يظل فيها الجيران يتفرجون علينا.

زيارة رياض كبلسم على الجرح. طلبت منه أن يسامحني لأني كنت سببًا في ضربه، فقاطعني طالبا هو السماح لأنه لم يستطع حمايتي منهم وإنصافي أمامهم. قمنا بجولة في المكان ثم غادر واعدا إياي بزيارة أخرى، وقد عاد فعلا بعد أيام.

من قال إن كل الرجال يشبهون بعضهم البعض! طارق مختلف، ورياض مختلف أيضا. ثمة رجال رائعون حقا، لكن حظي معهم كان سيئا جدا!

قضيت هناك ثلاثة أسابيع، تعافيت خلالها بالشمس، والبحر، وحصص التدليك والرياضة، والبعد عن مسببات القلق، والقرب من الحبيب حتى وإن لم أره.

غادرت المركز بعدما أحببت المكان، وتعلقت به وبمن لاقيتهم فيه. وبعد مدة قصيرة عدت إلى حالتي الطبيعية، واستأنفت العمل من جديد.

في الأشهر الموالية حدثت بعض الشجارات العنيفة مع ناصر، ومع حفيظة التي تصبّ عليّ جام غضبها كلما اشتاقت لعشيقها. وأيضا مع حميدة التي تجبن كدجاجة أمام فاتح وتتحوّل لأفعى أمامي. وكذا مع فريدة التي باتت لا تغادر بيت أمها تقريبا.

ازداد وزني وترهلت بشرتي. شَعري الذي التهمه الشيب نادرا ما أمشطه. أرتدي يوميا نفس الحجاب، ونفس الخمار، ونفس الحذاء. لا

كحل، لا عطر، لا كريمة وجه، لا مرطب يدين. أظافر مكسورة وجوارب مثقوبة. معلمة بائسة بؤسًا لا يوصف!!

أربعون تلميذا وأربعة أولاد، وملايين من الديدان تأكل دماغي وعينيَّ من الداخل. قلب ينبض بلا حياة وبلا جدوى. ميتة أنا أو شبيهة بالأموات..

تردّد بعض النساء أمامي ممن يعرفن مأساتي جملة غبية مثلهن:

- تزوجتِ ولديك أولاد وهذه هي الحياة، فماذا تريدين أكثر؟! أنت مستورة والحمد لله!

أجنّ كلما سمعت هذه العبارة. من قال إن الحياة هي الزواج والأولاد فقط! بعد الزواج والأولاد يقف المرء أمام قدره مفجوعا: أهذه هي الحياة في النهاية! أهذا كل شيء!

في السرير فقدت قدرتي على استحضار طيف طارق، وإحساس القرف واللامبالاة لا يفارقني. لم أعد أشد ناصر أو أعانقه ظنا أنه طارق. أتمدد كجثة لا حياة فيها بلا حراك ولا نفَس، مستسلمة له ولقدري.

لم يبحث يوما عن شَعري، أو نهدي، أو خصري. مكان واحد فقط يبحث عنه في حلك الليل والأولاد نيام، وربما لا! يدخل ويخرج، ويدخل ويخرج، ثم ينبطح على ظهره، ويسهّرني بشخيره حتى الصباح!

يتذمر كثيرا كلما احتجت لزيارة الطبيب، لأنه مجبر على شراء الدواء ودفع ثمن الفحص، مع أنه لدي تأمين صحي ولا يدفع سوى مبلغ ضئيل جدا، لكن اصطحابي إلى الطبيب في كل مرة إزعاج كبير بنظره، ودفع شيء من المال لأجلي هو إهدار كبير أيضا!

وبعد مرور عدة أشهر أخرى، وبالضبط في الواحد والعشرين ماي 2003، اهتزت الأرض تحتي قبيل المغرب. ارتجت الفناجين القابعة على الرفوف منذ عشرات السنين في أثاث الصالون وأخذت تتراقص وتغني، وحماتي تنادي وهي تتأرجح فوق كنبتها:

- زلزال زلزال!!!

بعد لحظات طويلة ومخيفة، توقفت الهزة ولم يتوقف رعبي.

سقطت بعض الأواني، ومع سماعي انكسار الزجاج انكسر شيء ما في داخلي. تدافع السكان في السلالم للنزول أسفل العمارة، وتجمعوا كحشود مرعوبة في يوم القيامة. لا توجد انهيارات في الحي مع أن الهزة كانت عنيفة وشعر بها الجميع. ناصر وأطفالي جميعا حولي ومع ذلك لم أكن بخير. مركز الزلزال في مدينة بومرداس يقول التلفزيون، وقد أصبح الآن في مركز قلبي!

في المساء بدأت الأخبار تصلنا. أعلن التلفزيون في البداية عن وجود عشرات الضحايا، ثم بعد ساعة، أصبحوا مئات، ثم آلاف... لا خبر عن أهلي، وأنا لم يغمض لي جفن تلك الليلة، وبطني يتقطع من الخوف. الحدس ليس فقط حاسة سادسة، إنه حاسة متلفة للأعصاب أيضا.

في صباح الغد وصلنا الخبر. لقد مات أبي تحت ركام دكانه! آلمني دائما يُتم الحبيب لكن يُتم الوالدين أوجع بكثير! البكاء لا يكفي، لطم الخدين لا يكفي، الصراخ لا يكفي، لا شيء يكفي للتعبير عن وجع لا حدود له ولا نهاية. من سيدافع عني بعد الآن؟ من سيحميني؟ من سيخاف علي؟ لمن تركتني يا أبي لمن؟

مات أبي، أما أمي فقد كانت في الفناء مع خديجة وأولادها لحظة الزلزال وهم جميعا بخير، في حين أصيبت جميلة بكسر في الذراع وجرح في الرأس بعدما سقطت عليها خزانة الغرفة. علي ورشيد كانا في الخارج ولم يصبهما شيء، في حين أصيبت زوجة عمي وإحدى بناتها إصابات خطيرة وهما في المستشفى. في قريتي بعض الموتى وكثير من الجرحى، أما في قورصو البحرية، فأختي نصيرة وأولادها وزوجها بخير، عدا بعض الإصابات الخفيفة التي أصابتها هي، لكن عائلة زوجها ليست كذلك فقد فقدت أربعة أشخاص.

أكثر من ألفي قتيل، وعشرة آلاف جريح، ومئات البنايات المهدمة، بزلزال بلغت شدته 6.8 على سلم ريختر. دمار شامل في بومرداس وآخر في قلبي..

الآن تسلّل الحزن عميقا في داخلي، حتى أصبح شجرة أحزان تطول أغصانها كل يوم. تعافيت من الشلل لكني لن أتعافى أبدا من موت أبي.

لا أحد يلعب بالزمن، فهو اللاعب بنا، وهو الرابح دوما. الحياة مليئة بالأسرار ولم يعد أحد من الموت ليخبرنا ماذا هناك بعدها. نحن لا نكتشف ما يحمله لنا المستقبل إلا لحظة نعيشه، ولو أن القدر يسرب لنا خبرا واحدا فقط مما ينتظرنا، لأخذنا بعض الاحتياط، وصححنا بعض الأخطاء، واغتنمنا بعض الفرص، لكن القدر سرّ الأسرار كلها..

في صيف عام 2004 زرت أهلي، لكني لم أمكث أكثر من أسبوع رغم غياب فؤاد وهدوء رشيد. سعاد لم تأت خلال تواجدي هناك، وبيت أبي بدون أبي لم يعد بيت أبي.. لذا لم أحتمل البقاء فيه.

وفي بداية شهر سبتمبر كنت منهمكة في أشغالي التي لا تنتهي، وناصر عاد ذات مساء مبتسما على غير عادته، وفي يده مفتاح كبير وعلبة حلويات. جلس في الصالون ونادى:

- تعالوا يا أولاد لتأكلوا الفال.. أبوكم اشترى سيارة!

نظر إلي من بعيد منتظرا تعليقا مني، لكني لم أقل شيئا. سيارة جديدة فاخرة بمالي ولن يركبني فيها إلا للحالات الطارئة، أما المدرسة فأذهب إليها يوميا راجلة وهو يتفرج.

فكرت بأن كل أنواع المآسي قد حدثت في حياتي، وبإمكاني الآن التفاؤل قليلا؛ افترقت عن حبيبي، تزوجت أسوأ أنواع الرجال، وفقدت أبي، فماذا أكثر من هذا!

ما أضعف الإنسان، يفكر ويخطط، يرسم ويأمل، ولا تأتي بالحقيقة سوى الأيام! كم مرة قرأت في بقايا جريدة برجي وهو يقول: ستلتقي بالحبيب، وتحصل على علاوة مالية، وخبر سار في طريقه إليك. لا شيء من هذا حدث، ومع ذلك أصدق دائما ما تقوله الأبراج، وأتعلق بالأمل الذي تعطيني إياه!

من فرط حزني خفت أن أستيقظ ذات صباح مشلولة مرة أخرى، فما وجد الأطباء سببا واضحا لشللي تلك المرة، وأنا أعرف أن السبب هو تراكمات أحزاني. كنت دائمة التفكير في شخص واحد والآن أفكر في اثنين: طارق وأبي. مع كل منهما لدي ذكريات جميلة ومواقف جميلة.

***

شيء ما يتكور في صدري ويكبر، ربما قلبي ليس بخير. أنا دائمة الشك بأن قلبي مريض، لكن لا وقت لدي ولا مال لأقوم بفحص.

من حين لآخر أشعر بوخز كضربة كهرباء خفيفة في الجهة اليسرى، ولم يتبين لي بالضبط مصدره. في لحظة خاطفة، تفحصت قلبي بيدي، ثم أخرجت نهدي وتأمّلته. لا شيء غير عادي، نهد حزين يتدلى نحو الأسفل بعدما كان منتصبا نحو السماء. نهد ضاع شبابه ولم يغازله أحد بعدما أدى دور الأمومة على حساب الأنوثة! أعدته إلى مكانه وانصرفت إلى شغلي.

بعد أسابيع قليلة انتفخ ذلك النهد وشدني فيه ألم رهيب. أخذني ناصر إلى الطبيب متذمرا، وطوال الطريق وهو يشكو:

- أنت دائما مريضة، أتظنين أنه لا شغل لي سواك!

طلبت مني الطبيبة إجراء فحص الماموغرافي في مركز للأشعة. بعد الفحص سلّم طبيب الأشعة لناصر ظرفا كبيرا وألح عليه أن يأخذه حالا لطبيبتي حتى تطلع عليه. عدنا إلى الطبيبة وهو أشد تذمرا، أعطيتها الظرف، قرأته ثم قامت ونادت على ناصر طالبة منه الدخول إلى مكتبها. هذه أول مرة تطلب رؤيته، وأنا لا فكرة لدي ماذا تريد منه، وملامحها وصوتها يعلنان عن شيء جدّي وخطير:

- يؤسفني سيدتي أن أخبرك بأن لديك ورماً خبيثاً. أعني أنه سرطان!!!

ما إن سمعت كلمة "سرطان" حتى أغمي علي وسقطت من فوق الكرسي.

نتمنى الموت وعندما يقترب منا يقتلنا الخوف منه! ليس خوفا من الموت في حد ذاته، إنما حزنا على حياة لم نشبعها حتى وإن كانت مُرّة!

استقبلت عام 2005 بالعلاج الكيميائي. فقدت وزني وشعري، اصفررت وذبلت كورقة خريف. متّ وشبعت موتًا، ومع ذلك ما زلت على قيد الحياة.. من عطلة مرضية لأخرى، أقضي الساعات الطويلة ممددة بين الآلات والآهات. وبعد سنة تقريبا من العلاج الكيميائي الذي جاء متأخرا، أجريت عملية لاستئصال الورم في مستشفى البليدة.

زارني تلاميذي جميعا بعد الدوام مع معلمتهم الجديدة، وكذا زميلاتي في المدرسة والمدير، وتركوا لي المزيد من الرسائل الجميلة المزينة بالقلوب والأزهار بكل الألوان والأحجام.

جاءت أمي مع جميلة وعلي، وأبي يرافقهم بطيفه وهو مقهور من أجلي، فآخر مرة تحدثت فيها معه قال لي:

- لو أن الزمن يعود للوراء ما زوجتك لهذا الرجل أبدا.

سألت جميلة هل من أخبار، وترددت في أن تزف لي شيئا، ثم نطقت بخجل:

- يجب أن تتعافي بسرعة لتحضري عرسي قريبا!

تبسمت بوجع لأن عضلات وجهي نسيت كيف تتبسم.

وشوشت لي بأنها تعرفت مؤخرا على شاب عند طبيب العظام الذي تعالج عنده يدها المكسورة، وهو أيضا من المصابين في الزلزال ومكسور من إحدى رجليه، وقد جاء وطلب يدها من رشيد ووافق عليه. فرحت جدا لأجلها، أما هي فكانت كمن سقى شجرة ميتة من الجفاف فأورقت من جديد.

دنت مني ووشوشت لي مرة أخرى:

- أتعرفين بمن التقيت مؤخرا؟ إنه صديق طارق، ذاك الذي يعمل في محل الهاتف العمومي، والذي رافقنا إلى الصخرة السوداء ثم إلى المستشفى، أتذكرينه؟ لقد فتح محلا لبيع ملابس النساء في وسط المدينة، وقد دخلت عنده صدفة مع ابنة عمي عندما كنت عائدة من الطبيب ذات مرة. سألته عن طارق وقال بأنه اشتغل في الجزائر العاصمة عدة سنوات بعد أن أنهى دراسته، ثم التحق بإحدى الشركات في الصحراء وهو لا يأتي إلى بومرداس إلا قليلا، خاصة بعدما رحل والده من البيت القريب من البحر، لكن صديقه يقول أنه فقد التواصل معه منذ أكثر من عامين. وقد سألته حتى عن الشيخ طاهر، إنه بخير وما زال حارس الصخرة السوداء وحاميها، فإن لم يكن يصطاد فهو يتطوع بتنظيف المكان وجمع القمامات وهو يغني. أما سعاد فقد أصيبت بالرصاص أثناء تبادل للنار مع مجموعة من الإرهابيين الذين لا يزالون في نشاط في مداهمة لأحد مخابئهم، وقد أمضت عدة أشهر في المستشفى العسكري بعين النعجة لكنها بخير.
- هذه أخبار كثيرة وقلبي لا يتحمل يا جميلة!

زارتني أيضا أختي نصيرة وزوجها ومعها هدية صغيرة:

- خذي، أظل قلقة عليك ولا أعرف كيف أتصل بك. هذا هاتف وفيه شريحة وبعض الرصيد.

وأخيرا وصلتني التكنولوجيا، ولو أني لا أعرف عنها شيئا! انزعج ناصر عندما وجد الهاتف عندي، فقد ذكّره ذلك كم هو جاحد معي،

فهو لم يفكر في الأمر مع أني أحتاجه جدا، لكنه لن يأخذه مني لأنه هدية من أختي. كما زارني أيضا، رياض وصديقه من أبناء الجيران الذي يبلغه دائما بأخبارنا.

مرغمًا وكارهًا يأخذني ناصر إلى الطبيب. يتأفف ويتنهد ويذكرني أني أتعبته وشغلته عن أعماله. أصبح لسانه سليطا لحد لا يعقل. عندما أخذني إلى المستشفى لم أسمع منه كلمة طيبة ولا حتى دعاءً بالشفاء! تناقص عنفه الجسدي معي قليلا لأنه يتوقع بأني على الأرجح سأموت قريبا، فقليلون هم الذين يصمدون أمام هذا المرض، وأنا مثله كنت مؤمنة بأن أجلي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى.

شهر في المستشفى، وشهران في البيت كانت كافية لتخديري. البقاء في الفراش وانتظار ملك الموت أمر ممل فعلا! لذا قررت العودة إلى العمل لأموت في القسم أو في الطريق أو في أي مكان آخر، المهم ألا يجدني مستسلمة في فراش بارد. كنت جبانة طوال حياتي فعلى الأقل لأمت بشيء من الشجاعة!

اشتقت لتلاميذي الذين فرحوا بعودتي وأقاموا حفلة صغيرة بالمناسبة. في تلك الأيام سمعت حماتي تعلق:

- بعد كل الذي حصل معها لا زالت هذه المرأة لا تستحي. تعوّدت على الطرقات لذا عادت إلى العمل!

كنت سأردّ عليها:

- عدت إلى العمل هروبا منك ومن أولادك وبناتك!

لكني تراجعت وبلعت جملتي.

وكمن تعافى أو في طريقه إلى ذلك، تدفّق الدم من جديد في شراييني وبرزت بعض الحمرة على خدودي. في عرس جميلة بكينا بقدر حزننا وفرحنا، فعزيز لا يغيب عن خاطر جميلة للحظة، وطيف أبي يحوم حولنا ويذكرنا كم كنا محظوظات عندما كان هنا. لا موسيقى ولا زغاريد، فرشيد ما زال يفتي بالحلال والحرام، والحزن لا يزال يخنق حناجرنا. لا خبر عن فؤاد، ولا عن سعاد التي تمضي أيامها بين المعارك والمستشفيات.

زفت جميلة بفستان أبيض كما تحلم كل النساء، حزينة لكن متفائلة بعريسها الجديد الذي لن يأخذها بعيدا عن بومرداس. طبعا لم أقدم لها هدية تليق بها، فقبل أسبوع من عرسها طلبت من ناصر بعض المال لأشتري لها شيئا، فثار بركانه وعايرني حتى الشماتة عندما ذكّرته أني أطالب بمالي وليس بماله:

- دراهمي دراهمي.. تظلين تنبحين! أتعرفين كم صرفت عليك خلال كل هذه السنين؟ هذا طبيب القلب، وهذا طبيب العيون، وهذا طبيب النساء، وهذا طبيب العظام... أنت حقا جاحدة!

أجبته:

- لو كنت في هناء ما كنت أصبت بكل هذه الأمراض ولا احتجت للأطباء!

أنا مؤمّنة صحيا تأمينا كاملا منذ أن أصبت بالسرطان، ولا يدفع عني شيئا، أما العملية فكانت مجانية لأني أجريتها في مستشفى عمومي. لم يشتر لي شيئا من يوم تزوجته سوى حجاب طويل عريض ككيس دقيق، ومحفظة مدرسية رخيصة مثله! أظل أقترض المال من زميلاتي اللواتي تعبن مني ومن طلباتي.

كمتسولة في المدرسة أجوب المعلمات بحثا عن بعض المال، الذي ما كنت لأقترضه إلا لضرورة قصوى، فمن أين لي أن أردّه لولا أن أختي نصيرة تساعدني من حين لآخر مما يعطيه لها زوجها السخي جدا معها.

لم يضربني هذه المرة، وفي المساء عاد بهدية كبيرة وخفيفة كحقيبة سفر فارغة، فقد اشترى أرخص غطاء سرير صادفه في أول محل!

بعد عودتي من عرس جميلة حيث أمضيت أسبوعا كاملا في بيت أهلي، وجدت أحلى المفاجآت بانتظاري: لقد رحل فاتح من البيت! قصة لا تعقل كيف حدث ذلك.

عاد شقيق ناصر الأكبر، عبد الله، من فرنسا في زيارة مفاجئة، وهو الذي غادر الجزائر عام 1994 بعد شجارات عنيفة مع فاتح الذي تأسلم وبدأ يفرض قوانينه الجديدة في البيت. عبد الله لم يسكت ولم يخضع للفتاوى التي حرّمت كل شيء، وجعلت الحياة في ذلك البيت مستحيلة. موجة التطرف والتعصب تسببت في انقسامات كبيرة داخل آلاف العائلات الجزائرية التي لا يتفق فيها الجميع على هذا الفهم الجديد للدين والتدين، وهذه العائلة ليست استثناءً.

عبد الله نقيض فاتح في كل شيء، متفتح، ضحوك، يحب الناس، يحب الحياة، ومتمرد كبير أيضا. غادر الجزائر غاضبًا ساخطًا لأنه لم يستطع تحمل العقلية الجديدة التي تحكم الحياة في البيت وخارجه. غادر وليس في جيبه مال أو دبلوم، وفي فرنسا تسكع طويلا، وجاع وبرد ونام في الشوارع قبل أن ينتقل من عمل لآخر ومن إقامة لأخرى. عاش هناك متخفيًا عشر سنوات، حتى حصل على وثائق

الإقامة. وخلال تلك السنوات لم يفكر أبدا في الرجوع إلى الجزائر، وهو يتفرج على أخبارها الدامية في فضائيات العالم، وما جاء به الآن سوى الشوق والحنين، فقد استقر منذ مدة على وظيفة، وإقامة، وصديقة.

فاتح الذي ابتسم له ابتسامته الصفراء ورحّب به ترحيبا باردا، لن يتحمل رؤيته يحوم ويجول في البيت بضحكاته المتعالية، وسيطلب منه بكل وقاحة أن يذهب إلى فندق لأنه ليس بمَحرم على زوجته التي لا يرضى بأن يصادفها ولو متجلببة!

هذا هو نفس الكلام الذي قاله له منذ سنوات وتشاجرا بسببه شجارا عنيفا. وكذلك فعل مع رياض الذي كان لا يزال تلميذا في الثانوية عندما بدأ يلمّح له أنه غير مرغوب فيه! قبِل بوجود ناصر فقط لأنه يشبهه في العقلية ومتزوج، وهو الذي سعى أصلا لزواجه.

لم يتحمل عبد الله سماع هذا الكلام مرة أخرى وأقسم بأنه لن يغادر البيت، ولعن فاتح والفتاوى التي تطرده من بيت أمه وأبيه كي لا يلتقي بزوجة أخيه!

- إن كنت خائفا على زوجتك مني فخذها وارحل، أما أنا فهذا بيتي أيضا، وإني قررت ألا أعود إلى فرنسا وسأستقر هنا إلى أبد الآبدين!

تشابكا وتسابا وتفرج الجيران كالعادة.

ليس بنية عبد الله البقاء في الجزائر إطلاقا، لكنه لم يحتمل طرده من بيت والديه في أول يوم وصل فيه بعد غياب دام اثنتي عشرة سنة! لقد عاد مشتاقا ومتحمسا على أمل أن العقليات قد انفتحت قليلا، لكن

الصدمة جعلته يقرر ألا يعود أبدا مرة أخرى، ومع ذلك سيقول العكس لفاتح فقط من أجل إذلاله.

فاتح يعرف بأن عبد الله عنيد ولن يخضع له هذه المرة، لذا تدبّر شقة صغيرة وجمع أغراضه ورحل رغما عنه. لم أكن أعرف عبد الله، وعندما عدت كان قد بقي له يومان فقط قبل الرحيل. دردشنا قليلا وسألني كيف قبلنا بأن يتحكم فاتح في أنفاسنا خلال كل هذه السنوات لكني لم أشرح له شيئا. كنت ممتنة جدا له لأنه أجبر فاتح على الرحيل، وهذا أجمل حدث في حياتي منذ سنوات، ومن أجل ذلك يستحق مني أجمل هدية، لكني لم أستطع حتى أن أقول له شكرا، لذلك اكتفيت بطبخ ما يحبه من الأكل الجزائري الذي اشتاق إليه كثيرا.

ناصر يستعيد شبابه يوما بعد يوم. اشترى عدة بذلات جديدة، وربطات عنق، وأحذية، وعطرا من ماركة عالمية. لحيته التي هذبها في السنوات الأخيرة حلقها كلية الآن، وترك بعض الشوارب الخفيفة فقط. ساعة ضخمة، وهاتف محمول من آخر طراز. ربما هذه بعض ثمرات ترقيته الأخيرة التي جعلته رئيس مصلحة بمديرية الضرائب، فقد أصبح رجلا مهما ومطلوبا لدى التجار ورجال الأعمال بعدما كان موظفا بسيطا.

يقف أمام المرآة طويلا قبل الخروج ويعود متأخرا في المساء. يبدو بخير. بألف خير يبدو. هو يزداد شبابًا وأنا أزداد شيبًا. أعرف بأن لديه عشيقة، فكم جاءتني الأخبار من المعلمات والجارات أنه شوهد عدة مرات مع فتاة في سيارته. لم أفتح معه الموضوع لأنه لا غيرة عندي عليه، وما عدت أطيق الجنس معه، وقد أراحتني هي منه لأنها تشغله عني قليلا، إن لم أقل أنها تشغله كثيرا.

هو أيضا ما عاد يطلبني في الفراش، ليس لأن شهيته الجنسية تراجعت، إنما لأنه تقزز من روائح أدويتي، ومن فقداني لشعري وحاجبي ورموشي لفترة بسبب العلاج الكيميائي، وربما بدوت له قبيحة جدا.

المرأة السعيدة تزداد جمالا كلما كبرت وإن كانت قبيحة، والمرأة التعيسة تزداد قبحا كلما كبرت وإن كانت جميلة..

نادية هي إحدى زميلاتي المقربات في المدرسة، تعرف كل شيء عن حياتي منذ وصولي إلى البليدة، وهي أول من نبهني للأمر. تذكّرني يوميا بأن بيتي مهدد ومالي مبدد على عشيقة زوجي، غير مستوعبة سكوني ولا مبالاتي. نادية من ذلك النوع من النساء اللواتي يمتلكن الخريطة الديمغرافية للمدينة بأسرها، تعرف كل الناس، ولديها كل الأخبار، السرية منها والعلنية. قالت لي مرة وهي واثقة:

- إن شئتِ أتيت لك بخبرها من تكون قبل أن يرتد طرفك إليك!

تحت ضغطها وإلحاحها تذكرت أن في نفسي حاجة أتوق لمعرفتها فأجبتها:

- إذن فلتأتيني بخبر واحد فقط، فكل ما يهمني معرفته هو إن كان يقبّلها أم لا!!!

ضحكتْ وضحكتُ معها ضحكًا هستيريًا لا يوصف. منذ سنوات لم أضحك حتى وجعني بطني. بكيتُ من الضحك وهي لم تستوعب طلبي، وأنا لم أشرح لها شيئا. توسلت إليها أن تأتيني بهذا الخبر فهو كل ما أريد معرفته. من فرط دهشتها سخرت مني، لكنها وعدتني أنها ستأتيني حتى بعدد القبل التي قبّلها!

بعد أقل من أسبوعين جاءت نادية بالخبر اليقين:

- اسمها نجاة، عمرها ثمان وعشرون سنة، موظفة بمركز البريد. ليست جميلة فهي لا تشبه شيئًا، لكنها تعرف جيدا ما تريد. لن تمنحه دينارا من مالها أبدا، بل هي من تلتهم ماله التهاما. تحب المطاعم الفخمة، والهدايا الفخمة، والسيارات الفخمة. تعرف بأنه متزوج ولديه أربعة أولاد، ولا يزعجها الأمر، فهي لا تريد إطلاقا أن تكون زوجة أولى في حياة رجل، إنما زوجة ثانية، بعدما أكدت التجارب أن الزوجة الثانية دائما أوفر حظا ودلالا من الأولى! أنتِ لم تطلبي مني هذه الأخبار لكن اعتبريها هدية مني أي Bonus! أما ما سألتِ عنه، فاعلمي أنه قبَّل كل شيء فيها: أنفها، وأذنها، وتحت إبطيها، وتفاحة ما بين ساقيها، وحافر قدميها... هذا كل شيء، ولا تسأليني كيف عرفت بذلك، فهذه أخبار الهدهد!

ضحكتْ ثم أكملت:

- لا تشكّي في مصادري. صديقة نجاة المقرّبة هي أيضا صديقة أختي. أفهمت!

ما فهمته أنه على المرأة أن تبقى كتومة حتى مع تلك التي تعتبرها صديقة!

بقيت للحظات مدهوشة صامتة وأنا أحلل ما أسمع. أوّلا لماذا يحلو له تقبيل عشيقته لا زوجته، ففي البدايات كنت جميلة وغضة! ثانيا كيف يمكن بهذه السهولة والسرعة معرفة أخبار الناس وأسرارهم! تبدو لنا المدينة كبيرة لكنها في الحقيقة صغيرة جدا. نادية

تعرف بأني لن أبحث عن هذه المرأة ولن أفاتح ناصر بالموضوع، لذا سرّبت لي هذه الأخبار مطمئنة.

نادية من المعلمات القليلات اللواتي عرفتهن بمثل تلك القوة والثقة، مالها في يدها، ورأيها على لسانها. كلما ذهبتُ إلى المدرسة منتفخة الوجه والعينين شجعتني على طلب الطلاق، وعرضت علي مرارا أن تأخذني عند أختها المحامية لتتكفل بقضيتي مجانا، لكن هيهات أن أقوى على العصيان.

ناصر مشغول بمنصبه الجديد وعشيقته الجديدة، وهو أيضا يتفادى الصدام معي. ولأنه كثرت تنقلاتي للأطباء والصيدليات أمرني ذات يوم:

- اذهبي وحدك فأنا مشغول!

فيما سبق لم يكن يسمح لي بتغيير الطريق من البيت إلى المدرسة! وإلى أين عساي أن أذهب بجيوب خاوية، ولا صديقة لي في المدينة ولا قريبة، فأنا لم ألبّ يوما دعوة أحد، ولا استقبلت أحدًا. ما يخاف منه ناصر توهمات موجودة في خياله فقط، أما مخاوفي أنا فكلها منه هو!

محمد لا يحن عليّ إطلاقا، بعدما تربى على فكرة أني أم سيئة وأني أحرقته. كلما كبر أصبح نسخة من فاتح، وقد بدأ تعصبه وتطرفه ينحو منحى خطيرا. وشجاراته مع أمال لا تنتهي لأتفه الأسباب التي يبتكرها كما كان يفعل فؤاد معي ذات يوم.

كان ربيع عام 2007 ربيعا زاهيا وجميلا، بعد شتاء سخي بالمطر ارتوت فيه الأرض جيدا. كل زهرة تذكرني بأني كنت يوما ما زهرة الزهرات عند أحدهم. طارق يمر ببالي مع كل نسمة ومع كل نفحة،

فكل الأشياء الجميلة تذكرني به. ترى أين هو الآن؟ ماذا يفعل؟ مع من يعيش؟ هل يتذكرني؟ تساؤلاتي كثيرة وخيالي يغذي ظنوني. لولا خوفي أن يتسرب سري كما تسربت أسرار غيري، لسألت نادية أن ترسل هدهدها في طلب أخبار طارق، فأنا أشتاق إليه كثيرا، وأشتاق لنفسي حينما كنت معه.

كنت أحاول كتابة شيء، أي شيء بحجم آلامي، لكن القلم أبى أن يخط غير كلمة طارق، وجميلة اتصلت:

- تعالي إلى بيتنا فأمي ليست بخير. لقد جاءت الشرطة اليوم ببلاغ يفيد أن فؤاد قد قتل على يد رجال الأمن بعدما حوصر ومن معه من الذين رفضوا تسليم أنفسهم وما زالوا في نشاطهم الإرهابي في جبال الأخضرية. لقد تم التأكد من هويته لكن لن يسلمونا جثته.

مأتم بلا جثة وأمي تبكي على شبح.. منذ سنوات وهي تجلس في فناء الدار تنتظر عودته. تبكي وتدعو الله أن يهديه ليتوب مع التائبين، خاصة بعدما منحت الدولة فرصة جديدة للإرهابيين لتسليم أنفسهم منذ عامين تقريبا. كان ذلك في سبتمبر 2005 من خلال قانون ميثاق السلم والمصالحة الوطنية الذي صودق عليه بعد استفتاء شعبي.

أما أنا فانتابني إحساس غريب جدا لا أعرف كيف أصفه. كلما فكرت كم كرهته وكم كرهني، وكم تخاصمنا كأعداء ضاق صدري. لم أصدق موته في غياب جثته، وأدركت أنه ما زال يخيفني حتى وهو ميت!

شخص آخر يعود بعد غياب طويل أيضا. يبدو أنه موسم العودة إلى الديار، للأحياء وللأموات. إنه رياض الذي جاء ليصطحب أمه

إلى العاصمة ليطلب يد حبيبته. إنه مضطر لذلك كإجراء شكلي فقط أمام الناس، ولن يكون لها رأي في شيء. ذهب معه ناصر وحفيظة التي لا يمكن أن تفوّت فرصة كهذه، وهي الملهوفة على الخرجات والأعراس. فرحتُ جدا لأجله لأنه صديقي الوحيد في تلك العائلة.

خطيبته رانية، شابة جميلة وذكية، تعمل معه في نفس البنك الذي يعمل فيه. أصولها من منطقة القبائل لكن عائلتها مستقرة في العاصمة منذ سنوات بعدما تولى والدها إدارة إحدى المؤسسات الخاصة.

عادت حماتي وابنتها وفمهما مفتوح. عائلة من نمط آخر وبعقلية أخرى. رياض يعرف جيدا أهله ويعرف أنهم إذا تدخلوا في شيء أفسدوه، لذا سيبعدهم كليا عن حياته، وهو الذي غادرهم منذ سنوات.

في عطلة الصيف أخذني ناصر لزيارة أمي، وفي الطريق طلبت منه أن يعود بعد أسبوع، لكنه ولأول مرة دعاني للبقاء أكثر:

- لم العجلة! أنت في عطلة وبإمكانك البقاء طويلا، فأنا سأكون مشغولا وربما سأسافر.

لديه مخططات صيفية مع عشيقته طبعا، ويريد التخلص مني. بقدر إصراري على عودته بعد أسبوع أصرّ هو على بقائي أكثر. تشاجرنا ثم أنهيت الشجار حتى لا يقتلنا جميعا بحادث مرور.

عندما وصلنا ونزلت من السيارة مع أولادي، لم ينزل هو حتى من أجل الاطمئنان على أمي المريضة، ومن نافذة السيارة قال:

- سأعود بعد أسبوعين.

منذ زواجنا لم ينم خارج البيت قط، وفي السنوات الأخيرة فعل ذلك عدة مرات، أما الآن فيتحجج دائما بالعمل ليبيت خارجا. أعرف أنها مواعيده الغرامية لكني لم أفاتحه بالموضوع.

رشيد يعمل حاليا خضارا في السوق كما كان ذات مرة، وما زلنا لا نشم بعضنا بعض كما يقال، لكن أولاده رائعون كأنما ليسوا من صلبه، خاصة حسام الذي تجمعني به مودة كبيرة تعود لأيام طفولته.

وككل زيارة لأهلي تأتي نصيرة من أجلي، والآن تأتي جميلة أيضا، فمنذ زواجي لم يزرني أحد من أهلي خارج هذين السببين: إما ولادة أو مرض! ولم أذهب إلى بيت نصيرة ولا حتى إلى بيت عمي الموجود على بعد أمتار فقط!

أما سعاد التي تقيم منذ سنوات في العاصمة، فلن تأتي إلى بومرداس خلال تواجدي هناك، وأنا المشتاقة جدا إليها.

خلال كل السنوات التي مرّت، وكلما سرنا على طريق البحر أثناء الذهاب أو العودة من بيت أهلي، ينتابني إحساس عميق بالحزن والحنين لحظة نمر على بيت طارق وعلى الصخرة السوداء، وتخنقني الدموع فأبتلعها سرّا قبل أن يلحظها ناصر.

- مبارك عليك.. مبارك.. فرحت جدا من أجلك!

قالت نادية ومن معها من المعلمات، ونحن واقفات في الساحة صباح أول يوم من عودتنا للعمل شهر سبتمبر.

ولكن على ماذا يباركن لي؟ ترددت في طرح السؤال عليهن، ثم استفسرت متعجبة:

- مبارك على ماذا؟!
- على الشقة!
- أية شقة؟!
- التي اشتراها زوجك! لقد تم إعلان أسماء المستفيدين من السكنات، وسوف يتم توزيع المفاتيح هذا الأسبوع، أم ليس لديك خبر!

ناصر اشترى شقة ولم يخبرني!!! بدوت كالغبية أمامهن، وسخرن مني وضحكن:

- لا تقلقي، فربما يريد مفاجأتك بها!

لم يفتح ناصر هذا الموضوع معي لا قبلًا ولا بعدًا. وبعد مضي أسبوعين من توزيع المفاتيح باغته بالسؤال:

- متى سنرحل؟
- نرحل! إلى أين؟!
- إلى بيتنا الجديد!
- أي بيت؟!
- الذي اشتريته بدعم من الدولة ومنّي طبعا، والذي أخذت مفتاحه منذ أيام!

كمن صفعه، استفاق من غفلته، ولم يرق له الأمر أبدا. انتفض من مكانه غاضبا:

- تتجسسين علي!
- أتجسس! أضحكتني. اسمك مكتوب في قائمة المستفيدين التي حفظها الناس عن ظهر قلب وتقول أتجسس! أينما ولّيت وجهي

بارك لي الناس على شيء لا علم لي به أصلا، حتى بدوت أمامهم كالغبية. لقد سئمت من العيش في غرفة واحدة، لذا سأبدأ بجمع الأغراض لنرحل قريبا.

صرخ في وجهي والدخان يخرج من أنفه وأذنيه، فمنذ مدة لم يبدُ لي كتنين:

- قلت لن نرحل إلى أي مكان!

ومن تلقاء نفسه هدأ قليلا ثم أردف:

- ما تزال هناك أعمال كثيرة فيه. لم يعجبني التصميم الداخلي لذا سأعيده، ثم إن عليّ تأثيثه. كم من الوقت والمال يتطلب ذلك برأيك؟ عندما يصبح البيت جاهزا سأخبرك.

خرج من الغرفة وأغلق بابها بعنف، وعرفت أني لن أسكن تلك الشقة أبدا! شقة واسعة من ثلاث غرف نوم ومطبخ وصالون، في حي جديد وراق. حماتي تعلق من بعيد وأنا أغلقت أذنيّ حتى لا أسمعها. ما زالت تذكرني بأني السبب في التفريق بين أولادها، وأني السبب في حرق ابني، وأني سبب كل المشاكل. تظل تشتكي بأنها مريضة وموجوعة، وكنت أرد عليها:

- لا تخافي، ستعيشين عمرا طويلا وربما أنا من سيموت قبلك!

وأخيرا جاء خاطب لحفيظة، ومن الواضح أنه ليس أحد عشاقها بل صيد جديد. هي راضية به ومتحمسة له، بعدما عاشت حياة عاطفية وجنسية ملتهبة. في البداية تحجبت بأمر من فاتح ثم تجلببت وتنقبت بإرادتها، ودفنت هويتها لتجوب وتجول بين عشاقها بمنتهى

الحرية والأمان، وأخوها الإرهابي يحوم في ذات الأمكنة. متجلببة لكن نادرا ما تصلي! في البداية كنت أرى ذلك نفاقا اجتماعيا لا يحتمل، ثم اكتشفت لاحقا أن هذا ما ينفع مع مجتمع منغلق لا يرى في الدين سوى لحية وخمار!

فاتح يتباهى أمام العريس:

- أختي لم تعرف يوما رجلا، أنت محظوظ بها!!!

زفت حفيظة بفستان أبيض عاري الصدر وفوقه برنوس أبيض شفاف كما أرادته هي وأمها، وتذكرت كيف أجبرتني على لبس الجلباب الأسود يوم زفافي!

بعد أكثر من سنة من علمي بأمر الشقة، ما زلت أنتظر أمره بالرحيل، لكن ذلك لن يحدث. دخلت في شجارات عنيفة معه عدة مرات، وفي آخر مرة أقسم بالله أني لن أضع رجلي فيها!

شجارات لا تنتهي بيني وبين ناصر، وبين محمد وأمال أيضا. محمد مثلهم تماما، عنيف، ومتطرف جدا. لا يحلق ذقنه كالشباب، وليست لديه اهتمامات مدرسية. شغله الشاغل ماذا لبست أمال، ومع من تكلمت، مع أنها بنت في منتهى الخجل والانطواء. هي منهمكة في دراستها عسى تقودها لقدر غير قدري، وهو منهمك بها.

تدهورت صحتي من جديد بسبب عودة الورم المشؤوم، والحل هذه المرة هو بتر الثدي المريض كاملا!! لم أتقبل الفكرة في البداية، ثم استرجعت بعض حكمتي وقلت لنفسي:

- أنا ميتة ميتة، فماذا يفيد أن أموت بنهد واحد أو بنهدين!

كنت أصبّر نفسي فقط بهذا الكلام، ففي الحقيقة لا شيء يجرح أنوثة المرأة أكثر من فقدانها أحد نهديها! من الصعب شرح علاقة المرأة بنهديها، فهما يحققان توازنا ما في جسدها وفي نفسيتها. العيش بنهد واحد كالعيش برِجل واحدة..

هذه المرة ستكون العملية في مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة، ويجب أن أتابع طبيبا جراحا هناك عدة أشهر قبل موعدها. المريضات كثيرات ولن أحصل على موعد قريب، وناصر يأخذني في كل مرة متذمرا لأنه ترك أعماله من أجلي.

قال لي مرة عندما مازحته ونحن في الطريق:

- صبرا جميلا. لم يبق الكثير وسترتاح مني!
- هذا ما تقولينه دائما. سأموت، سأموت، ثم لا تموتين أبدا!

بلعت دمعتي وغصتي. ناصر يترقب موتي بشغف، لأني أصبحت عبئًا ثقيلًا عليه ومصدرا للإزعاج.

بعد انتظار طويل قارب السنة حصلت أخيرا على موعد للعملية، وربما كان موعدا مع الموت. قبل ذلك بشهرين عشت فرحة زواج رياض الذي لم يقم عرسا بالبليدة واكتفى بدعوة عائلته وأصدقائه إلى قاعة الحفلات التي أقيم فيها عرس خطيبته بالعاصمة. فاتح وزوجته لم يذهبا طبعا، فصالة الحفلات حرام، والموسيقى حرام، وكل مباهج الدنيا حرام! ثم إن هذه العروس وأهلها لا يروقون لفاتح، فهم منفتحون جدا برأيه، ومن كان منفتحا فهو فاسق!

لا فستان عندي يليق بالمقام ولا حذاء. ارتديت حجابا قديما أهدته لي أختي نصيرة في عرس جميلة، وكما تقول لي دائما:

- أنت تبهدلين. كأنك لستِ عاملة منذ سنوات!

لولا أنها تتكرم عليّ بملابسها، وأحيانا تشتريها من أجلي، لبدوت حقا كمتسولة.

جلست حماتي وبناتها في القاعة كضيفات محترمات، زغردت حتى تقطعت حبالها الصوتية، ورقصت حفيظة وفريدة حتى تقطعت أقدامهما، أما رقية فبقيت كالعادة هادئة في مكانها. عرس فاخر بكل المقاييس، ورياض ورانية يعرفان جيدا كيف يحميان نفسيهما من تدخل الأهل بين الزوجين في أشياء لا تعنيهم، لذا سيضعان مسافة كبيرة بينهما وبين عائلة رياض، لأنها عائلة مشاكل بامتياز.

في المساء غادرنا الصالة ككل الضيوف، وقصدنا البليدة وفي يد كل منا علبة حلوى لا أكثر، أما العروسان فقد ذهبا إلى الفندق. لن تعيش حماتي هذه المرة فرحة "صباحية العروسة" التي تهجم فيها على الغرفة عند الفجر، لتجري تحقيقها المخابراتي الخطير. لن تعرف أبدا إن كانت العروس عذراء أم لا، ولن تمنح لها رانية ولا رياض فرصة للسؤال عن شيء كهذا. يعجبني هذا الجيل الجديد كيف يضع قواعد اللعبة مسبقا، ويجبر العادات والتقاليد البائسة على الانكسار!

بعد عودتهما من شهر العسل في مكان ما في أوروبا، جاء رياض ورانية في زيارة مجاملة لأمه لم تدم أكثر من ساعة. رانية بتنورتها الزهرية التي تصل حد الركبتين، وشعرها القصير، وعطرها الفرنسي الشهي، ومكياجها الخفيف اللّماع، وخديها المحمرين، وأشيائها الجميلة لأنثى منتشية بالحب والحنان، نوّرت البيت الذي يسكنه القبح منذ سنوات. فاتح ليس هنا وإلا أثار مشكلة كبيرة، لكن خليفته محمد موجود وقد انزعج منها وخرج.

قبل موعد العملية بيوم أخذني ناصر إلى مستشفى مصطفى باشا متذمرا وغادر مسرعا، فهاتفه لم يتوقف عن الرنين طوال الطريق. في الغرفة أيضا مريضتان، واحدة أجرت العملية منذ أربعة أيام ولا تزال متعبة، وزوجها يمسك بيدها ويقبّلها بحنان، ويقرأ لها الأدعية والقرآن.

من قال إن كل الرجال من طينة واحدة! هذا أيضا مختلف!

أما المريضة الثانية فستجرى عمليتها هذا المساء. دردشت معها بعض الوقت قبل أن يأخذوها لقاعة العمليات، وهي وحيدة تعيسة بعدما تخلى عنها زوجها يوم عرف أنها مصابة بالسرطان! سبعة أطفال وخمس وثلاثون سنة من الزواج كأنها لم تكن! حزنت عليها وعلى نفسي، وشعرت بوحدة موحشة ذلك المساء.

اتصلت بي جميلة ونصيرة وأمي لكنني لست بخير. لم يكن لديّ رصيد في هاتفي وناصر لم يفكر حتى في سؤالي إن كنت أحتاج إلى شيء. رماني عند باب المصلحة وغادر! بعدما قامت نصيرة بشحن رصيدي، اتصلت برياض وأخبرته أني في العاصمة.

ورغم تأخر الوقت، جاء ومعه رانية من البنك مباشرة إلى المستشفى. وفي الغد قاما بشحن رصيدي دون أن أسألهما ذلك، وجاءا ومعهما كل ما يمكن أن أحتاج إليه، حتى شعرت بالحرج منهما.

اجتاحني البرد من القدمين، وشلّ الخوف كياني، ليس خوفا من الموت، إنما حسرة على حياة لم أعشها.

بدأ تحضيري للعملية: تحاليل دم، فحوص بالأشعة، قياس الضغط، وأشياء أخرى قبل لحظة البتر. بتر نهدٍ جميل لكن سيّئ الحظ.

أولادي، تلاميذي، طارق، سعاد، أمي، جميلة، نصيرة، رياض... في النهاية لدي ما يكفي من الأحبة الذين يجب أن أعيش من أجلهم، لكن هذا محفّز باهت في الحياة، فمن لم يرغب في العيش من أجل نفسه، لن يعيش أبدا من أجل غيره!

مرّ شريط حياتي بين عيني. ما أقصرها الحياة في النهاية، وكم يعزّ فراقها. من الصعب تفادي التفكير في الموت حينما تكون مصابا بالسرطـــان، وأنت مقبل على عملية، وأخبار ضحاياه تتصدر جميع الأخبار.

بعد الإرهاب استفاق الجزائريون على حقيقة مرعبة: لقد أدى الكبت والقهر إلى ارتفاع رهيب للمجانين، والمعتوهين، ومرضى السرطان، والسكتة القلبية، والجلطة الدماغية، والسكري، والضغط، ونقص الحب، وضعف الثقة، والجوع الجنسي، والحرمان العاطفي، وآلاف الأمراض التي لا نعرف بعد كيف نسميها!

البروفسور المدعو "دكتور داود" يجوب المصلحة مع بعض طلبته ويتفقد كل شيء: المرضى، والأجهزة، والأدوية، وكل التفاصيل. يتناوب الممرضون والأطباء في الفترات الصباحية والمسائية، لذا لا أكاد أتذكر أحدا منهم.

جلست في سريري وكل شيء فيّ يرتعش، وعيناي المتعبتان تبكيان دمعا مالحا، زاد من عطشي وظمئي للحياة.

دخل إلى الغرفة طبيب شاب بهي الطلعة، وفي يده ملفي، وعلى وجهه ارتسمت أحـــلى وأجمل ابتسامة. وقف أمامي منتصبا وعيناه تشعّان نورا. وكمن لا وقت لديه ليحلق ذقنه، بدت لحيته بعمر أسبوع

أو أكثر بقليل. تأملني للحظات طويلة وأنا أمسح دموعي، ثم دنا مني قائلا:

- أنت هي السيدة فاطمة الزهراء؟
- نعم.
- هل تسمحين لي بأن أضمك إلى صدري!!!

التزمت الصمت متفاجئة وبقيت أتأمله.

- ماذا قلت دكتور؟!!
- دعيني أردّ لك دينًا.. فيومًا ما كنت مثلك حزينا، وقد ضممتني إلى صدرك بكل قوة وحنان، وقلتِ لي بأني سأكون بخير، وها أنا بخير.

لم أستوعبه ولا تعرفت عليه، فمتى ضممت أنا شابًا كهذا!

- آه يا معلمتي العزيزة، هل نسيت تلميذك أمين!!

لم تحتوني الدنيا، لم يحتو صدري المفجوع فرحتي، ولا احتوت اللغة كلماتي! بلهفة ورعشة فتحت ذراعيّ بأقصى ما أستطيع:

- ضُمني ضُمني ياعزيزي يا أمين!!

جلس على طرف السرير وعانقني، وبكيت بكاءً ليس له مثيل. سالت دموعي أنهارا أنهارا، دمع حلو المذاق. هذه أول مرة أذوق فيها دمعا حلوا.. بكى معي بحرارة، وربت على ظهري، ومسح على رأسي وقبّلني على جبيني.

أمسكت وجهه بين يديّ ناظرة إليه بلا شبع، وبين عينيّ صورته وهو طفل:

- كم كبرتَ يا أمين! كم اشتقت إليك! أتعرف بأني ما زلت أحتفظ بجميع رسائلك؟

لقد شفيت الآن. أشعر فعلا بأني بخير وأني تعافيت. ردّ لي الضمة في لحظة ما كان باستطاعة شيء أن يواسيني فيها غير الضمة. كان موقفا في منتهى الرحمة والإنسانية.

أمين على وشك إنهاء دراسته في الطب، وهو طالب عند البروفسور الذي سيجري عمليتي. كان مع أستاذه الذي يشرح لمساعديه حالتي عندما صادفه اسمي في الملف، فأخذه وجاء به ليتأكد بنفسه أن التي سيحضر عمليتها اليوم كطبيب متربص، كانت معلمته في يوم من الأيام.

كل المهدئات لم تنفع معي قبل هذا اللقاء، أما الآن فقد أعاد أمين قلبي إلى نبضه الطبيعي. شعرت بأني أنجزت شيئا ما في حياتي، فلا شيء يسعد المعلم أكثر من رؤية أحد تلاميذه ناجحا في الحياة. أمين تجاوز جراح الطفولة ليداوي اليوم جراح الناس.

دردشنا قليلا واسترجعنا بعض الذكريات. سجل رقم هاتفه في هاتفي وطمأنني، وطلب مني أن أعطيه إشارة بالهاتف إن احتجت إلى شيء، وأوصى الممرضة المناوبة عليّ ريثما يحين وقت العملية بعد بضع ساعات.

كفكفت دموعي واستمرت ابتسامتي وفرحتي، وأنا سعيدة بهذا اللقاء. في اللحظة التي تعرّفت فيها عليه اعتراني إحساس لا أجد الكلمات لوصفه. لقد انتشلني أمين من حزن عميق جدا. لعنتُ كل الفتاوى التي سمعتها وصدّقتها بأن اختلاء رجل بامرأة حرام لأن

الشيطان سيكون ثالثهما، وبأن العناق حرام، والتقبيل حرام، والحب حرام، وكل العواطف الإنسانية الجميلة حرام! إنهم لا يستوعبون أبدا بأن العلاقة بين الرجل والمرأة لها ألف شكل وشكل للوجود. هذا تلميذي ولا مكان لأية فتوى. أنا واثقة بأن الملائكة قد بكت معنا، وأن الله قد مد يده ومسح على رأسينا لحظة تعانقنا ونحن نبكي!

لقد تعافيت كما تعافى هو لحظة عانقته وهو صغير. الآن عرفت بأني حقا واسيته يوم ضممته إلى صدري، وكذلك فعل هو معي الآن. لماذا يكتب لنا الأطباء علاجات كيميائية في وصفاتهم؟ لماذا لا يكتبون لنا عدد الضمات التي نحتاجها كل يوم لنشفى؟ لا جدوى من الأدوية ولا جدوى من الكلمات، فالفرحة عناق، والاشتياق عناق، والحزن عناق.. لا شيء يملأ صدرا فارغا سوى صدر آخر، ولتذهب كل الفتاوى إلى الجحيم! لقد تعقّدنا وحُرّمنا من عيش حياة طبيعية ككل البشر منذ أن ظهر التطرف والمتطرفون!

بجفون ثقيلة، وأنفاس متقطعة، حاولت فتح عينيّ من جديد. صوت آلات، رائحة أدوية أو موت، جدران زرقاء... هذه ليست الجنة، لكنها أيضا ليست النار!

على صوت أمين أفقت ولم أفق، وهو يناديني ممسكا بيدي:

- سيدتي.. معلمتي.. هيا أفيقي فقد مرت العملية بخير.

لا مثيل له ذلك الوجع ومفعول التخدير قد بدأ في التراجع، لكن صوت أمين ووجهه الباسم المشرق أمامي ينتشلني من أعماق التيه والضياع. لم أستطع الكلام وسمعت لاحقا صوت رياض ورانية، أدخلهما أمين إلى غرفة الإنعاش لبرهة فقط ليطمئنا علي، فلا أحد سواهما جاء، ولا حتى ناصر!

لم أستطع تصور شكلي بنهدٍ واحد، ولا إن كنت حقا سأتقبل أنوثتي المنقوصة بدءاً من اليوم. وفي غمرة حزني تذكرت ما قالته لي معلمة ذات مرة بتنكيت لا يضحك أحدا:

- لا يهم إن بُتر نهدك الآن. لقد تزوجتِ وأنجبتِ فماذا ستفعلين به!

نظرية بائسة بؤس معظم المعلمات اللواتي عرفتهن في حياتي! كم عمر النهد قصير في ثقافتنا! بل كم عمر الأنوثة قصير! تنتهي حياة المرأة وحياة أعضائها عندما ينتهي دورها الاجتماعي: تزوجتْ وأنجبتْ، إذن انتهى كل شيء!

في الأيام الثلاثة الأولى كنت موجوعة حدًّا لا يحتمل، ولولا الحقن المسكنة للألم لمت من الوجع. في النهاية ألم الجسد أيضا موجع جدا كألم الروح وأكثر.

أسبوع بعد العملية ولا خبر عن ناصر، لا جاء ولا اتصل! أمي وعلي وجميلة وزوجها ونصيرة وزوجها جاؤوا جميعا في اليوم التالي للعملية، ولأني كنت لا أزال في الإنعاش عادوا جميعا في اليوم الذي بعده.

رياض وزوجته يأتيان كل مساء، ولم يدعاني أحتاج لشيء. أما أمين فلم يعد تلميذي فقط، إنما أصبح طبيبي، وصديقي، وابني الذي تمنيت لو أنجبته.. كلما جاء لرؤيتي قال شيئا ليضحكني ثم يردف:

- هيا ابتسمي يا معلمتي، فأنت أجمل حينما تبتسمين.

أمين عزّتي وفخري، كلما دخل قلت للحاضرين:

- هذا تلميذي، هذا تلميذي.

بعد عشرة أيام جاء متثاقلا خائب الظن، فهذه المرة أيضا لم أمت! قال لي ضاحكا ساخرا بأني قطة بسبعة أرواح لذلك حتى الموت لا يقتلني!

سمعت حماتي عدة مرات تحدثه عن مرضي قائلة:

- فلانة مرضت بالسرطان وماتت بعد ستة أشهر. وفلان مرض بالسرطان ولم يعش أكثر من سنة. وفلان وفلانة كلهم ماتوا سريعا بالسرطان!

فيرد عليها:

- السرطان مرض قاتل، عاجلا أم آجلا يموت صاحبه!

أعرف بأنه يفترض أن أموت، لكن من لا حظّ له حتى إذا طلب الموت لن يجده!

جاء ناصر وحده ولم يحضر معه أحدًا أو شيئًا! وجد غرفتي تعج بالزوار من عائلتي، جميلة ونصيرة وعمي وآخرون. لم يطل البقاء وغادر دون أن يسأل إن كنت بحاجة لشيء، وهل نجحت العملية، وهل أنا بخير. لا سؤال ولا حتى دعاء بالشفاء، ثم يقولون لي أنت متزوجة ومستورة!!

في المستشفى تعرّفت على مريضات كثيرات، وبائسات أحيانا أكثر مني. عندما تكون في عالمك الصغير تحسب أنه لا مثيل لك في عذابك، ثم عندما تخرج إلى العالم الكبير تبدو مآسيك صغيرة أمام مآسي الناس. نساء مرميات في مصلحة طب السرطان تخلى عنهن أزواجهن.

المرض من جهة والأزواج من جهة أخرى. كثيرات سيمتن، ليس لأن السرطان قاتل، إنما لأن التخلي عن زوجة مريضة بعد سنين التعب والتضحية هو القاتل!

أين العشرة الزوجية؟ أين المودة والرحمة؟ أين الفتاوى الشرعية؟ أين القوانين المدنية؟ أين حقوق الإنسان؟ أين الجمعيات النسائية؟ أين الإنسانية!!!

تناوبت المريضات على المصلحة من كل نوع: التي وصلتها ورقة الطلاق وهي في غرفة العمليات، والتي وجدت زوجة ثانية بانتظارها في البيت. وأيضا التي تركت زوجًا مفجوعًا من الحزن، والتي اعتكف زوجها عند رجليها يدعو ويصلي، وهن النادرات!

السرطان يسببه الكبت والغضب، ولا يداويه سوى الحب والحنان. وكل أنواع المرض من ضغط الدم، والسكري، والقولون العصبي، والصداع النصفي، وحتى نزلة البرد الخفيفة، ما هي إلا دليل على خلل ما في المناعة العاطفية، ونقص في العواطف الإنسانية..

بعد أسبوعين من العملية بدأ الألم يخف، وبدأت أتقبل وضعي الجديد. أحببت إقامتي في المستشفى، فمع المريضات مثلي كنت أجد الكثير من المواساة، وبوجود أمين ورياض كأنما العالم كله معي.

الساعة التاسعة مساءً، هدوء يعمّ المصلحة والمرضى متعبون نيام. بعض الزائرين المتأخرين يجوبون المكان والمريضتان الموجودتان معي لا تزالان تدردشان، وأنا انتابتني موجة من النعاس عندما خُيّل إليّ أن أحدا جلس بجانبي، ووضع يده على يدي ثم على وجهي. فتحت عينيّ المتثاقلتين وأعدت النظر إلى الشخص مرتين: إنها سعاد! لقد

جاءت من العمل ببذلة القوات الخاصة بمكافحة الإرهاب والمسدس يزين خصرها، لأنه لا وقت لديها لتزورني.

لم أستطع ضمها كما أريد لأني غير قادرة بعد على تحريك يدي اليسرى، ومكان الجرح لا يحتمل الضغط. احتوتني هي بذراعيها كما تحتوي الدجاجة صيصانها الصغيرة بجناحيها:

- كم اشتقت إليك يا صديقتي. اعذريني لأني لم أجد وقتا للاتصال بك أو زيارتك قبلًا. أخبرتني أمي بما حدث معك، وأرسلت لي رقم هاتفك منذ مدة لكنني مشغولة جدا وتحركاتي كثيرة. مررت قرب المستشفى ودخلت لبرهة للاطمئنان عليك.

سعاد تحوّلت فعلا إلى امرأة جديدة. امرأة تمتزج فيها الأنوثة والرقة والحنان بالقوة والشراسة والانتقام. لم ينته الإرهابيون بعد، وهي لم تتعب. في جسدها عشرات الجروح للمعارك الطاحنة بالرصاص، لكنها بعد كل إصابة تعالج وعندما تتعافى تعود للمواجهة!

لحظات ودخل مُرافقها الذي كان واقفا عند الباب ينتظرها:

- هل نذهب حضرات؟ لقد حان الوقت.

سعاد ليست أيّ امرأة، فهي تنادى "حضرات".. بعد عدة ترقيات في عملها أصبحت الآن تقود جيشا من الرجال لتقاتل أحد أخطر الإرهابيين الذين لا يزالون في نشاط، ولن تعود إلا وهو معها حيًّا أو ميتًا. سعاد لا تهاب الموت إنما الموت هو الذي يهابها!

تركت لي رقم هاتفها، وغادرت وهي تعدني بالعودة قريبا.

لقاء أمين وسعاد أعادني للحياة. يوما بعد يوم كنت أشعر بالتحسن لولا أن بالي كان مشغولا على أولادي. أمال هي من تتدبر أمرهم

الآن، وتعتني حتى بجدتها. ربما قهرها محمد ضربًا وهو الذي يفعل ذلك في حضوري فماذا في غيابي. أما ناصر فبالتأكيد يتغذى ويتعشى خارجًا، فمؤخرا حتى قهوة الصباح لا يشربها في البيت.

مصلحة طب السرطان هي مصلحة اليأس والأمل، والموت والحياة، والصلاة والدعاء. مصلحة الزيارات المجامِلة، والمودِّعة، والمفاجِئة. حسبت نفسي بائسة في زواجي وفي حظي، وفي النهاية اكتشفت أن النساء البائسات مثلي كثيرات، لكن الصمت يخيّم على أفواههن. المرأة دوما خاضعة، ضحية، مغلوبة، إن لم يرحمها الرجل لا ترحم هي نفسها!

من النساء اللواتي مررن بهذه المصلحة منذ سنوات، والتي عادت اليوم في زيارة توعية، سيدة متوسطة العمر، مفعمة بالنشاط والحيوية، جميلة وأنيقة بحجابها العصري، بيدها مطويات توزعها على المريضات. اسمها كريمة، وقصتها مأساوية. هي أيضا عرفت السرطان، كما عرفت العنف الزوجي، وبعدما خسرت كل شيء قررت أن تفعل شيئا، فأسست جمعية خيرية، ومنذ ثلاث سنوات وهي تناضل من أجل مساندة ضحايا العنف، ونشر الوعي لدى النساء بضرورة التبليغ، والحديث عن قصصهن عوض التستر عليها.

من حين لآخر تجوب كريمة المستشفيات لتوزع على المريضات مطوياتها، خاصة في مصلحة أمراض السرطان، فهي تعرف جيدا من خلال متابعتها للمصلحة منذ سنوات، أن حالات التخلي عن الزوجات المريضات ليست قليلة. في المطوية رقم هاتفها الشخصي، وهي مستعدة للمساعدة المعنوية بأي شكل كان، أما ماديا فلا مصدر

مالي لجمعيتها الفتية، وليس لديها حتى مكتب، لذا تديرها من منزلها. تطبع المطويات من مالها الخاص، وتتعاون معها بعض النساء الشجاعات الواعيات مثلها، وكذا بعض الأصدقاء من الرجال، لحث النساء على الكلام والخروج من صمتهن التعيس.

تحاول كريمة إخراج شكاوى النساء المعنّفات من أروقة المستشفى وقاعات الانتظار، إلى الرأي العام للمطالبة بتعديل قانون الأسرة لحماية المرأة من مصير مأساوي يحدده زوجها أو أحد أفراد عائلتها، لكن معظم النساء يفضلن الصمت! يشكين لبعضهن ما عشناه، لكن لا يتجرأن على الشكوى الرسمية. كريمة لا تجد دعما حقيقيا من النساء، لأن الجبن والاستسلام يكبّل عقولهن.

أحيانا يجد رئيس مصلحة أمراض السرطان نفسه في مواقف محرجة مع مريضات تم التخلي عنهن، فيرفضن مغادرة المستشفى لعدم وجود مكان يلجأن إليه، وفي ذات الوقت هو مضطر لتفريغ الأسِرّة من أجل استقبال مريضات جديدات. هن لا يردن التبليغ، وهو لا يريد جرح مشاعرهن المجروحة أصلا بتخلي الأزواج عنهن.

- سيدتي، إن كنت امرأة معنفة واحتجت يوما للمساعدة خاصة إذا كانت قانونية، أو قررت أن تتكلمي عن تجربتك فاتصلي بي، ففي الجمعية محامية مستعدة للتكفل بأية قضية عنف مجانا.

ترددت في أخذ المطوية من يدها لشكي في أن أحتاجها يوما، ثم اعترفت لها بأني لست امرأة معنفة وفقط إنما مسكونة بالعنف! قالت بإلحاح:

- هل تحتاجين إلى محام؟ هل تريدين تقديم شكوى؟

- لا داعي، فقد فات الأوان على التبليغ!

غادرت وهي غاضبة بعدما حكيت لها بعض حوادث العنف التي عشتها مع زوجي:

- أمثالك من النساء هن اللواتي جلبن لنا الشقاء. لو أن كل امرأة تضع حدا لذلك بنفسها بتقديم بلاغ رسمي لما وصلنا إلى هذا الحال. أتعلمين كم زوجة تموت على يد زوجها سنويا؟! أما المكسورات والمجروحات والمصدومات نفسيا فالله وحده يعلم عددهن!

إنها محقة، الجبان يعيش دوما حياة ذليلة، والنساء مثيلاتي ممن يؤمنّ بسترة الزوج، هن في الحقيقة من يسترن أزواجهن من الفضيحة أمام الملأ. لكن الرجل لا يعاب في مجتمعنا، وسيقال إنه رجل مهما فعل. فإذا سرق فهو رجل! وإذا اغتصب فهو رجل! وإذا قتل فهو رجل! فما أدراك إذا ضرب زوجته أو أخته! لا شيء يُسقط تاج الرجولة من فوق رؤوس رجالنا مهما فعلوا، لذلك يحتاج مفهوم الرجولة لإعادة تحوير!

خوفًا من الفضيحة لم أفكر أبدا في إيداع شكوى، لكن حتى مفهوم الفضيحة لدينا مغلوط. فالفضيحة الحقيقية هي أن تعيش ذليلًا مُهانًا وفوق ذلك معنفا ولا تضع حدا للأمر. الفضيحة هي أن تتخلى عن كرامتك، وتدع الآخرين يدوسون إنسانيتك باسم أي نوع من القوانين.

مرّ أسبوعان آخران ولا خبر عن ناصر. ترجّته أمال أن يأتي بها وإخوتها ليزوروني لكنه رفض ذلك وأعطاها هاتفه لتكلمني كمن يتصدق عليّ وعليها. كلمتني أمال للحظات قبل أن يسحب الهاتف من أذنها وأنا أسمعه يقول لها بلهجة ساخرة:

- هي بخير، لا تخافي عليها لن تموت!

عادت سعاد أخيرا لزيارتي في مساء كنت فيه وحدي في غرفتي. جاءت بزي مدني، ومسدسها لا يغادر خصرها مخبأ تحت ملابسها. جاءت متعبة ومشتاقة مثلي.

لم يكن هذا هو شكل المستقبل الذي تحدثنا عنه أيام الثانوية، ولا شكل الحياة التي انتظرناها.

سألتها عن أخبارها فأجابت مختصرة:

- لا شيء مهم في حياتي. من مطاردة لأخرى ومن مداهمة لأخرى، أتصيد آخر الإرهابيين حيثما كانوا لأني أصبحت أشم رائحتهم من بعيد. لا حياة اجتماعية لدي، ولا عاطفية، فبعد مراد لم أحب أحدا. هذا كل شيء فماذا عنك؟
- أنا.. أنايَ تركتها في بومرداس يوم غادرتها. ما ترينه الآن هو بقايا أنا..

سكتُّ للحظات ثم واصلتُ الكلام:

- كيف هو؟ هل من أخبار عنه؟
- تقصدين طارق؟ لم أعد أعرف عنه شيئا. فقدت التواصل معه منذ أن تركت الجامعة. التقيته مرة صدفة في محطة بنزين بالعاصمة منذ عامين أو أكثر. كان عائدا من بومرداس بعد زيارة لوالده وذاهبا إلى تلمسان.
- ماذا قال؟
- لا شيء. لم يكن وحده.

التزمت الصمت وبدت ملامحها جادة.

- ألم يقل شيئا!

- قلت لك لم يكن وحده. كان مع زوجته!

انتابتني موجة من البرد شلّت كياني. برد تحول في لحظات إلى صقيع لا يحتمل، وسعاد أكملت حديثها:

- في المقعد الخلفي لسيارته كان هناك رضيع. لم نتبادل سوى التحية وبعض الأخبار السريعة. سألته أين يعمل وأين يقيم، وقال في تلمسان.

لم أقل شيئا، لكن لوني تغير ونفَسي انقطع. قامت سعاد من مكانها في السرير المقابل وجاءت بجانبي:

- ما بك؟ أنت أيضا تزوجت ولديك أطفال.

- لم يسألك عني؟ أما زال مربط شعري في يده؟

- قلت لك كنا على عجل. ثم إني لا أذكر شيئا كهذا لأنه كان مرتديا جاكيت.

ضاعت ابتسامتي وقدرتي على الكلام من جديد. ما كان يجب أن نتحدث عنه أوّلا، كان من الأفضل لو تركناه الأخير، فقد أفسد علينا هذا الموضوع روعة اللقاء. لم أستطع العودة إلى نفس الموجة من البهجة التي كنت عليها لحظة وصولها.

بعد نصف ساعة ودّعتني وعلى لسانها جملة مريرة:

- فكري بأنه حي وأنك تستنشقين معه نفس الهواء. فالمصيبة ليس أن يتزوج حبيبك إنما أن يموت!

فكرت لوهلة في هذا المعنى: طارق ميت! هذا فوق قدرتي واحتمالي! أفهم معاناة سعاد، الزمن يمحو أشياء كثيرة من ذاكرتنا إلا ما تعلق بشخص أحببناه.

شعرت بغيرة لا تطاق لأني أردته دائما أن يكون لي وأن أكون له، رغم علمي باستحالة ذلك، وفي النهاية كنا لغيرنا.

بعد شهر ونصف عادت المرونة ليدي اليسرى واسترجعت بعض قوتي، وقد تعودت على إيقاع المستشفى وأناسه. سمعت دائما المرضى يقولون أنهم كرهوا حياتهم في المستشفى بعد إقامتهم فيه بضعة أيام فقط، لكني على خلافهم أحببت حياتي فيه! فإن لم يكن لديك من يرعاك بالحب والحنان ويعاملك بإنسانية خارج المستشفى، فستحب البقاء فيه مثلي!

اتصلت بناصر عدة مرات لأخبره بأنني سأخرج غدا لكنه لم يرد، ثم أغلق هاتفه. في المساء اتصل غاضبا، وقال بأن لديه التزامات غدا، وأنه سيأتي عندما يجد وقتا! خجلت جدا من البروفسور داود، رئيس المصلحة الذي عاملني بمنتهى اللطف، وتعمد تمديد إقامتي حتى أتعافى جيدا، فقد أحرجته بعدم مغادرتي.

عرض عليّ رياض أخذي إلى بيته، لكني أعرف بأن ناصر لن يرضى بذلك. بعد يومين بدأت أتوتر لأن المصلحة مضغوطة، وثمة مريضات كثيرات بانتظار سرير شاغر. أمين لا يعلم أي نوع من الحياة أعيشها مع زوجي، أخبرته بأني تعيسة جدا معه وأنه رجل عنيف لكن دون تفاصيل لأني لم أرد خدش صورته الجميلة عني.

في اليوم الثالث جاء ناصر ووجدني لم أجمع بعد أغراضي، لأنه لم يتصل ولم يخبرني بمجيئه. بدأ يستعجلني وأنا محرجة أمام المريضة

الموجودة في الغرفة. جمعت أغراضي على عجل وهو يصك مفاتيحه ببعضها البعض. لم يتسن لي الوقت أن أودّع أحدا، ولا حتى أمين.

لم نتبادل في الطريق أي كلام كأننا لا نعرف بعضنا، وأنا مشغولة البال بطارق. كنت أتصور أي نوع من النساء تزوج. كيف عرفها؟ هل يحبها؟ هل كان ذاك الرضيع ولدا أم بنتا؟ كيف سمّاه؟ هل أنجب أولادا آخرين بعده؟ هل ما زال يذكرني؟ لا نهاية لأسئلتي وفضولي.

أعرف جيدا، وعن تجربة، أن الزواج ينهي العلاقة، لكن لا ينهي الحب. لذا أنا على يقين أنه ما زال يذكرني كما أذكره، في الصباح وفي المساء، وفي النور وفي الظلماء..

زحمة طويلة في طريق العاصمة إلى البليدة، وثلاث ساعات في السيارة لم نتبادل فيها حرفًا!

عند وصولنا، وما إن اجتزت عتبة الباب حتى صرخت نور الهدى:

- جاءت ماما، جاءت ماما!

خرجت أمال من المطبخ وجرت نحوي وعانقتني عناق مشتاق، وكذلك إسلام ونور الهدى. أولادي هم الأمل الوحيد المتبقي في حياتي.

عندما دخل محمد سلّم عليّ كالغرباء، قبلة على الخد الأيسر، وقبلة على الخد الأيمن، ولحيته تلسع! لم يقل أكثر من جملتين:

- أأنت بخير؟ الحمد لله..

سأل وأجاب بنفسه!

حماتي من كنبتها تقول أشياء لا أفهمها، ولا أريد فهمها. كأني سمعتها تقول:

- أولادي، أولادي.. ألن تأتي لتقبّلي رأس التي حرست لك أولادك في غيابك!

تظاهرت بأني لم أسمعها، ففي الحقيقة أولادي هم الذين حرسوها!

بعد العشاء بقيت في المطبخ جالسة إلى الطاولة أدردش مع أمال عندما جاءني ناصر بورقة وقلم:

- وقّعي هنا!
- ما هذا؟
- قلت وقّعي وكفى!

أمسكت الورقة وقرأتها بعجل. إنه تصريح بالموافقة على الزواج بزوجة ثانية!!

قانون الأسرة الجزائري ينص على هكذا إجراء، حيث يجب أن توافق الزوجة الأولى، وتوقّع على وثيقة رسمية ليتمكن زوجها من الزواج بامرأة ثانية! اشتعلت فيّ النار وخرج لهيبها من أنفي وأذنيّ. الآن أنا من أصبح تنينا!

للمرة الألف لا أعرف كيف أعبّر عن نفسي، أما هو فقد حضّر لكل شيء مسبقا: الوثيقة، الزوجة، الشقة... كل شيء جاهز إلا أنا ما أزال متأخرة عن الركب. واضح أنه رتب كل الأمور، وأن هذه الورقة آخر إجراء.

خنقني صوتي المبحوح، وأمه التي تملأ الباب ولا تكاد تدخل منه، تزيد في لهيبي. سمعت كل أنواع المهانات التي تذبح كسكين:

- ستوقعينها رغمًا عنك!

- لن أوقع ولو قتلتني!

احترقتُ حتى أصبحت رمادًا.. هويت وقبل أن أصل إلى الأرض كانت أمال قد أمسكتني وهي تصرخ وتبكي:

- دعوها دعوها فاليوم فقط خرجت من المستشفى، أتريدون قتلها!

- لن تموت، فحتى السرطان لم يقتلها!

قالت حماتي قبل أن تخرج من المطبخ هي وابنها.

بكيت وبكيت حتى أغرقت بدموعي مدينة البليدة، والجزائر بأكملها، وسقيت جميع صحاري إفريقيا العطشى! أمال مثلي تبكي، ونور الهدى وإسلام شلهما الرعب، أما محمد فلم يجد شيئا يقوله سوى:

- إنه حقه الشرعي، فعلام تبكين؟!

نمت بجانبه ذلك المساء، كمن ينام جنب جلاده. كان يشخر حينما دخلت الغرفة في وقت متأخر. عشيقته ليست مثلي، فهي لن ترضى أبدا بشيء منقوص، تريد بيتا لها وحدها، مؤثثا ومجهزا بكل ما يلزم، ولا تريد أن تسمع شيئا عن أولاده وزوجته الأولى، أما مالها فمستحيل أن يرى منه دينارا، على العكس، سيخصص لها أجرا لزينتها وملابسها ومصاريفها الخاصة، وسيقبّل حافر قدميها إن رغب في بعض كرمها الجنسي!

لم أرفض التوقيع انتقاما منه، ولا غيرةً عليه، فأنا لم أحبّه يوما لأغار عليه، إنما لأني لا أعرف ماذا سأفعل بأربعة أطفال إن ترك لي مسؤوليتهم وتخلى عنهم! لم أستطع التفكير في تلك اللحظة ماذا سيكون

مصيري إن تزوج، وتذكرت أني أمضيت له يوما وكالة وندمت عليها طوال عمري، لذا لن أمضي ثانية على أية ورقة.

بعد سنة تقريبا نمنا فيها في سرير واحد كالإخوة، لا هو طلبني ولا أنا رغبت فيه، عرفت أنه ليس بحاجتي، فلو جاع ولو قليلا لأتاني ولو كنت بنصف جسد، فأنا أعرف شرهه الجنسي جيدا، لكنه شبعان حتى الثمالة! لولا ضيق المكان لذهبت للنوم في مكان آخر، لكن توجد غرفة واحدة فقط وهي غرفة فاتح التي ينام فيها محمد وإسلام، أما أمال ونور الهدى فتنامان في الصالون مع حماتي التي لا يتمنى أحد النوم معها، وهي التي تسهر مع جميع برامج التلفزيون، وصوت شخيرها يوقظ حتى الجيران!

تناوشنا وتشاجرنا عدة مرات، وفهمت لاحقا لماذا صبر علي. كان يأمل أن أموت ويتخلص مني، فبعد العملية الثانية وشجارنا ذاك تهاوت صحتي ومعنوياتي، لكن بعد ستة أشهر عدت إلى العمل، وبدا له أني أتعافى وأن موتي ربما لن يأتي. بدأ يفقد صبره فعشيقته تضغط عليه ليحسم الأمور، وأنا لا متّ ولا أمضيت له ليتزوج.

في هذه الأيام المريرة ماتت أمي بعد وعكة صحية مفاجئة. كانت مريضة بالضغط والسكري والكولسترول وكل أنواع العطب الجسدي الناجم عن العطب العاطفي، ورغم ذلك كانت تعرف جيدا كيف تحافظ على توازنها، لكنها في النهاية لم تصمد أمام نزلة برد خفيفة!

على جثتها بكيت بصمت رهيب بعدما فقدت كل قدرتي على الكلام. بصمت أبكي، بصمت أتألم، وبصمت أموت أيضا. في الوقت الذي كان فيه الجميع يتوقع موتي أنا ماتت أمي!

مدينة بومرداس الآن مدينة موحشة حقا، لم يعد لي فيها أمّ ولا أب، ولا حبيب..

على طرف لسان ناصر شيء ما يريد قوله، لكن في كل مرة يبتلعه بسبب تدهور صحتي بعد جنازة أمي، وغرقي في الأحزان من جديد. قلّت شجاراتي معه، لكنها ازدادت مع محمد، فهو نسخة عن عمه؛ لحية متوحشة، قميص قصير، فتاوى في كل شيء، يظل يطارد أمال في كل مكان ويضربها، وتحصيله الدراسي سيء جدا.

كأنما سيناريو حياتي يتكرر أمامي. أمال مثلي تماما، بل وأكثر خجلا وخوفا مني. جادة في دراستها، وهو لا تشغله سوى حراستها. لعنتُ دائما التطرف والمتطرفين، وكرهت قدري الذي وضعني بين أيديهم، ولم أعلم أني سألد واحدا منهم! تلك كانت الضربة الأقوى لقلبي، وللروح السابعة التي تبقت من أرواحي، إن كنت حقا قطة بسبعة أرواح!

من حين لآخر يأتي فاتح ليزور أمه، ويحشو دماغ محمد بألعن الأفكار. ذات مرت سمعته يقول له:

- ماذا أنت فاعل في المدرسة يا محمد! دعك منها، "اللي قرا قرا بكري" كما يقول المثل. لو عندي بعض الصحة مثلك، لذهبت للجهاد في سوريا أو العراق، فالموت شهيدا شرف عظيم!

تمزّقت أمعائي عندما سمعت هذا الكلام. ولحسن الحظ كان مجرد كلام، ولم يأته فعلا بطريقة ما للذهاب إلى هناك!

محمد ليس ابني كما تقول حماتي إنما ابنهم، وهو فعلا كذلك! فأنا لم أربّه وحدي، ربوه معي، وفي النهاية فلت مني. لم يكن بيدي تغيير

أخوَيّ، أو زوجي، لكن كيف فلت ابني مني؟ كيف لم أحترس أنه سيصبح مثلهم؟ الآن فات الأوان على استرجاعه، وحتى لا يتكرر سيناريو حياتي سأنقذ أمال منه.

آخر مرة ضرب فيها أمال بلا سبب، رفعت يدي بما ملكت من قوة وصفعته!

- أتضربينني من أجلها! أتضربين رجلًا من أجل هذه التافهة!
- نعم نعم أضرب رجلًا من أجل امرأة!

لم يقل ضربتِ ابنك إنما رجلًا!! هو أيضا لديه مفهوم مفخم للرجولة. رجولة العضلات! كانت تلك أول مرة أرفع فيها يدي على أحد في حياتي. لا أذكر أني ضربت أحدا من تلاميذي يوما أو أولادي. ضربته لأني تعبت، ولم أعد أعرف كيف أعبر عن تعبي. التاريخ يكرر نفسه وأنا أتفرج. إن متّ فسوف يسوّد أيام أخته كما سوّد فؤاد أيامي!

صرخ، وحطّم، وكسّر كل ما وجده أمامه، وحماتي تزيد من لهيبه ولهيبي:

- يا أسوأ النساء، أتضربين الرجال الآن!

حاولت الإمساك به لإيقافه عن الكسر والتحطيم، فشدني من ذراعيّ ورماني ليردني الجدار. الآن أصبح لدي ابن يضربني.. لقد اكتملت المأساة!!!

أيام حالكات وليال حالكات، ولا بصيص أمل في الأفق. ناصر يبحث عن سبب للشجار حتى يقول شيئا ما، لكنني هادئة فوق اللزوم. هو مشغول جدا، يخرج في الصباح الباكر، ويعود في المساء متأخرا. لا يسأل عن شيء، ولا يعرف أين وصل الأولاد في الدراسة،

ولا ما هي مشاكلهم. يأتي بأكياس الخضر والخبز والحليب ويرميها في المطبخ، معتقدا أن هذه هي مهمته كأب وكزوج!

ناصر يزداد شبابا يوما بعد يوم: ذقن محلوق، عطر، ساعة ضخمة، حذاء لماع، ربطة عنق، وآخر خرجاته صبغة شعر! لم يكن الشيب قد التهم رأسه بالكامل كرأسي، ولكن لديه بعض الشيب، وكأنما اختفى مؤخرا.. إنه في كامل أناقته لولا أن بطنه المنتفخ من الكولا وأكل المطاعم أفسد كل شيء في مظهره!

في ربيع 2013، وأنا أتأمل الوجود، قلت في نفسي إنّ الكون مواسم وكذلك هي الحياة، فلماذا لم ينته موسم الأحزان في حياتي؟

مرّ ما يقارب العامين على عملية بتر النهد، ويجب أن أجري فحصا للنهد المتبقي، فقد يحدث أن ينتقل المرض من ثدي إلى آخر. لكن ناصر لن يعطيني المال ولن يأخذني لإجراء الفحوص، فلا وقت لديه. ثم إنه يخجل بي، ولا شيء يزعجه قدر ركوبي معه في السيارة، لأنه لا يريد أن يراه أصدقاؤه معي ويعرفوا كم هي بائسة زوجته! زوجة بالية كخرقة ثياب، معطوبة كمن عاد من الحرب، لا أناقة، ولا ابتسامة.. ربما حسبني الناس أمّه وليس زوجته!

نادية تقول نقلًا عن هدهدها: إنّ الشقة قد أُثثت بها جدّ في فن الديكور، وقد أصبحت تحفة. العرس قريب، ونجاة تعرف جيدا ما تريد..

ذات مساء عاد إلى البيت ومعه ثلاثة أو أربعة أكياس سوداء، ورماها فوق طاولة المطبخ التي كنت جالسة إلى طرفها، أنتظر ذوبان حبة أسبرين في كأس من الماء، وأتأمل فقاعاتها وهي تتشكل وتختفي.

كنت غارقة في الصمت ثم نطقت بنبرة يائسة، وهو عند عتبة الباب يهم بالخروج:

- أهذه هي مهمتك الوحيدة في هذا البيت؟ ألن تسأل إن كان ينقصنا شيء آخر عدا الخبز والحليب؟ ألا يهمك أن تعرف أين وصل الأولاد في تعليمهم، أو إذا كانت لديهم مشاكل؟ ألا تحاول أن تجد حلا لمحمد الذي ترك الدراسة، وإسلام الذي لديه صعوبة في الكلام؟
- وما دورك أنتِ؟ ألست معلمة! أم أنك تربين أولاد الناس وتضيعين أولادك!

خرج وذهب إلى الصالون وجلس مقابلا أمه. تبعته ووقفت عند عتبة الباب:

- وأنا، ألن ترحمني وتتصدق علي ببعض المال من مالي لأجري فحوصات جديدة، أم تنتظر موتي حتى تتصدق علي؟!
- لو أنك تموتين حقا سأتصدق على كل المساكين!
- طبعا هذا ما تتمناه، فالآن انتهت مهمتي؛ سيارة من آخر طراز، شقة مؤثثة، ومصاريف عرسك أيضا!
- وهل تريدينني أن أقضي عمري كاملا مع معلمة بائسة مثلك، عليلة و"جايحة"!

نطقت أمه:

- وماذا قدّمتِ لولدي حتى تحاسبيه؟

بدأت أثور وهو يثور. انفجرت كبركان خامد منذ آلاف السنين.. دهشا لجرأتي غير المعتادة هذا المساء، وحتى أنا دهشت من نفسي. ولأول مرة قلت له هذا الكلام:

- أنت رجل مستغل!
- أغلقي فمك واخرجي من هنا، ولا تدعيني أفرّج عليك الجيران.
- الضرب هو كل ما تعرف فعله! فرّج الجيران إن شئت فقد تعودوا عليك.
- قلت أغلقي فمك واخرجي.
- لا لن أغلقه. أريد أن يسمعني العالم ليعرف أن بذلتك الأنيقة وربطة عنقك نفاق! وأن أدبك معهم وابتسامتك نفاق! وأنك أسوأ الرجال وأنا سترتك خلال كل هذه السنوات!

انتفض من مكانه، ورمى هاتفه على المائدة. اندفع نحوي كثور هائج، وصفعني صفعة لم أتلق مثلها يوما:

- أنتِ سترتني إذن وليس أنا من سترك! بدءًا من هذه اللحظة أنت طالق، طالق، طالق!!! الآن ستعرفين من كان يستر الآخر!

جثمت على الأرض وأولادي حولي يبكون، عدا محمد الذي كان في الخارج. حاولوا إنهاضي لكنني لم أستطع النهوض. هذه الضربة ستكون الأخيرة..

دخل إلى غرفتنا وهو يصرخ، وخرج منها حاملًا محفظة أوراقه وبعض الملابس التي سحبها على عجل من الخزانة ووضعها في حقيبة صغيرة. خرج وهو يجمع أشياءه المتساقطة وأنا لا أزال عند باب الصالون وأولادي حولي، وأمه تعوي كذئبة:

- إلى أين أنت ذاهب؟ أتغادر البيت من أجل هذه الرخيصة!
- سأرحل إلى بيتي، لا أريد رؤية وجهها!

وقبل أن يفتح باب الدار ويخرج، استدار إليّ وقال:

- غدا لا أجدك هنا، وخذي معك أولادك إن شئت!

أجبته بأعلى صوتي:

- ارحل، ارحل، فأنا أيضا أريدك أن ترحل.. ارحل، فقد تشرفتُ برحيلك!!!

غادر وأمه لا تزال تعوي، وأنا جاثمة على الأرض أكرر:

- تشرفت برحيلك.. تشرفت برحيلك..

بين لحظة "تشرفت بمعرفتك" ولحظة "تشرفت برحيلك" ثماني عشرة سنة من العبودية والذل. زواج شرعي لكن غير إنساني. زواج بائس وتعيس، خرجت منه بأنف مكسور، ونهد مبتور، وآلاف الكدمات والجراحات والصدمات. منكوبة، معطوبة، خرجت فارغة اليدين. لن أركب سيارتي، لن أسكن شقتي، لن أنقذ كرامتي، وإلى آخر لحظة هو من طلقني عندما أراد، وكيفما أراد!

أخيرا نطق بما كان عالقا على طرف لسانه منذ مدة. خطط لكل شيء، وحضّر لكل التفاصيل منتظرا اللحظة المناسبة، وقد أهديتها له بعد أن يئس من موتي وتعنتي في رفض التوقيع له ليتزوج ثانية. كان يجب أن أتوقع بأنه سيطلقني، لكني كالغبية دائما، بقيت على وهمي، أكذب على نفسي وألهيها، بأنه لن يفعلها من أجل أولاده، أو من أجلي أنا التي تعبت معه وصبرت عليه، وكنت خادمته وعبده المطيع، وبقرته الحلوب التي تدر عليه كل يوم طعامه!

أنا الغبية والجبانة! لو أني تشجعت يوما ووضعت حدا لكل شيء. لو أني هربت مع طارق، لو أني رفضت الزفاف بجلباب أسود وحذاء

أبيض وألغيت العرس وأبي معي، لو أني طلبت الطلاق عندما ضربني أول مرة، أو عندما أخذ مني دفتر شيكاتي، أو عندما أجهض ما في بطني. لو أني تركته بعد عام واحد، بعد طفل واحد، بعد عامين، بعد طفلين. لو أني لم أكن غبية، وآمنت بقوانين الستر والعيب والفضيحة والعشرة الزوجية. لو لم أكن جبانة، كيف سمحت لكل هذا بأن يحدث، وأنا أتفرج على حياتي وهي تتحطم. لو أني خلعته، أو شكوته لدى السلطات. لو أني يوما فقط كفرت بلقب "بنت فاميليا". اللعنة على بنات الفاميليا مثلي، الزوجات الخاضعات المطيعات مثلي، الجبانات الخائفات دوما من البقاء بلا سترة مثلي!!

عشيقته محقة إن لم ترض بنصف قسمة، ونصف بيت، أو نصف أثاث، أو نصف مشاعر.. سيحيك لها كل شيء كما تريد، من جيبه ويزيد، فهي لن تقبل الذل، ولن تتنازل عن شيء.

الطلاق أسهل حل لرجل كناصر، غير قادر تماما على متابعة مشاكل الأولاد، فلا ودّ بينه وبينهم، ولا صبر له عليهم، ومتأكد بأن أمهم لن تتخلى عنهم. إنه أسهل حل للتخلص من زوجة منتهية الصلاحية، واقتناء زوجة جديدة عصرية وغالية. الطلاق بالثلاث أسهل وأقوى من الطلاق بواحدة، فلا صلح، ولا رجعة، ولا نقاش فيه.

كيف سيكون شكل حياتي الآن؟ أين سأنهي أيامي؟ أنا مطلقة يعني أني حرة، ويعني أيضا أني مدمرة. لا مال لدي، ولا بيت، ولا وِجهة. الآن لم يبق عندي شيء أخسره، فلتكن نهايتي كما شاءت أن تكون. بعد كل هذه السنوات من حياة القفص الحديدي، أخرج كعصفور لا يعرف كيف يطير.

في الصباح جمعت في محفظتي كل أوراقي المهمة ورميت البقية، فلا مجوهرات عندي، ولا أشياء ثمينة، ثم إني لا أريد أخذ شيء يذكرني بهذا المكان، ولا أريد حمل أغراض ثقيلة وأنا لا أعرف بعد أين سأذهب.

أمال تتوسل إلي ألا أذهب أو آخذها معي، لكني قررت أن تبقى في البليدة لتركز على دروسها لأن امتحان البكالوريا بعد شهرين فقط، وليس من الحكمة أن تغادر ثانويتها الآن لتبحث عن أخرى.

حماتي ما زالت تعوي، وأنا لا أرد عليها. محمد يظن بأنه سيرافقني إلى بومرداس كما طلب منه والده ليلة البارحة، ويقول بأنه سيعود إلى البليدة ولن يبقى معي هناك. جهّزت نور الهدى وإسلام، وفي محفظة كل منهما وضعت بعض الملابس وما يمكن أن يحتاجا إليه من الضروريات.

وحتى لا يرافقني محمد، قلت له بأني سأذهب أوّلا إلى المدرسة ثم أعود إلى البيت ليأخذني إلى بومرداس، فخرج وهو يدندن ويسب ويلعن زواجنا كما طلاقنا. بالتأكيد لن أذهب إلى المدرسة، فلا وجه لي أريه للناس. ماذا سأقول لتلاميذي وزميلاتي ومديري؟ بأنني بلا مأوى ولا زوج ولا مال! لسنوات طويلة كنت محل سخرية وشفقة، والآن سأصبح قصة على كل لسان، وسينشر هدهد نادية خبري في كل مكان.

بصعوبة أقنعت أمال بالبقاء حتى نهاية الامتحانات لتلتحق بي بعدها حيثما كنت. خرجت من البيت مع نور الهدى وإسلام، وكل منا يحمل محفظته المدرسية لا أكثر وأنا لا أعرف أي طريق أسلك، لكني

أدرك جيدا بأني هذه المرة خرجت لمواجهة قدري وعلي ألا أخطئ الطريق..

إلى محطة الحافلات اتجهت، وإلى حيث تمنيت دائما الذهاب أنا ذاهبة، إلى العاصمة.. لا أمّ لي ولا أب في بومرداس حتى أعود إليها، وإذا عدت مع أولادي إلى رشيد وزوجته وأنا مطلقة، فسأكتب بنفسي الجزء الثاني من مأساتي.

هذه أول مرة أسافر فيها لوحدي، وأنا لا أعرف العاصمة قط. طوال الطريق وأنا أفكر أين سأقضي ليلتي؟ في بالي أن أتصل برياض أو سعاد لكن ليس من الحافلة، سأفعل ذلك عند الوصول.

ماذا يجب أن أفعل؟ إلى أين سأذهب؟ إلى الشرطة؟ إلى الحماية المدنية؟ إلى المحكمة؟ إلى دار الرحمة؟ إلى أين يمكن أن تذهب أم بطفليها؟ عدا دروس التلاميذ لا أعرف شيئا عن القوانين وخرائط المدن والخدمات العمومية!

في لحظة الضياع هذه جاء شخص ببالي. بحثت في محفظتي بيد مرتعشة، وقلبي يخفق بسرعة. دندنت وأنا أنبش بين الأوراق:

- يا إلهي فلتكن هنا أرجوك! أنا متأكدة بأني لم أرم تلك المطوية.

عندما وجدتها تنفست الصعداء. إنها هنا، تلك المطوية التي قدمتها لي كريمة عندما كنت في المستشفى. أملي فقط أنها لم تغير رقم هاتفها.

نزلنا في محطة الخروبة للحافلات، حيث الزحام واللصوص والمتشردون من كل نوع. انزويت في مكان خارج المبنى الرئيسي واتصلت بكريمة. رنّ الهاتف مرارا ولم ترد. أعدت الاتصال مرة

واثنتين وثلاثاً لكن لم ترد. انتظرت عشر دقائق ثم نصف ساعة لكن دائما لا ترد.

غير بعيد رأيت امرأة متوسطة العمر تتسول ومعها طفلان. مدّت يدها مكسورة الكتفين، وللحظة فكرت أن ذلك سيكون مصيري أنا أيضا. أرعبتني الفكرة حينما رنّ الهاتف في يدي، إنها كريمة.

لم أعرف كيف أختصر لها ما حدث، ولا كيف أمحو من ذاكرتها أنني ترددت في أخذ مطويتها يوم قدمتها لي، لشكي في أن أحتاجها يوما! كل ما أتذكره الآن أنها قالت بإلحاح اتصلي بي إن احتجت للمساعدة.

بعد ساعتين جاءت بسيارتها وأخذتني إلى بيتها، وبدأت تجري بعض الاتصالات عسى تجد لي مأوى. أثناء ذلك اتصلت برياض وأخبرته بما جرى، أما سعاد فكان هاتفها مغلقا. في المساء جاء رياض ورانية إلى بيت كريمة، واجتمع ثلاثتهم يبحثون لي عن حل.

في الغد دبّرت لي كريمة غرفة في شقة عند صديقة لها. ممرضة متقاعدة تعيش وحدها، وتؤجر غرف شقتها من أجل المؤانسة لا غير. زبوناتها عادة من النساء العازبات العاملات في العاصمة، والقادمات من ولايات أخرى، وهي تنتقي بعناية زبوناتها ولا تقبل بأيّ كانت.

شقة واسعة وراقية، مؤثثة على طراز القرن الثامن عشر. قناديل شمع من البرونز والنحاس، ولوحات زيتية، وتحف فنية، وصور بالأبيض والأسود لعائلة سعيدة. النور يتدفق من بين الستائر الشفافة المتناسقة مع السجادات والأرائك، بيت كأنما صممه وأثثه فنان. للوهلة الأولى حسبتها فنانة متقاعدة أو ربما امرأة مشهورة، لكنها ليست سوى امرأة عادية لكنها فنانة في العيش!

سيدة لا تزال بهية رغم عمرها. لديها ابن واحد فقط يقيم في كندا، وزوجها متوفّى منذ سنوات. سيدة من نوع النساء اللواتي يحتفين بأنوثتهن لآخر العمر، تضع أحمر شفاه وطلاء أظافر على أصابع يديها ورجليها، شعر أشقر رمادي، وتنورة إلى الركبتين..

تعاطفت معي السيدة التي ينادونها مدام زكية، ورفضت حتى أن تأخذ أجرها من رياض الذي ترك أعماله وجاء ليسجل نور الهدى وإسلام في أقرب مدرسة. سعاد بعلاقاتها الكثيرة أجرت هي أيضا بعض الاتصالات ليتم تحويل منصبي على وجه السرعة من البليدة إلى العاصمة. ليس من السهل إيجاد منصب شاغر في منتصف السنة، لكن الجزائر مدينة كبيرة وقد تكون فيها بعض حالات المرض أو الوفاة، فيظهر منصب هنا أو هناك.

بعد أقل من أسبوعين استلمت مقرر تعييني في ابتدائية لا تبعد كثيرا عن شقة السيدة زكية. هذه المرأة أطيب النساء اللواتي عرفتهن في حياتي. رافقتني إلى المدرسة لتريني الطرق والأماكن وأرقام الحافلات والمحطات وكل ما أحتاج إليه. ألبستني ملابسها، وأطعمتني طعامها، وفتحت لي بيتها وقلبها.

السيدة زكية تحكي عن زوج مختلف. صورهما معا في كل مكان من الشقة، بالأبيض والأسود، وبالألوان، وبكامل الأحجام. حدثتني عنه وقالت جملة سبق لي أن قلتها من قبل:

- الرجال أصناف.. فأنا زوجي كان أحن عليّ من نفسي، لم أر منه سوءا قط. عشنا حياة هنيئة في جزائر السبعينيات والثمانينيات، عندما كانت الحياة أجمل وأبسط، وكانت العاصمة حقا

عاصمة، بمسارحها وعروض السينما والحفلات الفنية، جزائر الأمان والانفتاح.

وكّلت لي كريمة المحامية المتعاونة مع جمعيتها لتتابع ملف طلاقي في البليدة، وتلغي عاجلا الوكالة التي ما زال ناصر يسحب بها أموالي. أخذتني إلى مركز البريد وقدمتُ تصريحا بأني لم أعد موكلة أحدا لسحب أموالي بعد اليوم، ومع أن المحامية قامت بإجراءات الإلغاء سريعا غير أن ناصر سحب راتب الشهر الذي طلقني فيه!

يا له من مصاص دماء!! قلت ذلك بصوت مرتفع وأنا في مركز البريد أبحث عن شيء من المال، لكن الحساب فارغ تماما!

في الشهر الموالي سحبت لأول مرة راتبي بنفسي، بعد ما يقارب ثماني عشرة سنة من العبودية! لم أتعود على قبض المال، وبدا لي مبلغا كبيرا، رغم أن أجر المعلمين تعيس ومثير للشفقة.

العمل مقابل الراتب! هذا هو شرط بعض الرجال الذي يبتزون به النساء العاملات، بعد الزواج طبعا، أما قبله فقليلون من يملكون ما يكفي من الشهامة لإظهار نواياهم من البداية، لتنظر المرأة في الأمر وتناقشه. لست الوحيدة التي عاشت هذا النوع من العبودية، فعدد غير قليل من المعلمات اللواتي عرفتهن كن مثلي!

المحامية تتحدث عن مئات وربما آلاف الحالات من النساء العاملات المستعبدات ماليا، لكن لا أدري لماذا المعلمات بالضبط، المطلوبات كثيرا في بورصة الزواج، يرضين بهكذا مساومة أكثر من أي نوع من الموظفات! حالات الخُلع والطلاق بسبب هذا النوع الجديد من العبودية، الذي لم يدرج بعد في ملفات الأمم المتحدة وحقوق الإنسان يزداد يوما بعد يوم.

يوافق الرجل على عمل خطيبته، وبعد ليلة الدخلة مباشرة يغير رأيه، ثم يعرض حله السحري: العمل مقابل الراتب! في النهاية سيشتري سيارة لن تركبها، وشقة لن تسكنها، والباقي سيصرفه على عشيقته أو زوجته الجديدة كما فعل ناصر!

المعلمات مؤدبات جدا.. زوجات مطيعات خاضعات بامتياز، لسلطة الزوج كما سلطة المدير! ينهكهن التعليم على مرّ السنين، ولا يجنين شيئا من تعب التعليم! يسترن عورات أزواجهن جيدا، ويخَفن من الفضيحة. أنا واحدة منهن، والآن فقط أدركت حجم حماقتي وغفلتي!

مع السيدة زكية طفت على محلات شارع ديدوش مراد وشارع حسيبة بن بوعلي. اختارت لي بذوقها الرفيع ملابس ملونة، وخمارات زهرية، وسراويل عصرية. قبلًا كنت ألبس حجابا مستطيلا وخمارا مربعا، من لون واحد داكن وجـــاف وغليظ، أخفي وراءهما شيب شعري، نهدي المبتور، بطني المترهل، شعر رجليَّ، آثار الضرب، وعيوبًا أخرى...

جربت ملابسي الجديدة أمام المرآة، والسيدة زكية تملي علي كيف أستخدم بعض الأكسسوارات ومواد التجميل لأول مرة: ماسكرا، أحمر شفاه، حمرة خدود... وتعلمني طرقا عصرية لوضع الخمار الذي ما عدت أحتمل شده بذلك الإحكام بمساكات تذبح الرقبة، فأنا أشعر دوما بالاختناق وضيق التنفس الناتج عن ضيق الحرية. ومع أني تعودت جدا عليه ولا أستطيع الخروج بدونه، إلا أني أفضل تركه مفتوحا في الرقبة، وأكتفي برمي أطرافه على كتفيّ يمينا ويسارا حتى أتنفس.

كطفلة فرحة بملابس العيد، وهدايا العيد، رحت أجرب وأعيد. تأملت وجهي وجسدي في المرآة، ولأول مرة منذ سنوات رأيت نفسي جميلة. في النهاية الجمال هو إحساس مرافق للسعادة والكرامة والأمان.

لمن كل هذا إن لم يكن في حياتي رجل؟ إنه لنفسي! لقد قررت أن أعيش من أجل نفسي وليس من أجل أحد. هذه النفس التي أهنتها وأذللتها كثيرا. أنا لا ألوم ناصر على شيء، ولا فاتح، ولا أمه، ولا أحدا. وحدي أنا المسؤولة وليس القدر المكتوب، فالقدر منحني عدة فرص للنجاة وأنا من ضيعتها!

هذا استنتاج مرير جدا، لكنها الحقيقة التي توصلت إليها، وسأبتلعها وأنا أتقيأ! دوما نلوم القدر ونحمله نتائج قراراتنا وخياراتنا لنرتاح من عذاب الضمير، وفي الحقيقة الله يمنح كل واحد منا ورقة وقلما، ويدعه يكتب قدره بيديه، وذلك هو المكتوب!

أمام شاشة التلفزيون الكبيرة في الصالون، جلست على الأريكة ووضعت الوسادة في حجري. بقيت أصعد وأنزل بجهاز الريموت، أستكشف القنوات التلفزيونية العربية على أشكالها: دعاة في أغلب القنوات بلحى وأوجه مخيفة. راقصات ومغنيات شبه عاريات كأنما المرأة العربية حقا متحررة لهذا الحد. برامج سياسية يتضارب فيها الضيوف ويتسابون، ومقدم البرنامج الذي يتعمد إثارة الشجار يشعر بالنشوة وهو يفك الخصام ويدعو للتعقل. مسلسلات حب مدبلجة من كل الثقافات: تركية، مكسيكية، هندية، كورية... والحب لا يعرف كيف يعيش في البلاد العربية! مللت منها جميعا وتوقفت عند قناة وثائقية.

شاردة الذهن كنت أتفرج، ثم غصت في موضوع الشريط حول الحياة الزوجية في البرية. اعترتني قشعريرة وشعرت بالصقيع يعتلي صدري، سحبت الوسادة وعانقتها وأنا أكتشف كيف يتغزل الذكور بالرقص والغناء والمصارعة ليحظوا برضا الأنثى، وكيف يعاونون في بناء الأعشاش والجحور وتربية الصغار، وعندما رأيت كيف يعامل العصفور العصفورة تمنيت لو كنت كائنا برّيًا لا بشريًا!

الأنثى في ثقافتنا هي من تفعل كل شيء من أجل الذكر وفي النهاية لا يرضى! شعرت بالشجن وسالت دموعي الصافيات اللامعات..

- لماذا تبكين؟ ماذا حدث الآن؟

قالت السيدة زكية وصينية الشاي بين يديها.

- لا شيء حدث. فقط اكتشفت بأن أنثى الحيوانات أكثر عزّة ودلالًا مني، ومن نساء كثيرات مثلي!

من الجيد أني غادرت البليدة ولم أعد إلى بومرداس. أحيانا تغيير المكان هو الدواء الوحيد للشفاء من الأحزان. العاصمة مدينة كبيرة ولا يعرفني فيها أحد، والذين يعرفونني خارجها هم حاليا يأكلون لحمي نيئا، لكن هذا ما عاد يهمني الآن. لقد عشت دائما من أجل إرضاء الآخرين، وفي النهاية لا أحد رضي عني!

من حين لآخر كنت أقرأ القرآن بحثا عن السكينة، وعن معنى للحياة كما يريدها الله، لا كما يريدها المتطرفون. غالبا ما أشرد وأنا أقرأ، وأجد نفسي أهجي الكلمات بشكل آلي فقط لأني مشغولة البال، لكن بعض المعاني تستوقفني وتعيدني إلى قلب النص.

أمرّ على الآية (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) وأتوقف متأملة المعنى. سمعت كثيرا الرجال في حياتي يقولون (الرجال قوامون على النساء) لكني لم أسمع أحدا منهم أكمل (بما أنفقوا من أموالهم)! كلّ ما أنفقته على ناصر من مالي وهو يتعالى عليّ بقوامته!

وأمرّ على الآية (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكما مودة ورحمة) وأتوقف متأملة زواجي الذي كان حلبة مصارعة خسرت فيها نفسي وحياتي، لا سكينة فيه ولا سكن!

وأمرّ على الآية (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا) فأقول في نفسي: أنا زوجي لا أمسكني بمعروف ولا سرّحني بمعروف!

وأمرّ على الآية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) وأتساءل لماذا لا أحد يكمل (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة)!

قرأت وتمعنت، وقررت أن لا أسمع بعد الآن لأحد يفتي باسم الدين، فقد أفسدوا علاقتنا بالله بعدما جعلونا نعتقد بأنه هو من أمر بإهانتنا وذلّنا!

وعندما أمرّ على الآية (إن بعد العسر يسرا) أتعلق بها كما يتعلق غريق بقشة، وأكررها على مسمعي ليطمئن قلبي.

بعد نهاية امتحانات البكالوريا التحقت بي أمال في العاصمة. كم كبرتْ بسرعة وكم كبرت معها. شابة جميلة لكن خجولة وخوّافة أكثر مني. أمال لا تتحمل رؤية أحمر الشفاه، ولا أن يحدثها أحد عن

الزواج. مصدومة من كل شيء، ولا تريد سوى الدراسة. تحتاج ربما لرعاية نفسية، لأنها إن بقيت هكذا ستعيد سيناريو حياتي. بل عليّ أن أداويها من الأمراض التي نقلتها إليها؛ الخوف، والجبن، والتردد.

يوم أعلنت نتائج البكالوريا في بداية شهر جويلية، بكينا من الفرحة، فقد نجحت وبمعدل لم أكن أتوقعه، وهي التي مرت بتلك الظروف. زغردت السيدة زكية زغرودة عاصمية طويلة تطرب الأذن، ومن أجلنا حضّرت مائدة حلويات بالجوز واللوز، ونوّعت فيها وفي المشروبات حتى فاضت المائدة من كل الجهات.

استضفنا رياض ورانية، وكريمة وبناتها الثلاث، وكذا سعاد التي لن تفوت فرحة كهذه من أجلي رغم انشغالها الشديد، أما أمين فقد اعتذر عن المجيء لكنه وعدني بزيارة قريبة مع زوجته.

قبل وصولهم وقفتُ جانب أمال وهي تصفف شعرها أمام المرآة، وطلبت منها أن تضع بعض أحمر الشفاه الذي لم تمسه منذ أن كانت طفلة، فالحفلة حفلتها واليوم يومها. خاطبتها وهي تنظر إليّ من خلال المرآة:

- بدءا من الآن أريدك أن تتغيري، أن تدافعي عن نفسك. لا تساومي على كرامتك، ولا على أحلامك. تزيني والبسي وافرحي وامرحي، ويوما ما سيحبك رجل وتحبينه، وتكتشفين روعة الحب وروعة الحياة في زواج سعيد.
- أتزوج برجل كأبي! أو عمي! أو أخي!
- بل برجل كالذي أحببته أنا يوما وأحبني..
- ماما!! وهل أحببت يوما!!

- أجل أحببت، لكني ضيعت حبي بنفسي من شدة جبني وخوفي.
- ومن هو؟ ومتى؟ وكيف؟!

توسعت عيناها حتى التمزق فضولا ودهشة، فهي لم تعرفني أبدا عاشقة. وصل الضيوف وأغلقت الموضوع، وأمال غير مصدقة لما سمعت.

نحن نحتفل بنجاح أمال في العاصمة، وناصر يحتفل بزواجه في البليدة. كل شيء بيننا انتهى كأنما لم نعش يوما معا!

***

شيء ما ككرة الثلج لا يزال يتدحرج في صدري، يصعد وينزل، ويخنقني وسط حلقومي، ويفقدني القدرة على التنفس.

سهو، نسيان، قلق، أرق، كوابيس، أضغاث أحلام... باختصار أنا لست بخير لأني لم أتصالح بعد مع ماضيّ ومع نفسي. زرت أمين في المستشفى لإجراء فحوصات جديدة، ونصحني بالطبيبة النفسية الموجودة هناك بعدما طمأنني على صحة نهدي الوحيد. جلستُ لأفضفض لها وإذا بها تحكي لي ما هو أسوأ مما عشته، من مآسيها ومآسي النساء اللواتي تداولن على مكتبها. شعرت بعدم الجدوى وادّعيت بأني أصبحت أفضل وغادرت!

في البيت شكوت حالتي للسيدة زكية فنصحتني:

- ابحثي عن طريقة ما لتخففي بها عن نفسك، عدا البكاء طبعا. حاولي أن ترسمي، أو تكتبي، أو تغني، أو ترقصي.. افعلي أي شيء لكن لا تبقي مكبوتة هكذا.

ضحكت من قولها، تراني أستطيع أن أرقص! كنت دائما امرأة كثيرة البكاء، والآن علي استبدال الدموع بشيء آخر.

أخذت قلما وبقايا كراس، ولم أستطع كتابة شيء. حاولت أن أرسم لكني لا أعرف الرسم أيضا. خربشت بعض الخربشات ثم أغلقت الكراس وما كتبت فيه سوى كلمة طارق!

في تلك الليلة أصابني الأرق وشعرت بحاجة للكتابة. عدت وفتحت الكراس من جديد وبدأت أكتب. الساعة الثالثة صباحا وعشرات الصفحات قد امتلأت، إني أكتب قصة حياتي.. فهذا ما احتجت لكتابته لأعيد مراجعة نفسي.

في بداية شهر سبتمبر استأجرت شقة صغيرة غير بعيد عن بيت السيدة زكية، التي رفضت أن تستلم دينارا مقابل إيوائي وأولادي خلال أكثر من ستة أشهر. ابني محمد لا زارني ولا اتصل، فهو غاضب مني لأني لم أقصد بيت أهلي بعد الطلاق، إنما ذهبت إلى العاصمة، وكذلك ناصر ورشيد، وكأنما أثبتُ لهم أني فعلا امرأة غير صالحة، لأني انتهزت الفرصة وهربت منهم جميعا.

وجدتني كريمة ذات مرة منهمكة في الكتابة وعلّقت مازحة:

- ألم تحفظي دروس التلاميذ بعد لتحضري المذكرات!
- بل لم أحفظ دروس حياتي، لذلك كتبت قصتي.
- حقا! دعيني أقرأ البداية فقط عندما كنت عاشقة، أما البقية فأعرفها وهي تعيسة.

بدأت تقرأ ولم تكن تتوقع أني كتبت شيئا يستحق القراءة. نظرت إلي وقالت:

- اذهبي وحضّري لنا قهوة، أنا سأقرأ المزيد.

بعد أن قرأت ربع ما كتبت أو أكثر توقفت لبرهة وعلّقت:

- فاطمة الزهراء، أدهشتني!
- هل كنتُ عاشقة جيدة؟
- أنت كاتبة جيدة وهذا هو الأهم!

بعدما أكملت المخطوط المخربش من كل الجهات، وضعته أمامي وخاطبتني:

- سننشر ما كتبت! ستعطين العبرة لكثير من النساء، وستدعمين الجمعية دعما لا يقدر.
- ومن سيشتري قصة معلمة بائسة؟
- لا يهم. أظن أنه لا توجد طريقة أفضل من الكتابة والنشر لمعالجة مشكلة العنف ضد المرأة واستغلالها ماديا.

لم أفكر في احتمال النشر وأنا أكتب، وكريمة تلح على أنه دعم لنضال الجمعية من جهة، وتعبير عن معاناة آلاف النساء المقهورات مثلي من جهة أخرى.

- لِمَ أنت خائفة هكذا؟ هيا أخبريني، ماذا بقي لك لتخسريه؟
- لا شيء!
- ماذا اكتشفتِ بعدما تأملت قراراتك على مهل؟
- كانت دائما تنقصني الشجاعة لأفعل ما أريد. كنت أخاف من الخوف!

حاصرتني كريمة بالأسئلة التي كنت أخشى طرحها على نفسي، وتبين لي أنه لا داعي للخوف الآن، ففي النهاية قد علم الجميع في

عائلتي ومحيطي بأني كنت امرأة معنّفَة ومستغَلة، والآن أصبحت مطلقة، فلماذا لا تعلم الجزائر كلها!

- أعرف صديقا لديه دار نشر صغيرة، طبع لي عدة مرات مطويات الجمعية مجانا. سيطبع لنا خمسمائة نسخة فقط وأنا سأتكفل بالبقية. أريدك أن تنضمي إلى الجمعية وتشاركي في حملات التوعية، لتتحرري من خوفك وتحرري النساء معك.
- أنت محقة. إن حرّرتُ امرأة واحدة من خوفها سأكون سعيدة. ثم إن لم أتجرأ على النشر فذلك يعني أني ما زلت مسكونة بالخوف والجبن.

دار بيني وبين كريمة حوار عميق جدا، انتهى باتخاذي قرارا لا رجعة فيه: سأنشر قصة حياتي!!

من فرط فرحتها عانقتني كريمة:

- وأخيرا التقيت بامرأة شجاعة تكتب وتنشر عن الموضوع الذي تحكي عنه النساء سرا. نقّحي عملك، وضعي له عنوانا، ولا تذكري أحدا باسمه، وأنا سأتدبر لك كاتبة ماهرة وسريعة لطبع العمل، وسننشره في أقرب وقت.

عندما غادرت كريمة مرّت ببالي أسوأ الاحتمالات لكني قررت وانتهى الأمر. لن أعطي للوسواس الخناس فرصة لأن يفسد علي الأمور كالعادة. التفكير كثيرا يفسد الأشياء، لذا فإن بعض الغباء جيد في الحياة!

راجعت ما كتبت، ونقحته، وسميته: "تشرفت برحيلك".

بعد أشهر قليلة صدر الكتاب باسمي الكامل والحقيقي "فاطمة الزهراء زيتوني"، فمن الجبن أيضا أن أنشر باسم مستعار. طبعا لم يسمع بالكتاب أحد، لكن كريمة لديها خطة. من حين لآخر تتم دعوتها إلى بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية لتتحدث عن جمعيتها ونضالها النسوي، وستأخذني معها في المرة المقبلة.

قصة معلمة مجهولة لن تلقى رواجًا ولن يشتريها أحد، نشرتها فقط لأقهر خوفي وأتعافى منه، ولأقدم العبرة وأشجع الأخريات على الحديث عن قضايا المرأة المسكوت عنها، خاصة العنف والاستغلال المادي.

أسابيع قليلة وجاءت كريمة بخبر مهم:

- حضّري نفسك. لقد تلقيت دعوة من قناة تلفزيونية خاصة للمشاركة في حصة حول العنف ضد المرأة، وستأتين معي لتتكلمي عن تجربتك كامرأة وكمناضلة في الجمعية. وهي فرصة لتشيري إلى كتابك ليعرف الناس أنك انتقلت من مستوى البكاء والنواح إلى مستوى الكتابة.

شعرت بالارتباك وحاولت إخفاءه، لكنه تسرب من بين أصابعي وقد لاحظته كريمة:

- ما بك؟!
- لا شيء. سآتي معك!

بثت الحصة بعد المغرب حيث يكون معظم الناس أمام شاشاتهم، وهاتفي لم يتوقف عن الرنين. اتصل بي علي ليخبرني أن رشيد قد شاهدها، وهو يقسم بأنه سيقطع رأسي إن عدت إلى بومرداس ثانية!

في الغد جاء رياض ليهنئني على شجاعتي، وأوصاني بألا أفكر أبدا في الذهاب إلى البليدة، لأن ناصر وفاتح يتوعدانني، أما محمد فقد تبرأ مني ولا يريد سماع اسمي بعد اليوم! ومن قال بأني سأعود إلى بومرداس أو إلى البليدة ثانية! لا يهمني ما يفكر به رشيد وناصر وفاتح، وجعي الوحيد هو محمد.

خفت دائما من أخي، ثم من زوجي، والآن جاء دور ابني! لكني قررت أن أضع حدا لكل الرجال الذين حوّلوا حياتي إلى جحيم وتحكموا فيها دون أن يجلبوا إليها ذرة سعادة ولو كان ابني، وهذا هو الامتحان الأصعب!

شخص واحد فقط ببالي أتمنى أن يكون قد رآني..

بعد مدة توارى توتري من الموضوع، وضعت في زحمة الأيام والبشر.

في بداية عام 2015 احتفلت لأول مرة بعيد ميلادي. أربعون سنة مرت كلمح البصر رغم مرارتها. توافق ذلك مع احتدام النقاش حول المرأة في الجزائر بعد عرض مشروع لتعديل قانون الأسرة من أجل حماية أفضل للنساء والأطفال، لكن معارضي المشروع من المتزمتين والخائفين من أن تحظى المرأة بحرية أكبر وكرامة أكبر، يعلّون أصواتهم في برامج التلفزيون وبعضهم نساء! وأنا أتابعهم شعرت بالغثيان، فأغلقت الشاشة في وجوههم.

مشهد درامي حقا! إن الذين يتحدثون عن موضوع العنف لم يعيشوه، ويكتفون بالتصويت بعد الاطلاع على بعض الحقائق والإحصاءات البعيدة كل البعد عن الواقع المرير، فمعظم النساء لا

يبلّغن أبدا عن الأمر، وبعضهن دُفن ولا أحد يعلم سبب موتهن! لذا كل الأرقام المقدمة ليست سوى قطرة من بحر!

لولا أن الله سخّر لي بعض الأشخاص، لأصبحت متسولة ومتشردة في شوارع العاصمة، لكن ليست كل المطلقات بمثل حظي! هذا الحظ الذي بدأت مؤخرا أكتشف وجوده في حياتي، وإلا ما وجدت مساعدة من أحد، والشوارع مليئة بالأمهات والأطفال، وقد نفض الأزواج أيديهم من كل مسؤولية.

اكتشف القراء كتابي والنقاد أيضا، وأنا كل ما يهمني في الموضوع أن الكتابة قد أعادتني إلى الحياة وإلى الحضارة. ربما لا أكون فائقة التعبير الفني والأدبي، لكني كتبت أساسا من أجل قضية إنسانية لا أدبية. ثم إن الكتابة كالحب، أيًّا كانت نهايته يبقى مغامرة تستحق أن تعاش..

يمكنني القول الآن بأنني تصالحت مع نفسي ومع تاريخي، وبأني تعافيت من جل أمراضي النفسية والعقلية والجسدية. وما داوتني العقاقير الكيميائية ولا الجلسات النفسية إنما داوتني الكتابة! ومعجزة المعجزات كلها، أنها ساعدتني على الشفاء من السرطان!

كأنما ينبوع من الشعر قد انفجر بين أصابعي. أكتب كل يوم تقريبا بعض الخواطر الشعرية. لن أتحدث عن القبح والعنف والتطرف، فقد قلت كل شيء عن ذلك في كتابي. الآن لا شيء يستهويني في الكتابة سوى الحب!

عن الحب كتبت كمراهقة عمر ومراهقة كتابة. المهم بالنسبة إلي أنها كتابة تتمثل أنايَ الجديدة وحياتي الجديدة. جمعت نصوصي الشعرية في

مجموعة وسميتها "فقط قبلة"، لأن أجمل ذكرياتي ليست سوى قبلة، وقررت نشرها أيضا في المستقبل القريب بعد أن أرتبها وأضيف إليها بعض النصوص.

في الصالون الدولي للكتاب، المنظم في قصر المعارض أواخر شهر أكتوبر، عشت يوما ليس كبقية الأيام. كنت حاضرة هناك لأول مرة لتوقيع بعض النسخ من كتابي للقراء بطلب من دار النشر التي برمجت جلسات بيع بالتوقيع لكل الكتاب الجدد الذين نشرت لهم.

في هذا اليوم ارتديت أحلى ما عندي. تزينت، وتعطرت، وابتسمت أجمل ابتسامة، لأني سألاقي أحبائي. زحمة غير عادية لأنه يوم جمعة والجزائريون يتوافدون بالآلاف على المعرض.

معظم الناس ممن مروا بالجناح لا أعرفهم. من حين لآخر يمرّ علي زميل أو زميلة ممن درّست معهم، وكذا بعض تلاميذي. لقاءات رائعة مع أشخاص رائعين: أمين وزوجته، سعاد، رياض ورانية، كريمة وبناتها، السيدة زكية، علي، حسام، نصيرة وزوجها وأولادها، جميلة وزوجها وابنتها الصغيرة، وغيرهم ممن ملؤوا حياتي الجديدة. الكل كان في الموعد، فاليوم يومي والفرحة فرحتي.

بين التوقيعات والتحيات كنت مبعثرة. المكان ضيق ويكفي أن يحوم حول الطاولة الصغيرة ثلاثة أو أربعة أشخاص لأبدو مغمورة بالبشر. أوقّع وأكتب عبارة محبة وسلام، ثم أسلّم الكتاب بيدي للشخص الذي مد يده متمنية له قراءة ممتعة.

امتدتْ أمامي يدٌ حاملةً الكتاب. عطر رجالي زكي أثار شهيتي وفضولي، وعيني الناظرة إلى اليد تلمح شيئا أسودَ في المعصم.

- صباح الخير زهرة!

زهرة! أقال زهرة! لا أحد يناديني زهرة!

رفعت عينيّ من يده، إلى صدره، ثم إلى وجهه.. وعندما رأيته لم أدرك أفي حقيقة أنا أم في حلم..

بابتسامة أزهى من أي ربيع قال:

- منذ مدة وأنا أنتظر دوري فهلّا وقّعت لي!

- طارق!!!

صرخت ووقفت..

- طارق!!

أعدت وكررت:

- طارق!

قلتها ثالثة وقلبي قد كسّر أضلعي، وعرج إلى السماء السابعة في لحظات..

- آه يا زهرتي كم افتقدتك!!!

قالها بالفرنسية:

Oh ma rose comme tu m’as manqué!!!

فتح ذراعيه وأكمل:

- دعيني.. دعيني أعانقك!

مددت ذراعيّ قبل أن أخرج من زاوية الطاولة.

تعانقنا أجمل وأحلى عناق بعد تاريخ طويل من العشق والحنين، وعلى صدره شعرت بجمرة الشوق الملتهبة تحترق في قلبينا بعد طول فراق.

دفعته من ذراعيه إلى الوراء، وتأملت وجهه مرة أخرى غير مصدقة أني أراه، ثم سحبته إلي وعانقته من جديد.

- وقّعي لقرائك، أنا سأكون هنا. هذه بطاقتي وفيها رقم هاتفي، أعطيني إشارة عندما ينتهي كل شيء وسآتي لأخذك من المعرض.

وأخيرا عشت جمعة مباركة في حياتي!!

في مكان ما في العاصمة، في شرفة مطلة على البحر، غابت الشمس قبل قليل، والكافيتيريا شبه فارغة. لا تكلم ولا تكلمت.. جلسنا جنبا إلى جنب، وكل واحد منا يتأمل وجه الآخر. كم كبرنا! كم تغيرنا!

مددت يدي ولمست مربط شعري في معصمه، سحب يده التي كانت على ظهري، ولملم بعض خصلات شعري المنسدلة من تحت الخمار على وجهي، ثم مرّر أصابعه برقة على خدي.

تعانقنا، وغرقنا في قبلة عرضها السماوات والأرض!! اشتهيته، وتمنيت لو يكسر عظامي ليعيد تشكيلي من جديد!!

بكل ما أوتيت من قوة عانقته، وبكل ما أوتيت من شوق قبّلته..

قبلتنا الأولى عشت بها واحدا وعشرين سنة، وهذه القبلة سأعيش بها ما تبقى لي من سنين.

قبّلته وقد قررت بكل ما أوتيت من إيمان وعنفوان، أن أعيش الحب، وأعيش حياتي، ملء الكون، وملء كياني..

أكملت فاطمة الزهراء جملتها الأخيرة هذه وتنهدت، وسادت بينها وبين الصحفية لحظة صمت. ما أصعب أن تكون المرأة امرأة! ساعات وهي تحكي والصحفية تستمع ولم يقاطعهما سوى النادل عندما جاء بالقهوة. وقفت ولبست معطفها استعدادا للمغادرة عندما رن هاتفها وأجابت: أنا قادمة عزيزي..

البويرة في 15 جانفي 2016

18:29

رواية

فيروز رشام

تشرفتُ برحيلك

لم أستطع تصور شكلي بنهدٍ واحد، ولا إن كنت حقا سأتقبل أنوثتي المنقوصة بدءاً من اليوم. وفي غمرة حزني تذكرت ما قالته لي معلمة ذات مرة بتنكيت لا يضحك أحدا:

- لا يهم إن بُتر نهدك الآن. لقد تزوجتِ وأنجبتِ فماذا ستفعلين به!

نظرية بائسة بؤس معظم المعلمات اللواتي عرفتهن في حياتي! كم عمر النهد قصير في ثقافتنا! بل كم عمر الأنوثة قصير! تنتهي حياة المرأة وحياة أعضائها عندما ينتهي دورها الاجتماعي: تزوجتْ وأنجبتْ، إذن انتهى كل شيء!

من الرواية



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان – الأردن – تلفاكس ٤٦٥٠٨٨٥ ٦ ٩٦٢+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com

